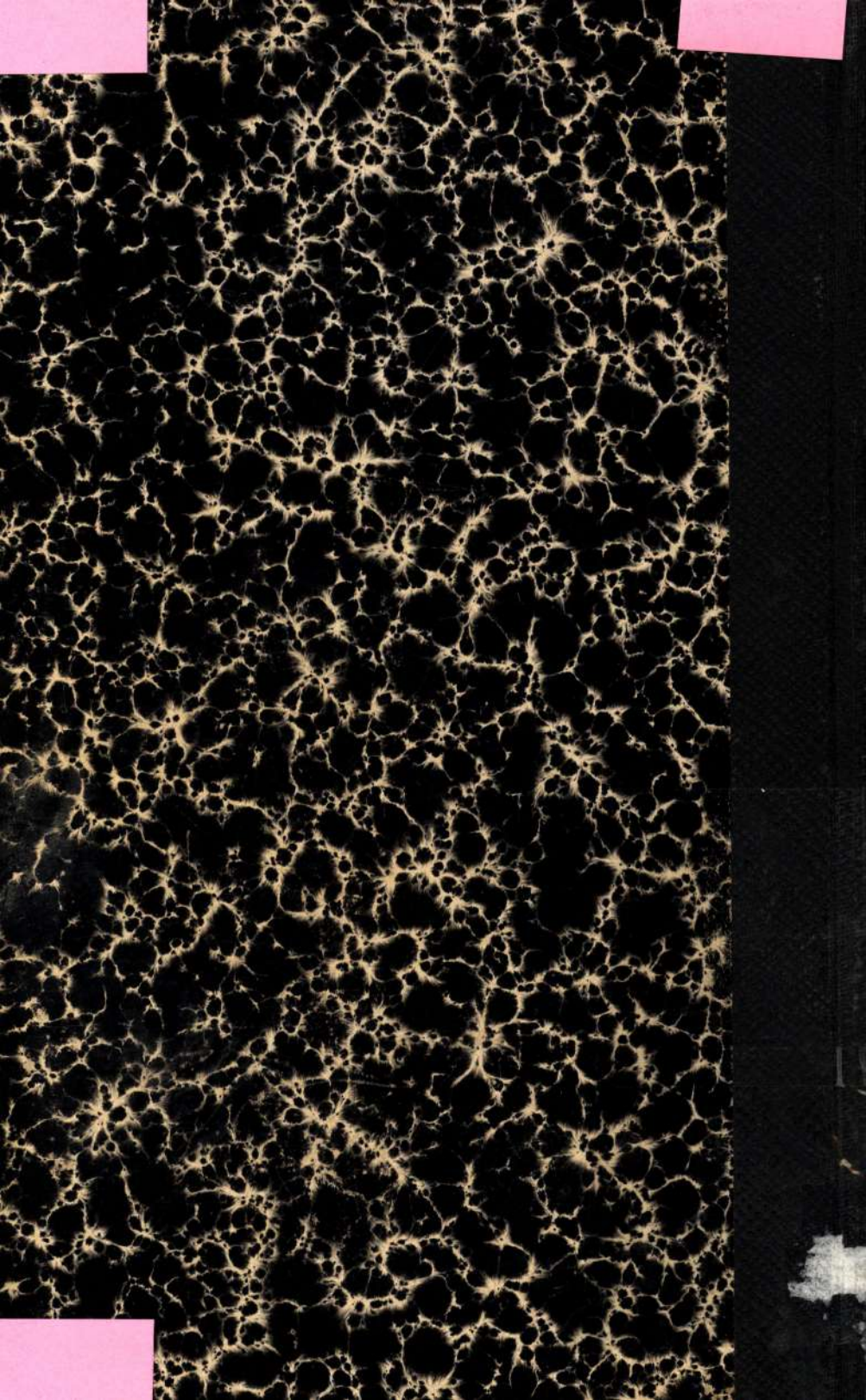

الحروب الصليبية

في

الاثار السريانية

للقس اسحق ارملة السرياني

عني عنه

بالمطبعة السريانية في بيروت

سنة ١٩٢٩

القس اسحق ارملة السرياني

الحروب الصليبية

في

الآثار السريانية

توطئة

تعهدت دار الكتب الكبرى في بيروت اريد الوقوف على ما نشره الكتبة من اخبار الصليبيين وما وقع لهم في بلاد الشرق من الفتوح المشهورة والحوادث المذكورة . فدلني حضرة امينها النبيل الفيكنت فيليب دي طرازي على ستة عشر مجلداً ضخماً جمع فيها اعضاء المجمع العلمي الاثري في باريس ما رواه الفرنج من فرنسيين وانكليز والمان وايطاليان وما كتبه الروم اواليونان والعرب والارمن في هذا الشان فقلبتها وتصفحتها فاذا هي خلو مما صنفه المؤرخون السريان . ولما رايت ان اولئك الكتبة الاعلام على رغم تعمقهم في الاخبار التاريخية قد قصروا في هذا الشأن توخيت سداً لهذه الثلمة ان اروي للقراء الاعزاء تلك الاخبار المهمة انقلها عن ثلاثة من المشاهير السريان اعني المؤرخ الرهاوي المجهول اسمه الذي كتب حوادث العالم حتى السنة

١٢٠٤ والبطريرك ميخائيل الكبير † ١٢٠٠ والمفريان ابن العبري الشهير † ١٢٨٧

ولا غرو ان روايات هولاء المؤرخين الثلاثة حقائق تاريخية راهنة واسانيد ثابتة من وجهين . اولهما لانهم دبجوا صحفهم بما راوه بعينهم او تلقفوه عن شهود عيان . ثانيهما لانهم اثبتوا ما اثبتوه لا لغرض في النفس بل خدمة للحقيقة فامست اخبارهم والحالة هذه ذات شان خطير في عيون من توخي الوقوف على الحقائق التاريخية

بناء عليه اعتمدت في نشر المواقع الصليبية الشهيرة اولا على ما كتبه المؤرخ الرهاوي تابعاً خطته في سرد الاخبار فصلاً فصلاً . وقد شاهد بعض تلك المواقع بام عينه سواء كان في الرها وطنه ام في فلسطين(١) . ويحق لي ان اؤدي مفترض الشكر لغبطة السيد اغناطيوس افرام الثاني رحماني بطريركنا الانطاكي العلامة الشهير الذي نبش هذا التاريخ الفريد ونشره منذ السنة ١٩٠٠ بالطبع في مطبعته البطريركية بدير الشرفة . ثانياً : عمدت انجازاً لرغبتي وتعميماً للفائدة ان اراجع كل ماسطره في السريانية ميخائيل الكبير في مؤلفه الضخم المطبوع في باريس عام ١٩٠٠ والمفريان ابن العبري في تاريخه السرياني المدني الذي نشره الاب

(١) اطلب تاريخه ص ٣٦٦

بولس بيجان اللعازري المفضال عام ١٨٩٠ فذكرت تارة في المتن وطوراً في الهوامش ما فات المؤرخ الرهاوي . واردفت ذلك كله برحلة الربان صوما السرياني النسطوري عام ١٢٨٧ الى رومية وبلاد أوربا من قبل ارغون ملك التتر ويابالاها الجاثليق + ١٣١٨ لما لذلك من العلاقة بالجهاد الصليبي . وتركت تاريخ السنين على ما رووها هم

وقبل الخوض في سرد تلك الحوادث رمت ان انقل عن هولاء المؤرخين نفسهم نتفاً مما سبق الحروب الصليبية اثبته كتمهيد لما ازمعت ان ارويه فاقول مستغيثاً بالله تعالى عز وجل وهو حسبي

١

بلاد المشرق قبل الحروب الصليبية

ظلت فلسطين كسائر بلاد المشرق في حوزة ملوك الروم اصحاب قسطنطينية حتى ظهر الاسلام وتولى الخلافة عمر بن الخطاب (٦٣٤—٦٤٤) فسار في السنة ٦٣٦ م الى اورشليم فخرج اليه صفرونيوس اسقفها وعقد معه الصلح وطلب منه الامان للاهالي فكتب له عمر في ذلك عهداً (١) وحرج على اليهود الاقامة في القدس . وبعد هذا ابتنى جامعاً على انقاض هيكل سليمان حيث الصخرة التي كان قدس الاقداس فوقها وانصرف (٢)

واورد ابن العبري (٣) ان المسلمين في انطاكية هاجوا على النصارى عام ٩٦٨ وفتكوا ببطريركها وقوضوا اغلب كنائسها. فعول نقافور ملك الروم عام ٩٦٩ على استرجاع اورشليم فلم يتوفق. غير ان اخاه سار الى انطاكية عام ٩٧٠ في اربعين

---

(١) ميخائيل ص ١٤٩ . وقد اكتفينا بالاشارة الى تاريخ ميخائل الكبير وابن العبري بذكر حرف الميم بدلا من ميخائيل والعين بدلا من العبري مع اثبات رقم صفحات تاريخيهما المطبوعين

(٢) ع ١٠٣ (٣) ع ١٩٠

الفاً وامتلكها

وتتابعت الحروب في تلك الحقبة فدخلت اورشليم في حوزة خلفاء مصر تارة وطوراً في حوزة خلفاء بغداد وآونة في حوزة ملوك الروم (١) حتى ظهر الترك فاستحوذوا عليها . ثم ظهر عليهم المصريون واسترجعوها

ولما تولى الخلافة في مصر الحاكم بامر الله تفنن في المظالم والمساوىء فأصدر في السنة ١٠٠٧ (٢) الاوامر الشديدة بتقويض كنيسة القيامة من اساسها وسلب امتعتها باجمعها . وهدم الوفاً من كنائس النصارى . وأمر المنادين ان ينادوا ان النصراني الذي يدين بالاسلام يعامل بالتجلة والاكرام والذي يبقى على دينه يحتقر ويهان ويعلق صليب في عنقه . اما اليهودي الذي يصّر على اللبوث في مذهبه فيلزمه ان يعلق في عنقه شكل راس عجل اشارة الى العجل الذي صنعه اليهود في القفر وسجدوا له . واضاف الحاكم الى ذلك انه حظر على النصارى لبس الخواتم في اصابعهم اليمنى وركوب الخيل . ورخص لهم ان يركبوا البغال والجحاش عليها السرج الاعتيادي والركب الخشب . وحتم على من يتعدى امره بسلب كل ماله وابعاده الى بلاد الروم

فهجر الكثيرون من النصارى وطنهم وجحد قوم دينهم

(١) م ٥٥٣ (٢) ع ٢٠٤ و ٢٠٥

وعلق المتبقون منهم في اعناقهم صلباناً ذهبية وفضية واتخذوا لدوابهم سروجاً فاخرة ملونة . فاستشاط الحاكم سخطاً وشدد الاوامر بقتل كل نصراني لا يعلق في عنقه صليباً خشبياً يزن اربعة ارطال بالوزن البغدادي واهلاك كل يهودي لا يعلق في عنقه خشبةً شكل يد الجرس ترن ستة ارطال . وزاد على ذلك انه حتم على كل نصراني ويهودي يدخل الحمام ان يعلق في عنقه جلاجل ليتميز عن المسلم

وهذا الاضطهاد نشا من رجل تفرد بمقته واحتقاره النصاري فبلغ الخليفة الحاكم ان المسيحيين اذ يجتمعون للاحتفال بعيد الفصح في كنيسة القيامة يتواطأ رؤساؤها ومتولوها فيدهنون بزيت البلسم سلسلة القنديل المعلق فوق ضريح الفادي وأن الوالي او حافظ الكنيسة عندما يختم باب القبر يرتقي قوم منهم الى سطحها ويشعلون النار في راس تلك السلسلة فتسير رويداً رويداً حتى تصل الى الفتلة وتضيئها فيهتف الحاضرون اجمع قائلين قوريالیسون ويبكون كأنهم يشاهدون نوراً سماوياً هابطاً على القبر فيرسخون في ايمانهم

واسترسل الحاكم في الاعتساف والتعدي على النصارى زمناً ليس باليسير حتى ندم اخيراً على سوابقه فامر من جحد ايمانه ان يعود الى ما كان عليه ورخص للمسيحيين ان يبنوا

كنائسهم فابتنوها احسن من ذي قبل وعاد المنهزمون الى وطنهم

واورد المؤرخ المشار اليه (١) ان المستنصر خليفة مصر عقد الصلح عام ١٠٣٥ مع ميخائيل ملك الروم واطلق خمسين الفاً من الاسرى النصارى كانوا مسجونين لديه واذن للملك ان يجدد بناء كنيسة القيامة فاوفد البنائين والعمال في ذهب وفضة كثير فشادوها تكراراً

ظلت الحال على هذا المنوال حتى اخذت دولة الخلفاء العباسيين في التقهقر والانحطاط وظهر عليها المماليك الترك عام ١٠٤٥ فقويت شوكتهم وصار الحل والعقد بيدهم . وكان راسهم سلجوق اوسلتوق (٢) وكان لسلجوق اخ اسمه ارتق فانشأ الحكومة التركية . وولد سلجوق سليمان وولد ارتق ايلغازي . وتفرد اولاد سلجوق ببلاد المشرق من حدود المدائن الى قبدوقيا . وتولى ابناء ارتق بلاد ارمنيا وميافرقين وآمد وجعلوا ماردين حاضرتهم وساروا الى فلسطين وامتلكوها وامتلكوا انطاكية وسوريا

وكان اكسين وسقمان واخوتهما احفاداً لارتق . فاستولى

(١) ع ٢١٩ (٢) نلخص هذه الحوادث عن تاريخ الرهاوي من ف ٢٣٤ ص ٢٥٤ فصاعداً

اكسين على انطاكية . وسقمان على اورشليم والسواحل . وتولى سليمان بن سلجوق قليقيا وبلاد الروم . وتولى آقسنقر الموصل . وبزان الرها وسوريا . وتتش بلاد الشام . وكان هولاء الثلاثة من جملة مماليك الترك

اما الروم فكانت بلاد ملطية وسميساط وحصنمنصور وكيسوم والرها في حوزتهم فسار الترك في ثلاثين الفاً الى ملطية وقتلوا خلقاً كثيراً

وفي السنة ١٠٦٩ جهز رومانس ديوجين ملك الروم عساكره وسار لمحاربة السلطان سليمان بن سلجوق فتغلب سليمان على الروم وفتك بهم فتكاً ذريعاً وقبض احد الجنود على رومانس واراد قتله فصرح له بانه هو الملك فمضى به الى السلطان سليمان فاجزل له العطاء وردّه الى بلاده فلما وصل الى قسطنطينية قبض عليه الجنود وسملوا عينيه فمات من ساعته

وتوفي السلطان سليمان عام ١٠٧٠ وخلفه ابنه ابو الفتح فسير ابنه سليمان الثاني الى بلاد الروم فاستولى على فلسطين وصور وصيدا ودمشق واورشليم وارمنيا وقليقيا . وبقيت سلوقيا وطرسوس وعين زربة وملطية والرها وانطاكية وملحقاتها في حوزة فلرطس الارمني

وفي السنة ١٠٨٥ سار ابو الفتح الى انطاكية واخذها عنوة

ومر بالرها وولى عليها بزان يوم الاربعاء نصف الصوم الكبير في ٣ اذار ١٠٨٧ فاستحل بزان كنيستي ماريوحنا ووالدة الله وسط المدينة وكان عمر قد جعلهما جامعين وابتنى هناك منارة شاهقة. ثم استعمل عليها ثاودرس بن هاتم الارمني. وبقيت الرها في يد الترك سبع سنوات حتى استرجعها ثاودرس المذكور وشاد فيها سوراً من النهر في غربيها الى بابها الشرقي

وفي السنة ١٠٨٨ سار سليمان بن ابي الفتح الى انطاكية وضبط كنيسة مار بطرس الكبرى المعروفة بالقسيان وحولها جامعاً وولى على المدينة اكسين بن ارتق واستانف المسير الى طرسوس وعين زربة والمصيصة وادنة وامتلكها

وضبط ايضاً اورشليم وصوراً وصيدا وفلسطين وانطاكية ودمشق والرها وبلاد سوريا وما بين النهرين وارمنيا والبنطس حتى تخوم قسطنطينية واستعمل عليها عمالاً تركاً

وحدثت في تلك الاثناء حرب بين بزان وتتش فانتصر تتش وحز هامة بزان واوفدها الى الرها واوصى الفرج حاملها ان يغزو المدينة ويعيثها. فشمل الفيرج بشراب الانتصار وأولم وليمة للجنود في القلعة واستحضر قينة نصرانية يقال لها فيراجالي سبق ثاودرس فلقنها ان تحتال عليه وتفتك به فاماتته في الحمام. فسارع الرهاويون وثاروا على الترك ودحروهم. واسترجعوا الرها

وقلعتها الى الروم واستعملوا عليها ناودرس المذكور حتى جاء الفرنج وملكوها

٢

زحفة الفرنج الي بلاد المشرق

لما استولى الترك على بلاد فلسطين وسوريا نشموا يفحشون في تعذيب النصارى القاصدين الحج الى بيت المقدس ويتقاضونهم المال عند دخولهم المدينة وزيارتهم جبل الجلجلة وضريح السيد المسيح ويبالغون في التضييق خصوصاً على الزوار الوافدين من رومية وايطاليا الى اورشليم ويوقعون باقوام منهم ظلماً وعدواناً. فتحمس ملوك الفرنج واقطابهم وجيشوا الجيوش الكثيفة وخرجوا عن رومية واجتمع اليهم في طريقهم الامراء والقواد والعساكر من جميع اطراف اوربا. فركبوا البحر الى قسطنطينية (١) يريدون استنقاذ اورشليم من ايدي المسلمين

وكان خروجهم من بلادهم في السنة ١٠٩٨ (٢) وهي السنة ٤٩٢ للهجرة والثالثة والخمسون لظهور الترك. وكان

(١) م مقالة ١٥ ص ٥٨٥ (٢) ع ١٠٩٧

اليكس يومئذ ملكاً في قسطنطينية . واكسين التركي في انطاكية . والافضل المصري في فلسطين اذ كان المصريون قد ملكوها منذ السنة ١٠٩٦ وملكوا سواحل البحر واخرجوا منها سقمان واخوته اولاد ارتق التركي . اما الرها فكان الروم قد استعملوا عليها ثاودرس بن هاتم المذكور آنفاً

فتجهز من ثم الفرنج وعبوا الوفاً وربوات من العساكر والجنود والضباط والصناع واستصحبوا طائفة صالحة من الاساقفة ولفيف الاقليرس والرهبان . وعلى رأسهم اربعة ملوك عظام امتازوا بالبسالة والشجاعة وهم بيموند وغودفروا وسنجيل وطنكريد(٣) . وساروا برآنحو قسطنطينية ووصلوا الى المضيق حيث يجتمع البحران واوفدوا الوفود الى اليكس كي يتهيأ للخروج معهم ويعدّ لهم العدد ويوصي اهالي مدن مملكته ليجهزوا المؤن للعساكر والخيل فوعدهم بذلك . بيد انه ما عتم ان اخلف في وعده فراسل امراء الترك في نيقية وغيرها ليبادروا في عساكرهم ويقاتلوا الفرنج .

---

(١) ع ص ٢٦٣ وم ص ٥٨٥ ملكان وهما مامون؟ وطنكريد وسبعة قامصة وهم رجير وبيموند وبغدوين وجوسلين وغالران وغودوفروا وسنجيل . فساروا تواً الى اسبانيا وملكوها ثم توجهوا الى قسطنطينية . ويختلف المؤرخون الثلاثة في ضبط اسماء هولاء الاقطاب فعولنا نحن على ضبطها كما ذكرناها في النص

فاحتشدوا من فورهم وساروا في قضهم وقضيضهم وانقضوا عليهم في سواحل البحر واثخنوا فيهم حتى ابادوهم برمتهم . فانهزم الباقون الى قسطنطينية وحصروها سبع سنوات (١) ثم واجهوا ملك الروم ووزراءه وتحالف الفريقان على الخروج معا للقتال من ناحية غلطة وصاروا الى نيقية وحصروها واحتلوها وملكوا عليها اليكس . ولما ارتحلوا الى قليقيا ارتجت لهم الارضون وهلعت منهم القلوب وبات الملوك جميعاً يحسبون لهم الف حساب ثم توجهوا الى انطاكية لانها مفتاح بلاد سوريا وخيموا في الحدود القريبة منها وحرجوا المرور على الغادين والرائحين وقطعوا الميرة عن البلد وعاثوا في الضياع والحقول والمزارع المحيطة بها

وظل الفرنج يحاصرون انطاكية تسعة اشهر وحدث فيها اذ ذاك زلزلة عظيمة قوضت ابنية فخمة وظهر في اساس احد ابراجها المتهدمة بيت قديم (٢) يشتمل على اشخاص من نحاس شتى باشكال فرنجية تمثل رجالا ممتطين الخيل مدججين بالرماح والسيوف النحاسية متدرعين باصناف الاسلحة . فامر اكسين التركي ان يبحثوا عن اصلها وفصلها فلم يهتد احد الى حقيقتها بل غلب على ظنهم انها اصنام وثنية فامر الوالي

(١) مج ٢٦٤ (٢) م ٥٨٦

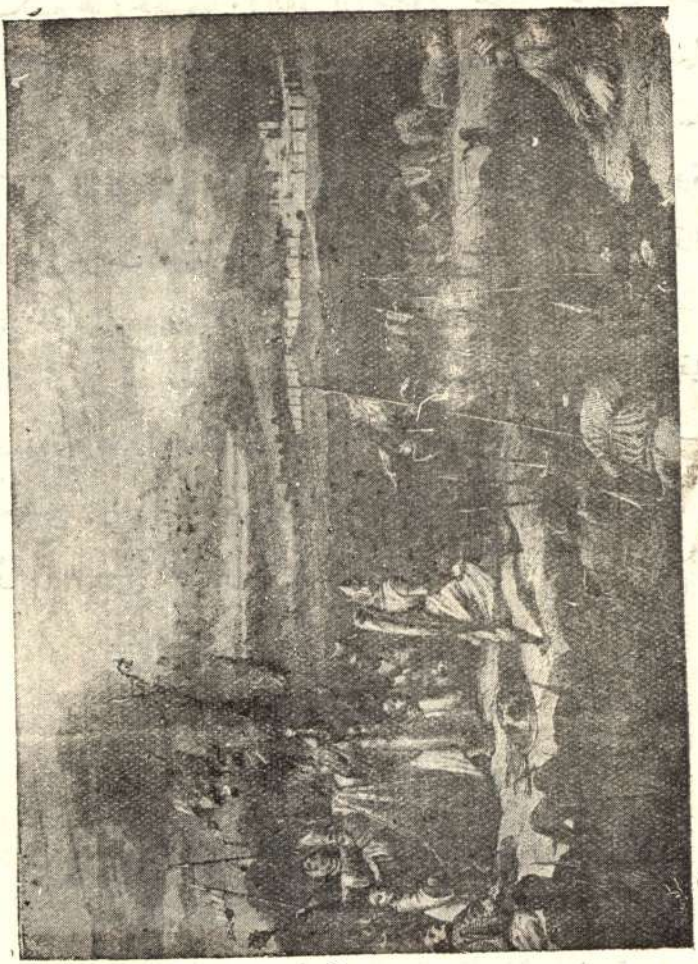

الصليبيون تجاه انطاكية سنة ١٠٩٨ (١)

(١) اشكر لجناب الفاضـل الفيكنت فيليب دي طرازي امين دار الكتب الكبرى تكرمه علي ببعض صور الصليبيين

بتكسيرها وتحطيمها . واتفق ان عجوزاً عمياء اذاعت حين ذاك انها سمعت الكهان يقولون ان في اسفل ذلك البرج طلسمات تشير الى ان امم الفرنج لا يخرجون ولا يعبرون البحر . فتأسف اكسين الوالي على تكسير الاشخاص واستدعى العجوز وقال لها هل عرفت امر تلك الاشخاص وهل يتيسر ترميمها . قالت كلا . فامر بضربها وقتلها

ثم ان الفرنج بعد خروجهم من البحر الى الساحل عقدوا مجمعاً وعاهدوا الله تعالى انه ان اتاح لهم فتح اورشليم عاملوا بالحسنى جميع النصارى من اي مذهب كانوا ووهبوا كل ملة تؤمن بالسيح كنائس واديراً

٣

ذهاب الفرنج الى الرها
وخروج الاهالي لاستقبال بغدوين

ولما بلغ الرهاويين امر قدوم الفرنج الى بلاد المشرق ووصولهم الى انطاكية سالوا ثاودرس الوالي ان يكاتبهم ويستحثهم ليسارعوا الى الرها ويحموهم من هجمات الترك اعدائهم . فابى عليهم ذلك في بادىء الامر واخذ يسعى في صرفهم عن رغبتهم

ذهاب بغدوين الى الرها وخروج الاهالي لاستقباله

سنة ١٠٩٧

غير انه تخوف ان يرسلوا سرا الى الفرنج وفداً على رغمه . فجعل يداريهم في الظاهر وينافقهم في الباطن وهو يعرف حق المعرفة انهم يكمنون له الحقد والبغضاء . واخيراً اضطروه ان يرسل الى الدوق غودفروا رئيس القواد وفداً حمله كتاباً فيه يسأله ان يبعث الجنود الى ولايته . ولما اطلع الفرنج على ذلك الكتاب ابتهجوا ابتهاجاً عظيماً واستبشروا خيراً وقالوا كما ان الرها سبقت اورشليم في الايمان بالسيد المسيح هكذا شاء الله تعالى ان تدخل قبلها في حوزتنا (١) فاستدعوا من ثم بغدوين شقيق غودفروا وسيروه اليها في شرذمة من الجنود والعساكر فخرج الاهالي للقائه مرحبين وادخلوه البلد وملكوه عليهم مسرورين

وكان بغدوين بطلاً صنديداً وموصوفاً بالتقوى والورع . وكانت الرها يومئذ حافلة بالسكان المختلفي الاجناس والقبائل غاصة بالاقليريس والرهبان والوجهاء . وكانت ضواحيها زاهرة بالخصب والعمران ممتلئة من الذخائر وصنوف الغلال

بيد انه ما انتهى بغدوين الى الرها حتى تعرض الاهالي الى ثاودرس الوالي وراحوا يكيدون المكايد لاهلاكه واتلافه لا لحبهم للفرنج بل لمناوأتهم اياه . فهاجوا من ثم وماجوا وتالبوا

(١) م ٥٨٠ يشير الى رسالة ابجر الى السيد المسيح

في منحدر السور العالي عند راس النبع فخرج اليهم ثاودرس ليردعهم ويكفهم . ولكنه ما وصل اليهم حتى تكالبوا عليه وحاولوا الفتك به ففر الى الحصن الاسفل الذي سبق فابتناه فوق باب المدينة الشرقي فقصدوا نحوه وحملوا عليه حملة شعواء واخذوا يقاتلونه . فاستحلفهم ان يبقوا عليه ويطلقوا سبيله وسبيل امراته واولاده ليذهبوا اينما شاء الله . فوعدوه وايدوا وعدهم بقسم . فامر الحراس ان يفتحوا الباب ليخرج . غير ان الخصوم ما راوا الباب مفتوحاً حتى تسلقوا الحصن وقبضوا على ثاودرس وعروه من ثيابه ولم يدعوا عليه سوى ما يستر سوءته ودلوه من السور عرياناً ثم انقض عليه بعضهم وفتكوا به ناكثين وعدهم وبادروا الى داره فقوضوها واستصفى بغدوين اموالهِ . واستحوذ على الحصنين ورتب فيهما الحامية

٤

فتح انطاكية

سر الفرنج باستيلاء بغدوين على الرها سروراً جزيلاً وشددوا عزائمهم وشارفوا انطاكية ليدوخوها . واستدعوا رزباه الفارسي واخوين ارمنيين كانوا يحرسون البرج في ناحية

كشكروف ووعدهم بيموند بمال جزيل ان اطلقوا لهم الحرية في العبور على جسر ذلك البرج المؤسس على قضبان حديدية. ولما تم الاتفاق بينهم اقبلوا ليلا وعبروا المضيق وتسلق بعضهم بالحبال الى قنة السور واحتشد الباقون حوله. وقبل بزوغ الفجر نفخوا في الابواق فانتبه اكسين الوالي مذعوراً وغلب على ظنه انهم ملكوا القلعة فركن الى الفرار وخرج من باب الحصن الاعلى في ناحية الجبل الشرقية الجنوبية وسار في طريق حلب يصحبه ثلاثة رجال. ولما انتفخ النهار واستيقن ان الفرنج لم يستحوذوا بعد على القلعة اخذ يمض انامله ندماً ويندب سوء عمله ويقول: وآلهفتي كيف تركت بلدي وخلفت اهلي واولادي واموالي وخرجت وحدي شريداً. وكان يلتفت ذات اليمين نحو انطاكية يحدق فيها وينوح عليها. ولفرط ما حاق به من الغم والحنق سقط من ظهر حصانه فاركبه اصحابه فسقط ثانية فاركبوه ثالثة فسقط فتركوه وحده وانهزموا فمر به رجل ارمني كان يقطع حطباً في الجبل فحز هامته ومضى بها الى الفرنج (١)

وبعد ان استولى الفرنج على السور كما ذكرنا انحدروا

(١) ع ٢٦٤

الى البلد يطفرون ويركضون مسرورين بالغلبة لا يكترثون للعسكر التركي المتبقي في القلعة . ولبثوا على تلك الحال ثلاثة عشر يوما يجهدهم الجوع والمحل ويفتك بهم وبدوابهم حتى اضطر بعضهم الى اكل لحوم الخيل واشتدت المجاعة حتى بلغ ثمن راس الحمار نيفاً وعشرين دينارا

وهم لكذلك اذا بكربوقا التركي قد اقبل في مائة الف فارس من اطراف بغداد والموصل فمر بالرها واستباح ضواحيها قتلا ونهبا واستانف المسير الى حلب فبلغه ان الفرنج دخلوا انطاكية واحتلوها . ففار فائره وعجل اليها ليسترجعها . وكان العسكر التركي الى ذلك الحين محاصراً على ما قلنا في القلعة والفرنج يناوشونهم القتال ليل نهار . فوصل كربوقا واصحابه وخيموا عند بغراس حيثما كان الفرنج قبل دخولهم البلد

فاخذ القنوط من الفرنج ماخذه وراحوا يقيمون الصلوات ويثابرون على الاصوام والابتهالات الخاشعة الى الله تعالى القدير ليمن عليهم بالغلبة التامة . وراى احد اساقفتهم (٢) رؤيا ان

(٢) م : ان طنكريد هو الذي رأى الرؤيا فحفروا الكنيسة وعثروا على مسامير صليب ربنا فسبكوا منها صليباً وسناناً لرماحهم وخرجوا الى قتال الترك ووضعوا فيهم السيف وملاوا الارض من جثث القتلى ودحروا من بقي منهم الى ما بين النهرين

في بيعة القسيان في المكان الفلاني الحربة التي طعن بها جنب يسوع الفادي وكان اليهود قد صنعوها في طبرية فاذا نبشتموها وسرتم بها الى محاربة العدو فزتم بالانتصار والظفر فافاق ذلك الاسقف مبتهجا وقصد المكان المشار اليه في فئة من الجنود فحفروا واستخرجوا الحربة وتهيأوا لمناوشة الترك القتال قائلين الاولى ان نموت في المعركة ولا نهلك جوعا او يستولي العدو علينا فيسبينا كالنساء ويفحش في تعذيبنا . قالوا هذا ووضعوا راية الصليب والحربة في رؤوس رماحهم وحملوا على الترك حملة صادقة فمنحهم الرب الغلبة في ٣ حزيران ١٠٩٨ وقتلوا منهم خلقا كثيرا وهزموا البقية وانقلبوا الى الخيام واحتووا على ما فيها من الاقوات والاموال والدواب والاسلحة . وذاع خبر تلك المعركة العظيمة في البلاد الدانية والقاصية واستحوذ الهلع على قلوب ملوك الترك وغيرهم . وتولى انطاكية بيموند وابن اخته طنكريد

٥

تتبع زحفات الفرنج والبلاد التي احتلوها

وبعد فتح انطاكية سار الفرنج الى المعرة (١) واحتلوها وقتلوا فيها ما اناف على المائة الف نسمة وظلوا فيها اربعين يوماً ثم انصرفوا عنها في اسلاب وغنائم كثيرة وارتحلوا الى جبل لبنان واوقعوا بالنصيرية وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ثم تنقلوا الى عرقا شرقي طرابلس وحصروها اربعة شهور فامتنعت عليهم فتركوها وقصدوا شيزر بين حمص وطرابلس فادى لهم الطاعة صاحبها ابن منقذ ودفع لهم الجزية . ثم انتقلوا الى حمص فخرج اليهم صاحبها جناح الدولة خاضعاً . واستولى الفرنج على طرسوس والمصيصة وآدنة (٢)

وكان الترك يومئذ يشغلون سروج في نواحي حرّان والرها . وكان الارمن مستولين على بلاد زغما غربي الفرات قرب البيرة .

---

(١) م ١٠٨٠ ان الفرنج ساروا بعد فتح انطاكية الى يافا تواً واخذوها بالسيف ثم شخصوا الى بيت المقدس . ولعل الفرنج انقسموا قسمين فسار احدهم الى يافا وانطلق الثاني الى المعرة . والمعرة مدينة كبيرة قديمة بين حلب وحماة (٢) طرسوس بناها الاثوريون بينها وبين آدنة ستة فراسخ . والمصيصة وآدنة على شاطىء نهر جيحون من بلاد قليقيا

وكان باسيل كبيرهم متولياً رعبان و كيسوم بين حلب والرها. وكان ايلغازي بن ارتق في سميساط على شاطئ الفرات الغربي. اما مرعش والجبل الاسود فكانتا بيد ابناء فلرطس الارمني. وكانت قليقيا وعين زربة بنواحي المصيصة في ملك بني رافان الارمن

اما طنكريد ملك انطاكية فانه جيش الجيوش وشد على بلاد الترك وامتلك قلاعاً وحصوناً شتى. ثم صار الى منبج وبالس وعاد في الربيع الى طرابلس ليطعم الخيل عشباً

على انه لما استفحل امر الفرنج لم ير الترك الا مراضاتهم واستمالتهم فاوفد رضوان صاحب حلب الى طنكريد ٣٢ الف دينار وعشرين حصاناً اصيلا واربعين قطعة قماش فاخرة. وارسل اليه صاحب صور سبعة آلاف دينار. وصاحب عسقلان اربعة آلاف دينار. وصاحب شيزر اربعة آلاف دينار. وعلي الكردي صاحب حماة الفي دينار. وابرموا جميعاً الهدنة الى زمن الحصاد ليودوا الغلال الفرنج [1]

(١) ع ٢٧٥

تتويج غودفروا ملكاً على اورشليم عام ١٠٩٩

٦

زحفة الفرنج الى اورشليم وفتحها
وتتويج غودفروا ملكاً عليها

قوي امر الفرنج في الشرق وطبق الامصار ذكر انتصارهم وثابت اليهم قوتهم فزحفوا في جيوش ضخمة الى فلسطين براً وبحراً وحصروا في طريقهم يافا واحتلوها في ايام يسيرة. ولما بلغوا الى مدينة بيت المقدس احدقوا بها من كل صوب وحصروها حصاراً شديداً وابتنوا حولها عدة ابراج خشبية وترابية واقاموا عليها المجانيق والعرادات وواصلوا الحرب اربعين يوماً

وكانت اورشليم يومئذ غاصة بالاهالي المسلمين والعسكر المصري والعدد الحربية. وكان صاحبها افتخار الدولة [1] قد ابعد عنها المسيحيين . فاحتشد الفرنج في برجين ابتنوا احدهما عند باب صهيون في الناحية الجنوبية وثانيهما عند مار اسطفانس في الجهة الشرقية . فبادر المسلمون والقوا النيران في برج باب صهيون فاندلعت وانتشرت وما انتهى الحريق حتى اوقعوا في البلد صيحة عظيمة ينادون ان الفرنج قد اقتحموا المدينة ودخلوها

(١) الافضل

من الناحية الشرقية

فتح اذاً الفرنج اورشليم في تموز ١٠٩٩ ووضعوا السيف في العسكر والاهالي وتوغلوا في المعارك الدموية اسبوعاً كاملاً حتى بطشوا بثلاثين الفاً . وقتلوا في هيكل سليمان نيفاً وسبعين الفاً [١] وامتلأت شوارع المدينة من جثث القتلى فكوموها واحرقوها

وروي ابن العبري [٢] ان الفرنج اخذوا من مسجد الصخرة اربعين قنديلاً فضياً وزن كل واحد ثلاثة الاف وستمائة درهم . واخذوا منه ايضاً مائة وخمسين قنديلاً صغيراً بينها عشرون قنديلاً من الذهب المصري . واحتووا على منارة قناديل فضية وزنها اربعون رطلاً سورياً . والرطل السوري يوازي ستة ارطال بغدادية . واستولوا على اوان وزينات اخرى كثيرة

ولما انتهت تلك المعركة الدموية اخذت امور الفرنج في القوة وتمت لهم الغلبة فتوجوا الدوق غودفروا ملكاً على القدس . ثم جالوا في اطراف فلسطين واحتلوا ضياعاً وحصوناً ومدناً شتى . وساروا الى حبرون وابتنوا فيها كنيسة فخمة . واوحي الى بعضهم وهم قانتون صائمون عن مغارة الآباء حيث

(١) ع ٢٦٠ وم ٥٨٨ هيكل هلقون اوهيكل الرجاء (٢) ٢٦٠

اضرحة ابرهيم واسحق ويعقوب فابتنوها على اجمل طراز (١)

ولما تمكن الفرنج في اورشليم وصلحت احوالهم اخرجوا الروم من الكنائس الكبرى وابعدوا اساقفتهم واقاموا من شعبهم بطريركين احدهما لاورشليم والثاني لانطاكية . فنصب البطريرك الانطاكي اساقفة لطرسوس والمصيصة والرها ودلوك وافاميا وطرابلس واللاذقية وجبلة وقورس ومرعش وحارم . ونصب بطريرك اورشليم اساقفة لبيت لحم وحبرون والسامرة ويافا والناصرة وقيسارية وصيدا وبيروت . وجملة الاساقفة الفرنج عشرون اسقفا . ولما استولوا على صور رسموا لها ايضا اسقفاً (٢)

على ان صوراً وعسقلان بقيت في حوزة المصريين زمناً . وذكر ابن العبري (٣) ان الافضل جيش الجيوش ومضى عام ١٠٩٩ لمقاتلة الفرنج فالتقى الجيشان عند عسقلان والتحم القتال بين الفريقين . فانكسر المسلمون وقتل منهم خلق كثير . فأدى العسقلانيون للفرنج اثني عشر الف دينار فانكشفوا عنهم وعادوا الى اورشليم

(١) م ٥٩١ (٢) م ٥٩٠ (٣) ٢٦٦

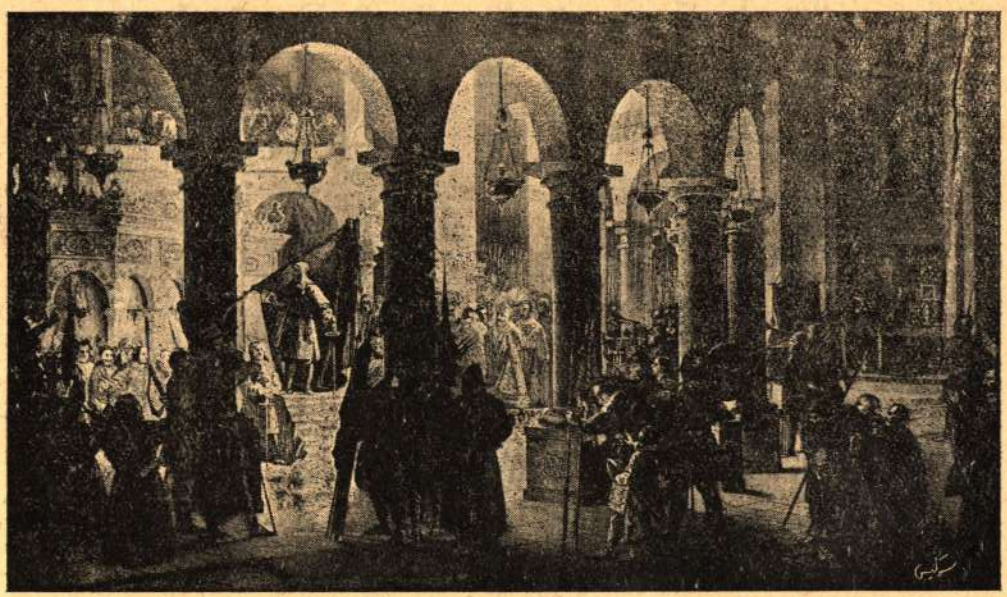

غودفروا يعلق في كنيسة القيامة رايات الترك التي احتلها في عسقلان سنة ١٠٩٩

٧

مواقع سنجيل وانتصاره وفتحه طرابلس

وفي السنة ١١٠٣ سار سنجيل القائد الفرنسي الشهير الى طرسوس (١) ودوخها واقام فيها . فبلغ الترك ان عسكره قليل فارسلوا الى طرابلس ودمشق وحمص وجيشوا الجيوش الضخمة وساروا الى محاربته . على ان سنجيل لم يكن عنده وقتئذ سوى ثلاثمائة وخمسين فارساً لا غير فجهز المائة لمقاتلة عسكر دمشق والمائة الثانية لمقاتلة عسكر طرابلس والمائة الثالثة لمقاتلة عسكر حمص . وانتقى خمسين فارساً سار فيهم وحده للمحاربة . ولما التقى الجيشان الفرنجي والتركي انهزم الدمشقيون والحمصيون وكانوا نيفاً وخمسة الاف ولاذوا بالجبال القريبة وثبت الحمصيون وعددهم نحو ثلاثة آلاف يحاربون الفرنج . فانقض عليهم سنجيل البطل مع رجاله البواسل ودحروهم وتتبعوا الفارين ووضعوا فيهم السيف وقتلوا منهم زهاء سبعة آلاف

ثم انصرف سنجيل من قليقيا الى طرابلس فاحتل في طريقه انطرطس شرقي عرقة وقتل من فيها من المسلمين ونازل قلاعاً شتى وضبطها . ولما وصل في اصحابه الى طرابلس اقام عليها

(١) ع ٢٦٨

حصاراً شديداً طيلة سبع سنوات . وكانت تلك المدينة الساحلية على صغر مساحتها حافلة بالاهلين والجنود الاشداء يحدق بها ثلاثة اسوار يتخلل كلا منها خندق عميق . فشاد سنجيل عند الواذ جبل لبنان حصناً رفيعاً علوه علو ربض المدينة واستمر يضيق عليه دون ملل حتى احتل المدينة في السنة ١١١٠ وفتك بعدة من اهاليها وملك حدودها وسواحلها

وبعد ما نظم احوالها ولى عليها اولاده وعاد الى بلاده حاملا الحربة التي استخرجها الفرنج في انطاكية كما ذكرنا . وعند وصوله الى قسطنطينية التمس منه الكس الملك ان يعيره اياها كمن يريد التبرك بها ثم يردها اليه . فاجاب سنجيل الى طلبه افتخاراً او جهلا . فصاغ الكس في تلك الليلة حربة مثلها ارسلها الى سنجيل وابقى لديه الحربة الحقيقية . وهذه هي الحربة التي طعن بها اليهود في طبرية ايقونة السيد المسيح تهكماً وتشفياً فجرى منها للحال دم وماء (١)

٨

استئسار بيموند ملك انطاكية واحتلال الترك ملطية وزحفة فيطابين (٢) الى قسطنطينية

وكان الروم قد استعملوا جبرائيل الرومي الملكي على

(١) م ٥٠٩ (٢) ريموند ؟

ملطية . وكان الامير دنشمند صاحب قبدوقيا التركي يزعجه ويقلقه وينزو بلاده اثناء الصيف وينقلب الى حاضرته . فعول جبرائيل على التماص من مساوئه وعدوانه و كتب الى بيموند صاحب انطاكية يستقدمه ليسلمه البلد واقسم له في ذلك ثلاثاً مصرحاً له بانه يروم بكل خاطره ان يزوجه ابنته كيرامورفيا(١) ويوليه على ملطية بدلا من جهازها . فوثق بيموند بكلامه وسار اليه في جيش جرار . بيد ان ولاة الارمن كباسيل صاحب كيسوم وابناء روبين اصحاب ارمينيا تخوفوا من الفرنج متوهمين انهم اذا اخذوا بلادهم اخرجوهم عنها فارسلوا الى اسمعيل بن دنشمند سراً ليكمن لهم ويثبطهم عن الدخول

ولما شارف بيموند ملطية وخيم في قرية جفنا اوفد الى جبرائيل يطالبه بانجاز وعده فراح هذا الخائن يؤجله من يوم الى يوم ريثما وصل ابن دنشمند في عسكره وكمن لبيموند حتى تمكن منه وأوثقه واوفده مكبلا الى سبسطية وتوجه هو الى ملطية وشدد عليها الحصار . فسار وجهاء البلد الى السيد يوحنا سعيد صابوني اسقف المدينة يتوسلون اليه ليشير على جبرائيل الوالي ان يسلم المدينة صلحاً مع ان المطران المشار اليه كان فيما سبق يشجعهم ويبعث في قلوبهم النخوة ليقاتلوا الترك . بيد ان جبرائيل ابى الا التصلب في رايه واستشاط سخطاً على المطران وطعنه

(١) تزوجت ببغدوين صاحب الرها م ٥٨٩

بيده ففاضت روحه من ساعته . وعمد الى طائفة من وجهاء المدينة المسيحيين فقتلهم ظانا ان فعلته تلك المنكرة تمكنه من التربث في بلدته . ولكنه ما عتم ان ظهر عليه قائدان جسوران اتفقا مع الترك وسلماهم البلد يوم الاربعاء ١٨ ايلول ١١٠٢ فانقضوا على ملطية المشؤومة واستصفوا اموالها وابقوا على سكانها واعادوهم الى بيوتهم

وبعد هذا اوفد ابن دنشمند فاستحضر من بلاده الذخائر والمؤون والغنم والبقر واجزل الخيرات للاهالي ووطنهم وولى عليهم باسيل التقي الورع وقتل جبرائيل الخائن والقى جثته للكلاب وقوض بيته . ثم استحضر بيموند من سبسطية عام ١١٠٣ وقبض منه مائة الف دينار دية وسرحه الى انطاكية فولى عليها ابن اخته وكر راجعاً الى وطنه (١)

واتفق ان فيطابين ? احد وجهاء الفرنج المشاهير خرج من بلاده في تلك الاثناء وسار الى بلاد بمفوليا وقبدوقيا . ولما وصل الى قسطنطينية سأل اليكس ملكها ان يرسل معه بضعة اشخاص يدلونه على الطرق فمكر به اليكس الغدار كعادته واوفد معه رجالا اسر اليهم ان يضلوا الفرنج في مفاوز قحلة وفلوات سحيقة لا ماء ولا ذخيرة فيها وكتب الى الترك جيرانه ان يسارعوا في

(١) ع ٢٦٧

وفاة غودفروا ونقل جثمانه الى كنيسة القبر

في ٢٣ تموز ١١٠٠

الزخف اليهم وانلافهم فادركهم الترك على اخر رمق وتوغلوا في صفوفهم ووضعوا السيوف فيهم فكسروهم افحش انكسار ولاسيما لانهم كانوا يجهلون تلك الطرق وكان الضعف والجوع قد انهكهم . ثم احتوى الترك على مؤوناتهم وذخائرهم وسلبوهم اموالهم واقفلوا الى بلادهم . اما فيطابين فعاد فيمن بقي معه الى وطنه نادباً خيبوبة امله

٩

وفاة غودفروا ملك اورشليم
وخلافة اخيه بغدوين

وفي ١٨ تموز ١١٠٠ انتقل الى دار الخلد غودفروا اول ملوك الفرنج في اورشليم فبكاه الكبير والصغير لما اشتهر به من الغيرة والبسالة والمروءة والورع والتقوى . وشيع جثمانه الى كنيسة القيامة باحتفال مهيب وكانت مدته سنتين لا غير . وبعد هذا اجتمع السيد دمبرتس البطريرك بارباب الفرنج لانتخاب خلف له . وكان غودفروا قد سبق فاوصى بالمملكة لبغدوين شقيقه ملك الرها . واستقر رايهم جميعا عليه . فملك بغدوين على الرها ابن عمه بغدوين الثاني وصار الى القدس وتوج ملكا

وكان بغدوين الثاني من عظماء الفرنج ممتازاً بالحذق والذكاء

موصوفا بالبسالة والدهاء فتفرد بالرها وولى جوسلين نسيبه على تل باشر في حدود منبج وزفت اليه ابنة جبرائيل صاحب ملطية المذكورة آنفا

١٠

حصار سروج واستيلاء الفرنج عليها

تمكن بغدوين الثاني في الرها فنظم احوالها وحصن اسوارها وراح يفكر في فتح المدن المجاورة لها فعول على محاصرة سروج وعلى اخذها من صاحبها بلك بن ارتق التركي . وكانت تلك المدينة يومئذ عامرة بالنصارى والمسلمين حافلة بالغلال والارزاق تكتنفها ضياع شتى مأهولة بالسكان يرتعون في بحابح الامن والسلام

فجيش بغدوين صاحب الرها جيوشه وضم اليه امراء الارمن من ساحل الفرات وسار يريد تلك المدينة فتعذر على بلك ان يناجزه القتال اذ امسى محاطاً بالفرنج من كل صوب . فاوفد الوفود الى بغدوين يستأمنه فلم ير الا الاجابة الى طلبه . وبعد هذا احتل المدينة وامتلكها وشاد فيها حصناً منيعاً وولى عليها فتثير احد مشاهير الفرنج وارتحل

ولما استقر فتشير في سروج جعل يضيق على الاهالي ويلح عليهم في جمع العائنات والضرائب قسراً وافضى به الحال الى القبض على عبيد العربي النحلة وعلى اخيهِ وآل بيته وكانوا من الاغنياء المثرين فاستنزف اموالهم حتى ارتاشت احواله وتحسنت ولايته

اما سقمان بن ارتق فلم يرق له ما عمله بلك ابن اخيه بل استشاط حنقاً عليه وحشد عساكره وقصد سروج يظن ان المسلمين القاطنين فيها يساعدونه على فتحها غير ان بغدوين تأهب لمحاربته وسار اليه في جيش ضخم

وكان سقمان قد سبق فبث العيون على الفرنج في مكان قريب فلما زحف بغدوين واصحابه خرج اليهم الترك من مكامنهم واحاطوا بهم احاطة الخاتم بالاصبع من كل ناحية ودارت رحى المعارك بين الفريقين فانكسر الفرنج وتمزق شملهم وقتل منهم خلق كثير ولاذ بغدوين بالفرار الى الرها ثم بادر الى انطاكية يستنجد صاحبها

وواصل الترك قتال الفرنج في سروج وقبضوا على فتشير واوثقوه فوقع الرعب في قلوب النصارى وفارقوا بيوتهم في الصناع والعملة والحدادين والنجارين حاملين الذخائر الكافية وقصدوا القلعة واحتصنوا . وكان معهم يومئذ ببيوس اسقف

الرها الفرنجي . فتتبعهم الترك وشدوا عليهم الحصار وناجزوهم القتال ليل نهار . وهم لكذلك اذا برسول قد اقبل يبشرهم بعودة بغدوين . فتراجعت اليهم القوى وهبوا وقت الفجر واوقدوا الشموع في رؤوس ارماحهم والقوا صيحة عظيمة كادت تنشق لها الارض وخرجوا من القلعة وخرج معهم المسجونون عامة ليساعدوهم في القتال . فاستحوذت المخاوف على الترك . وما وصل اليهم الفرنج حتى وضعوا فيهم السيف وابادوا منهم خلقاً كثيراً وانقلبوا الى المعسكر واحتووا على الذخائر والمؤون

وغلب على ظن المسلمين المتبقين في سروج ان الفرنج اذا ما عادوا الى المدينة يفتكون بهم فقصدوا الابواب وارتجوها وتسلقوا القلعة ونادوا بالعصيان يعللون النفوس بمسارعة الترك الى نجدتهم . فنصح لهم الفرنج وبالغوا في اقناعهم وصرفهم عن قحتهم وعصيانهم واقسموا لهم انهم لن يهدروا دم واحد منهم . غير انهم ابو الا التصلب والعناد . فاجتمع من ثم الفرنج بجميع النصارى وسلحوهم برأية الصليب وانقضوا على البلد كالليوث البواسل ودخلوا باب القلعة ووضعوا السيف في الشيوخ والشبان حتى امتلأت شوارع المدينة الوفاً وربوات من الجثث . هكذا نقوضت تلك المدينة العامرة ونعق فوقها بوم الدمار واجتمع من

بقي من النصارى فسكنوا حول قلعتها متقلبين في عيشة ضنكة نادبين سوء حالهم

١١

زحفة جكرميش الى الرها واستيلاء الفرنج على سميساط وجرجر

وفي تلك الغضون جيش جكرميش التركي جيوشاً جرارة وبرز من انحاء المشرق لقتال الفرنج فوصل الى ضواحي الرها وبث فيها اصحابه فعاثوا واتلفوا وسبوا واخربوا حتى شارفوا المدينة . فخرج الفرنج اليهم من الباب الشرقي ليصدوهم عن الدخول واتفق ان قوماً من الرهاويين الجهلة الاغبياء تدججوا بالاسلحة وخرجوا لمقاتلة الترك ففسح لهم هولاء المكان حتى وصلوا الى السهل عند الجسر الشرقي وتوغلوا ما بين صفوفهم فاشتبك القتال بين الفريقين . وكان حراس السور واقفين يرونهم من بعيد فأمروا باغلاق الابواب فانقلب الترك على اولئك المهاجمين الاغرار فكروا راجعين الى المدينة وراوا الابواب موصدة فشملهم الرعب والهلع فسارعوا الى الجسر خائفين مذعورين وتدهدهوا في الخندق مزدحمين فادركهم الترك ووثبوا

عليهم ساخطين وفتكوا بهم فتكة شنعاء حتى امتلاء الخندق في مدة يسيرة من الجثث وسالت دماء القتلى كالنهر . وكر الترك ناكصين على اعقابهم وانقلبوا الى بلادهم دون توبث

وكان للترك عامل في سميساط فقصده الفرنج وادوا له مبلغاً وصرفوه . وامتلكوا قلعتها واستحوذوا على بلاد جرجر في شماليها وولوا عليها ثلاثة امراء أرمن من ابناء سنبل وهم جسطندين وتبتوغ وكرستفور . وكانت تلك البلاد يومئذ عامرة بالاهلين حافلة بالكنائس والمدارس والاديار كدير السلالم وهو دير مار ابحاي ودير فسقين ودير مارجرجس ودير الشير اي دير مارشبطاي ودير ملكوس . وكانت تشتمل على عدة قرى مأهولة كلها بالشعب السرياني

١٢

التئام ملوك الفرنج في الرها وانتقاضهم المشؤوم وانكسارهم

وفي السنة ١١٠٣ اقبل ملوك الفرنج وامراؤهم من الاطراف وساروا في جيوش ضخمة الى الرها يريدون الاستيلاء على بلاد المشرق فعقدوا ثم مؤتمراً وتشاوروا في توزيع البلاد التركية .

بيد ان المطامع ساقتهم الى الاختلاف والانتقاض . فكان هذا يريد مايافرقين وذاك آمد وآخر نصيبين وغيره الموصل . بل افضى بهم الامر الى الاقتراع عليها . وتأهبوا للزحف الى نصيبين . غير ان الترك ما بلغهم اجتماع الفرنج هذا حتى جيشوا الجيوش الكثيفة وتاهبوا لرد غاراتهم

فغادر الفرنج الرها وارتحل معهم قوم كثير من الاهالي طمعاً في غزو ما يحتلونه من البلاد ووصلوا الى برية حران وخيموا في الدهبانة وطن ابرهيم الخليل وكان فيها جامع كبير للمسلمين . فتخوف الحرانيون بطش الفرنج وحملوا اليهم مفاتيح المدينة معولين على تادية الطاعة والخضوع

اما بغدوين ملك الرها فجعل يحدث نفسه ويقول ان حران هي لي لانها واقعة في تخوم مملكتي فاذا اخذتها اليوم انتزعها اصحابي من يدي وخلفوا فيها غيري واتلفوا سكانها نهباً وسلباً فيعود الضرر علي لا عليهم . قال هذا ورد المفاتيح الى اصحابها قائلاً لهم انتم حصتي فارجعوا الى المدينة واحرسوها ريثما نعود ويتفرق امراؤنا . فامتعض طنكريد صاحب انطاكية اي امتعاض وانكر هو والذين معه على بغدوين رأيه الاعوج وسياسته الحرقاء وقالوا بل الاجدر ان نحتل الان حران الحصينة وندع فيها من نحن في غنى عنه ونواصل الزحف الى بلاد العدو فاذا

اولانا الله النصر كانت لك حران ولن يغلبك احد عليها . وزد عليه ان الترك متى بلغهم اننا فتحناها شملهم الفشل وخارت عزائمهم . واذا انكسرنا لا سمح الله تراجعنا اليها واتخذناها معقلاً نلوذ به من هجماتهم ونفوز بالظفر . غير ان بغدوين لم يستصوب هذا الرأي

فارتحل من ثم الفرنج بافيفهم من الدهبانة الى نهر البليخ وتبعهم طنكريد متمهلاً حاقداً . فادركهم الترك في الوف وربوات وصوبوا نحوهم السهام كالمطر . ثم دنوا منهم ووضعوا السيوف في مقدمتهم فلاذ طنكريد واصحابه بالفرار ناكصين . فتقوى الترك وناجزوا الفرنج واثخنوا فيهم وقبضوا على عدد صالح منهم بينهم بغدوين نفسه وجوسلين صاحب تل باشر الفارس المغوار . وكبلوهما بالاغلال الضخمة وابتزوا معسكرهما واستحوذوا على الاسلحة والخيل والاثقال واستاقوا الاسيرين في تلك الغنائم وانقلبوا الى الموصل

اما طنكريد فعاد الى الرها واستراح فيها اياماً ياكل ويشرب هنيئاً مريئاً وعامل الاهالي كما احب . واحتوى على ما شاء من الخيل والاموال ورتب فيها رشرت نائباً وعاد الى انطاكية

وكان رشرت ظالماً طماعاً غداراً اذاق الرهاويين الامرين لانهم رفضوه وعاندوه . ومما مضى القليل حتى استفحلت بينهم

الاحقاد وفشت فيهم الضغائن فاستفرص رشرت تلك الفرصة والقى بعضهم في السجن وضيق عليهم واستنزف منهم اموالا طائلة ولا سيما لانه سبق فعرف ان مدته لن تطول اذ لم يكن والياً اصيلاً مستقيلا بل ضيفاً عابر سبيل

١٣

نجاة بغدوين وجوسلين

ظل بغدوين ملك الرها وجوسلين البطل الشهير زماناً في الموصل مأسورين لايفتكر الفرنج في انقاذهما اذ كان طنكريد حاقداً عليهما كما ذكرنا فراحا يعملان الفكرة في النجاة. فقال بغدوين لجوسلين : اري ان في نجاتي صعوبة لاني معروف ومشهور . فالاجدر ان ندبر امرك فاذا نجوت انت تيسر لك ان تسعى في امري . وتم الاتفاق بينهما على ان يدفع بغدوين عن جوسلين اثني عشر الف دينار دية ويستحضر من الرها اثني عشر رجلاً من كرماء آله يمكثون في السجن بمثابة رهائن ريثما تتيسر لجوسلين جمع الدية كلها . فوافق صاحب الموصل على ذلك واطلق سراح جوسلين

بيد ان اولئك الاثني عشر ما وصلوا الى الموصل ودخلوا

السجن حتى عملوا على نقب الجدار ولاذوا بالفرار . فطفق جوسلين يسعى في انقاذ بغدوين ووسط في ذلك صاحب قلعة جعبر التركي فابرما الاتفاق على دفع سبعين الف دينار الى والي الموصل . فجمع جوسلين خمسة وعشرين الف دينار حملها الى صاحب القلعة وارتهن عنده ببقية المبلغ . فارسل امير القلعة ذلك المجموع الى الموصل و كفل بغدوين بتسديد الباقي

وكان والي الموصل يتوق الى مشاهدة جوسلين لما بلغه عنه من الشجاعة والبطولة فقبض الخمسة والعشرين الف دينار ووافق على كفالة امير قلعة جعبر في تسديد البقية وهي خمسة واربعون الفاً واطلق سراح بغدوين و كتب الى الامير يستقدم اليه جوسلين فوشحه الامير بثياب فاخرة وار كبه حصاناً مطهماً وقلده سلاحاً فرنجياً وبعثه

ولما وصل جوسلين الى الموصل خرج الوالي لاستقباله مرحباً به وخرج معه طائفة من مشاهير ابطاله الى الميدان مدججين بالاسلحة وأمره ان يركض حصانه على مرأى منهم فاخذ جوسلين يجول على ظهر الحصان ويلعب بترسه ويتفنن في حركاته فدهش الحضور واعجبوا بفراسته فتخلى له الوالي عن عشرة الاف دينار من اصل دية بغدوين . فنزل جوسلين عن حصانه وقبل الارض شاكراً للوالي فترك له عشرة الاف اخرى ومضى به الى داره

واعد له وليمة فاخرة تخلى له في اثنائها عن عشرة آلاف اخرى . ومذ ذاك توثقت عرى الصداقة بينهما وتحالفا على مساعدة احدهما للاخر ما داما في قيد الحياة وكلما دعت الضرورة . ثم اجزل العطاء لجوسلين وتخلى عن السبعين الفاً باجمعها ورده الى بلده جذلا مسروراً . وعلى ذلك المنوال افلت بغدوين وجوسلين معاً من السجن باذن الله تعالى وعاد كل منهما الى ولايته . فتخوف رشرت من بغدوين وانهزم في ما استنزفه من الرهاويين الى مرعش مركزه السابق

وتوترت اذ ذاك العلائق بين بغدوين وجوسلين وبين طنكريد وتجهز الفريقان للقتال فاوفد جوسلين يستنجد والي الموصل فارسل اليه النجدة على ما تعهد واحتشد الصفان في الصحراء بين قورس ودلوك . وعند انبثاق الفجر التحم القتال بينهما فلاذ الترك بالفرار . فشد عليهم طنكريد وكسرهم وانهزم بغدوين ايضاً فيمن معه . وعلى هذا المنوال انتهت تلك المعركة الهائلة . وما عتم ان اتفق الفرنج معاً وتصالحوا وساد الحب بينهم كأمس وما قبل

١٤

زحفة ممدود التركي الى الرها وبسالة جوسلين البطل

وفي السنة ١١٠٦ جهز ممدود صاحب بلاد المشرق عسكراً

جراراً وراق الى الرها وخيم في الصحراء الشرقية عند قرية كسس وبث فوارسه في الضواحي فاتلفوا الحدائق وقطعوا الاشجار وافسدوا الزروع واخربوا الاديار . ولكنهم لم يجسروا ان يدنوا من المدينة او يحصروها ويستعملوا المجانيق والعرادات ليفتحوها فانقلبوا الى شبكتان واستحوذوا على بعض القلاع واستباحوا من فيها من الفرنج قتلاً وسبياً واستانفوا الهجوم على تل باشر فلم يقووا على اخذها [1]

وكان الفرنج يومئذ يزدادون قوة ونفوذاً في بلاد ما بين النهرين والسواحل والموانىء على ان الجنويين منهم ضربوا سفناً للمسلمين قادمة من تنيس ودمياط وقبضوا على سبعين تاجراً وباعوهم بثمان وافرة واحتووا على اربعمائة صندوق سكر مصري وعلى خمسين حملاً من الاقمشة الدمياطية وغيرها [2]

ولما بلغ الفرنج في انطاكية امر هجوم ممدود على الرها سارعوا اليها في خيل كثير يريدون مناوشته القتال فانتقل بعسكره الى ضفة نهر غالب فوصل الفرنج وحطوا رحالهم حيثما كان الترك . وكان قائد الفرنج الكبير بغدوين ملك القدس صاحب الرها السابق فاستصحب سنجيل صاحب طرابلس وطنكريد صاحب انطاكية وساروا جميعاً لمقاتلة ممدود

(١) ع ٢٧٦ ان ذلك حادث في السنة ١١١١ (٢) ع ٢٧٦

غير ان الجوع انهك الفرنج وضايقهم اذ كان ممدود قد اتلف الحقول على ما ذكرنا . وكان اغلب اهالي القرى قدانهزموا الى المدينة واحتشدوا فيها . فرأوا ان يعبروا الفرات الى الغرب حيثما كان الترك رابضين وتوجهوا نحو سميساط . واتفق ان ابليس الخناس باض في راس احد القواد فانقض على الفرنج وقصد الترك وقابل ممدود واسر اليه ان الفرنج لايلبثون ان يتراجعوا لما حاق بهم من الجوع والضنك . وانكم اذا تتبعتموهم اتلفتموهم كافة

فامر ممدود اصحابه ان ينادوا ويضربوا الابواق ويجتمعوا اليه . ثم ركبوا وحملوا على الفرنج والفرنج غافلون جاهلون دسيسة ذلك الخائن اللئيم وعبروا الفرات وخلفوا رجالهم في الناحية الاخرى فكبسوا الفرنج والتحم القتال بين الفريقين . فسخط الله تعالى على الرهاويين فاثخن فيهم الترك وطعنوا فريقا برماحهم وقتلوهم وقتلوا معهم خلقاً كثيراً واسروا بعضهم . وغرق قوم في النهر واختنقوا . فانقلب الترك وابتزوا الاموال والاسلاب وعادوا الى اوطانهم

وفي القابل كر ممدود الطاغية على الرها ثانية وقت الحصاد في جيوش كثيفة فاكتسحوا النواحي وافسدوا الغلال وقطعوا ما تبقى من الاشجار وشدوا الحصار على المدينة طيلة الصيف .

فعظم ذلك على الرهاويين وحاروا في امرهم اذ كانوا يزرعون ولا يحصدون . اما ممدود فارسل اليهم يعدهم ويتوعدهم ويقول. سلموا تسلموا . فلم يردوا له الجواب

بيد ان بعض امراء الارمن عاهدوه سراً على تسليم المدينة فارتحل في جيشه الى سروج كمن يريد تامين الرهاويين لعلهم يتزحزحون عن السور . وما عتم ان انقلب اليهم ليلة الاحد ما بين سياج الحدائق في الناحية الشرقية يريد بذلك ان يوهم الاهالي . وتبعته فيئة من ابطاله اقبلوا مترجلين حتى بلغوا السور حيثما واعدهم الارمن الخونة في شرقي المدينة عند الجسر الاسفل فوق الخندق الذي يجري فيه الماء . وهناك زاوية فسيحة تلائم المصلحة كان عليها برج عال يحرسه قرواش المشهور احد وجهاء الرها

وما وصل العدو الى تلك الزاوية حتى دلى الحراس الاحبال فاوثقها الترك وربطوها كالسلالم وطفقوا يتسلقونها بسرعة ويفتكون بكل من عارضهم . فهب سائر الحراس لمحاربتهم وجعلوا يعجون ويضجون ويولولون ويقولون قد دخل العدو الى السور . اما الترك فاخذوا يضربون الطبول والابواق في غربي المدينة كأن المعركة هناك لعل الرهاويين يقصدونهم فيتمكن سائر العسكر من التسلق والبلوغ الى قلة السور . فتخوف

قرواش ولزم السكوت على رغمه وترك الخونة على خاطرهم فتعرش زهاء ستين تركيا بذلك السلم وظلوا هكذا حتى اصبح الصباح. فاستحوذ القلق على الفرنج خصوصا لما عرفوا بالدسيسة وشاهدوا العدو خارجاً والعسكر التركي متعرشاً بالسلم. الاهالي راكضين الى بيوتهم. وعند ذاك برز جوسلين البطل الضرغام صاحب تل باشر وتسلق السور حتى وصل الى العدو المتعرش بالجبال فاخذوا يرشقونه بالنبال ويرجمونه بالحجار وهم واقفون على السطح الفوقاني فوق البرج الكبير فلم يكترث جوسلين الباسل المغوار بل دخل ذلك البرج عينه ومد سيفه البتار من النافذة وقطع حبال السلم فسقط جميع من كان متعرشاً بها وانكسرت اعضاؤهم. فشمل الرعب والهلع العسكر التركي الواقف على السطح وانقطع خيط رجائهم. فاستجمع جوسلين الصنديد قواه وارتقى في سلم الدهليز الموصل الى ذلك السطح فجعل الترك يقذفونه بالحجار من فوق فكسروا ترسه فتقوى وتسلق ثانية وهم يرجمونه فسقط ونهض ثالثة واتخذ كيساً مملوءاً تبنا كان الحراس يتوسدونه فوضعه فوق خوذته وصعد اليهم ببسالة غريبة عجيبة فقتل ثلاثين تركيا والقى البقية بنفوسهم الى اسفل فتضعضعت اعضاؤهم وهلكوا قاطبة

على هذا الاسلوب فاز جوسلين الفارس الصنديد بغار الظفر

والانتصار ودحر ممدوداً واصحابه الى بلادهم مخذولين . وراح الفرنج يفتشون عن الخونة فالقوا القبض على كثيرين منهم ومن غيرهم ايضا وقطعوا ايدي بعضهم وبتروا انوف غيرهم وقتلوا اغلبهم . وعلى هذا المنوال استحوذ الرعب على قلوب الترك في جميع الانحاء واضمروا الاثار من الفرنج مهما كلفهم الامر من الضحايا والنفقات

١٥

زحفة ممدود الى سوريا وبلاد الجليل وقتله

وبعد اعوام عاد ممدود الى دمشق وفلسطين في سبعة آلاف فارس يريد منازلة خصميه بغدوين وجوسلين ومعهما من الفرسان والرجالة الفان فقط. فالتقى الجيشان على ضفة بحيرة طبرية وتناوشا القتال فانكسر الفرنج وقتل منهم زهاء الف وثلاثمائة نسمة

وعند ذاك وصلت اليهم نجدة من طراباس يرئسها ابن سنجيل ونجدة اخرى من انطاكية يقودها رجير ملكها الذي خلف طنكريد خاله عام ١١١٤ فانضموا معاً وساروا الى جبل يطل على الجيش التركي . وظل الصفان ستة وعشرين يوماً لا ينازل احدهما

الآخر . وبعد هذا انحدر الفرنج بلفيفهم الى شاطئ نهر الاردن زاحفين الى ممدود فخابت آماله وانقلب راجعاً وبث عساكره في بلاد الجليل فأتلفوا خلقاً كثيراً واكتسحوا النواحي وغنموا غنائم شتى وساروا الى دمشق . ويوم الجمعة انطلق ممدود ليصلي فثار عليه الاسمعيليون وقتلوه في الجامع شر قتلة وولوا عليهم الامير آقسنقر فتوجه بهم الى الرها في خمسة عشر الفاً وحصرها شهرين كاملين فعجز عن اخذها وانصرف الى سميساط .

وكان الفرنج في تلك الغضون يخرجون عن الرها ويوقعون بمن يشاهدونه من المسلمين فقبضوا مرة على احد عشر رجلاً واستاقوهم الى المدينة وبتروا يديهم ورجليهم وشنقوهم تجاه سائر التراك . فثقل ذلك على آقسنقر فأخرج خمسين من الاسرى الفرنج وقتلهم [1]

١٦

امراء الارمن

وكان امراء الارمن يتولون بعض الجبال والقلاع والمدن في بلاد ما بين النهرين وقليقيا وكان الفرنج تارة وطوراً الروم

(١) ع ٢٧٧

يستعملونهم عليها. وكانت امرأة باسيل يومئذ متولية سميساط ومرعش و كيسوم وتحت يدها عدد كثير من الفرسان والرجالة فكانت تدفع لكل فارس اثني عشر ديناراً ذهبياً في الشهر ولكل راجل ثلاثة دنانير ذهبية . وكان اولاد قسطنطين بن روبين في قليقيا . وميخائيل واوهنيس في جرجر . وباسيل اللص في رعبان وكيسوم وقلعة الروم . وقسطنطين وتبتوغ في سميساط . وابناء سنبل في يستوفور . وكان ابناء سنبل سرياناً مخالفين لباسيل اللص وباسيل الفتى الذي تربى عند امرأة كوغ باسيل المذكورة . وكان كورتيج الارمني الطاغية وصي تلك المرأة يبغض السريان بغضاً شديداً فاستحل ديرهم المعروف بدير الاحمر عند كيسوم وولى عليه غريغوريوس الجاثليق . ونفى رهبان دير حصن عرنيش وانزل بهم الوان النكال واقام فيه الحراس والعسكر فلم يتيسر للافرنج ان يتغلبوا عليه فزوجوه امراة فرنجية يقال لها قلمري فاماتته مسموماً

اما امرأة كوغ باسيل فاوفدت الى آقسنقر التركي تستنجده فارسل اليها قائداً اسمه سنقور الطويل فاستقبلته مستوية على العرش الملكي وصفت حولها جواريها الحسان مزدانات بالحلي والحلل ووضعت له كرسياً تجاهها وحادثته محادثة ممزوجة بالدهاء والخضوع . وقالت له مر جنودك ان يدخلوا المدينة

ويبيتوا فيها فان جواسيسي نقلوا الي ان الفرنج متاهبون للزحف اليهم فلم يكترث سنقور لقولها . فباغتهم سبعمائة فارس من الفرنج وكبسوهم وقتلوهم ولم يفلت منهم الا القليل . وبعد هذا طيبت خاطر سنقور وصرفته في هدايا وتحف الى آقسنقر التركي مولاه[1]

١٧

خراب مرعش واختلاف بغدوين وجوسلين وزحفة برساقي الى الرها وحلب وانكساره

وليلة الاحد ٢٩ تشرين الثاني ١١١١ حدثت زلزلة عظيمة اخربت مرعش ودكت سورها ومات فيها اربعة وعشرون الفاً بنيف ومائة قسيس وشماس . وفي تلك السنة عينها حصل اختلاف بين بغدوين ملك الرها وبين جوسلين صاحب تل باشر فألقى بغدوين جوسلين في السجن وضيق عليه . وما عتم ان اطلقه فسار الى اورشليم فرحب به بغدوين ملكها واستعمله على طبريا وبلاد الجليل وولد له هناك ابن سماه باسمه

واقبل في تلك الاثناء برساقي في جيش كثيف من الموصل

(١) ع ٢٨٢

الى الرها فاتلف حدائقها وحقولها وافتعل الاهوال فيها وعبر الفرات الى حلب وحصرها فامتنعت عليه فعاد الى آثور واخرب في طريقه بلاد النصارى. وفي القابل كر زاحفاً الى الرها ثانية واكتسح ضواحيها وسار الى حلب ليقاتل الفرنج. فتجيشوا وخرجوا اليه فادركوه بين حلب وانطاكية عام ١١١٦ فنظموا صفوفهم ودقوا الابواق والطبول وحملوا على الترك حملة صادقة فمنحهم الرب الغلبة وفتكوا بهم فتكة ذريعة ونهبوا خيامهم فانقلب برساقي الى بلده مع شرذمة من جنوده

١٨

حصار الفرنج عزاز وتغلبهم على الترك

وفي تلك الاثناء حشد رجير صاحب انطاكية الجنود وسار في برية قورس يريد قلعة عزاز الحصينة واحتفر حولها الخنادق حتى بلغ السور فوضع تحته الاخشاب واضرم فيها النيران فتداعى وهبط. فدخل الفرنج وملكوا تلك القلعة المشهورة وقتلوا من فيها من المسلمين

وفي السنة ١١١٦ سار رجير عينه في خمسمائة فارس الى الصحراء بين حلب والمعرة فانهزم آقسنقر وزنكي اخوه الى

تل قريب فوضع الفرنج السيف في الترك وابتزوا التجار وتتبعوا اقسنقر واصحابه فلم يدركوهم فعادوا والقوا القبض على ثلاثة الاف تركي وكسروا صناديقهم وعواميد خيمهم واوقدوا فيها النيران واحرقوا الشيوخ والاطفال واستاقوا البقية الى انطاكية مصفدين بالاغلال وارسلوا الى حليفهم رضوان صاحب حلب ثمانية جمال وثلاثة احصنة وبغلين ورجلين فقيهين وصبيين تركيين واميراً واحداً. وشمل الفرنج في انطاكية فرح عظيم

غير ان رضوان بعدما دفع ذهباً كثيراً الى رجير ملك انطاكية أبى ان يعقد معه الصلح اكثر من اربعة اشهر. فسار رجير الى حلب وحصرها فاستغاث الحلبيون بالامير ايلغازي بن ارتق ملك ماردين فاقبل عام ١١١٩ في سبعة آلاف تركي وناوش الفرنج القتال وكسرهم وقتل رجير عينه في تلك المعركة الطاحنة وفتك الترك بالرجالة الفرنج وقتلوا عدة رهبان في ديرهم بالجبل الاسود في حدود انطاكية. فشق ذلك على بغدوين صاحب اورشليم وزحف في عسكره الى الترك ووضع فيهم السيف حتى افناهم عن بكرة ابيهم ثم تتبع ايلغازي واسترجع الغنائم وعاد الى انطاكية

وفي شباط ١١١٩ غزا الفرنج ملطية وغزا الترك بلاد

جرجر وغزا صاحب ملطية بلاد قمح واستحل ملك قسطنطينية من الترك ثلاث قلاع حصينة واحرق ايلغازي زروع الرها وغزا ضواحي انطاكية وعاد الى ماردين فارسل اليه صاحب قسطنطينية يقول ان قوما من الفرنج يواصلون القدوم في البحر الى سوريا ويعيثونها فهلم الى مقاتلتهم اساعدك عند الضرورة بثلاثين الفا فغادر ايلغازي ماردين الى الثغور واستولى عليها وقتل من الفرنج خلقا كثيراً (١)

١٩

استيلاء الفرنج على البيرة ووفاة بغدوين ملك اورشليم وخلافة بغدوين الثاني عام ١١١٨

وكان المتولي يومئذ على البيرة (بره جوك) على شط الفرات رجل ارمني يقال له ابو الغريب. فسار اليها بغدوين صاحب الرها مستصحباً غالران نسيبه وشد عليها الحصار زماناً طويلا حتى اضطر ابو الغريب ان يسلمه شارطاً عليه ان يزوج غالران بابنته فيعطيه البيرة بمثابة جهاز. وعلى هذا الشرط ملكها الفرنج

وفي السنة ١١١٤ (١١١٨ ؟) حج بغدوين صاحب الرها الى

(١) ع ٢٨٢

اورشليم وكان بغدوين الاول ملكها قد زحف في عساكره الى مصر فأدركه الاجل في فرمي. وسبق فأوصى قواده ان يشيعوه الى اورشليم ويدفنوه في ضريح غودفروا شقيقه ويملكوا عليهم بغدوين صاحب الرها فنفذوا وصيته وتوجوه ملكاً فاستدعى اليه جوسلين من طبريا وصالحه وايده في ولايته فابدى جوسلين من البسالة ما القى الرعب والخوف في جميع من حوله من المسلمين

٢٠

خبر الرهبان الفرير

توسع ميخائيل الكبير في وصف الرهبان المعروفين بالفرير فافرد لهم في الصفحة ٥٩٥ فصلاً كاملاً بعنوان « خبر الفرير الرهبان الفرنج المدعوين دواوية » نسرده للقارئ. قال :

في اول عهد مملكة بغدوين الثاني ملك القدس (١١١٨) خرج من رومية رجل فرنجي اسمه دفزين في ثلاثين فارساً من الاخوة الفرير [1] يريدون الحج الى اورشليم. وأبرم ذلك الرجل على نفسه انه لن يعود في اصحابه الى وطنه الا بعد ان يساعد ملك بيت المقدس مدة ثلاث سنوات في جميع المواقع الحربية

(١) هم الهيكليون او فرسان الهيكل تاسست جمعيتهم او رهبانيتهم عام ١١١٨ بمساعي ثمانية فرسان فرنسيين كانوا رافقوا غودفروا

وانه اذا وفقه الله تعالى في بغيته عكف بقية حياته على اعمال الرهبنة في المدينة المقدسة. فلما وصلوا الى القدس واكملوا الفروض الدينية اخذوا يختلفون الى المعارك الحربية فابلوا بلاء حسناً مدة الاعوام الثلاثة

على ان بغدوين الملك وارباب دولته لما رأوا ما هم عليه من البسالة والشجاعة اشاروا عليهم ان يستخدموا في الجندية ليصونوا الاراضي المقدسة من هجمات الاعداء ويعدلوا عن الانقطاع الى احد الاديار. فاجاب ذلك الرئيس ورهبانه الى مشورتهم. فخصصوا بيت سليمان الملك لاقامتهم وعينوا لهم بعض القرى لمعيشتهم. وتكرم عليهم البطريرك بثمن من ريع الاوقاف الكنسية

بناء عليه ابرم اولئك الرهبان عهداً على نفوسهم امام الله ان يسيروا سيرة الرهبان وقرروا انهم لا يتشبثون بزواج ولا يختلفون الى حمام ولا يستبدون بملك او عقار بل يجعلون اموالهم باسرها عمومية مشاعة. وما مر القليل من الزمن حتى اشتهروا شهرة عظيمة وضاع شذا اعمالهم المجيدة في جميع البلاد القريبة والسحيقة. واقبل الملوك وابناء السلاطين والعظماء والعوام وانخرطوا في سلكهم واتحدوا معهم اتحاداً اخوياً روحياً. وكان كل من ينضم اليهم يتنازل لهم عما ملكته يداه من المال .

١

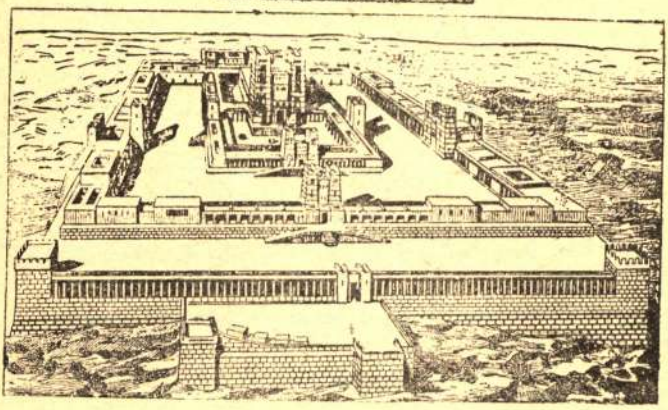

٢

١ زي الرهبان الفرير الدواوية
فالواقف متوشح بزي الرهبنة والجالس بزي العسكرية

٢ هيئة هيكل سليمان يوم احتله الصليبيون
وخصصوه بالرهبان الدواويين

فازدادوا في برهة من الزمان ونموا نمواً عجيباً واستولوا على امكنة شتى في فلسطين وايطاليا ورومية. وانشاوا لهم قوانين وضوابط حتموا ان يقوموا بها

وكانوا اذا قصدهم احد للانضمام في سلكهم اضطروه ان ينزوي في قلايته سنة كاملة يعمل الروية في ما نواه وكانوا يتلون عليه تلك القوانين سبع مرات ويقولون له في كل مرة احذر وانتبه لئلا تندم فيما بعد او يتعذر عليك الثبات حتى النهاية في حفظ هذه القوانين والا فالخليق بك ان تطلعنا على مكنونات قلبك وتعود الى بيتك

وكانوا اذا وافق احد على تلك القوانين ورضي بها طوعاً ونذر ان يحفظها ويعمل بها صاغراً صلوا عليه ووشحوه بشوبهم. واذا اتفق فنكث احدهم وخالف نذره ضربوه بالسيف واستحلوا قتله

اما قانونهم فكان يشتمل على عدة بنود: اخصها انه لا يجوز لكائن من كان منهم ان يملك شيئاً خصوصياً لا بيتاً ولا ذهباً ولا متاعاً. وان لا يذهب الى اي محل كان دون اذن الرئيس. ولا يرقد الا في بيت الرهبان. ولا ياكل على مائدة العوام. وان يذهب طوعا الى حيث يؤمر مهما كلفه ذلك من المشقة ولو افضى به ذلك الى الموت. ويلزمه ايضا ان يوفي

نذره هذا فيخدم في الجندية حبا للدين حتى الممات

وكان اذا توفي احدهم اقام له كل فرد منهم اربعين قداسا . واطعموا لاجله اربعين مسكينا مدة اربعين يوما . وذكروا اسمه في قداديسهم على مدى الازمان . واعتبروا من مات منهم في ساحة الحرب شهيداً . اما من كان يخفي عنهم شيئا ويحتفظ به لنفسه فكانوا لا يحتفلون بدفنه . وكانت ثيابهم جميعا بيضاء بسيطة لا يجوز لهم ان يتزيوا بزي آخر . وكانوا اذا رقدوا رقدوا لابسين ثوبهم الرهباني وزنارهم

وكانوا يأكلون اللحم ايام الاحد والثلاثا والخميس وكانوا يقتصرون في سائر الايام على اكل الحليب والبيض والجبن . وكانوا يشربون الخمر يوميا وقت الغذاء فقط . اما قسانهم وشمامستهم فكانوا يمارسون الصلوات والطقوس في الكنائس . وكان قوادهم وضباطهم وفرسانهم يصلون صلواتهم وهم مزاولون مناصبهم الجندية . وكان رجالتهم يقضون فروضهم الدينية وهم في ساحة الوغى . اما الصناع والفلاحون فكانوا يمارسون فروضهم وقت العمل . وابتنوا لهم في كل مدينة وقرية بيتا خصوصيا يتولى شؤونه رئيس ومدبر يأتمر كل من فيه بأمر ذلك الرئيس ونهيه . اما رئيسهم العام فكان يسكن في القدس وكانت اوامره تشمل الجميع على حد سوى ولم يكن له ان

يتمتع او يتفرد بشيء خاص اصلاً

واتصف هؤلاء الرهبان خصوصاً باعمال الرحمة فكانوا يوزعون على المساكين عامة عُشر ما يصيبهم من الغلال كالقمح والخمر وغيرهما. وكانوا كلما خبزوا خبزاً في احد ديورتهم او بيوتهم وزعوا على الفقراء عشره مع كل ما كان يفضل من طعامهم . وكانوا يوزعون ايضا خبزا وخمراً على المساكين مرتين في الاسبوع

وفي عنفوان امرهم اخذوا يتولون حراسة الجنود اثناء اختلافهم الى تأدية فروض العبادة والصلاة وقت خمود نيران المعارك . ثم اخذوا يخرجون مع ملوكهم لمحاربة الترك فنموا نمواً عجيباً حتى بلغوا مائة الف راهب. وامتلكوا قلاعاً وحصونا منيعة في جميع البلاد التي احتلها المسيحيون . وازدادت لديهم الارزاق والاملاك والاسلحة. وتوفرت عندهم القطعان والغنم والبقر والخنازير والجمال والخيل اكثر من جميع الملوك . وعلى رغم املاكهم كانوا زاهدين متجردين كانهم لا يملكون شيئاً البتة . وكانوا يعتبرون ويحبون على حد سوى كل من آمن بالصليب وسجد له

وانشأوا في جميع الاماكن التي شغلوها ولا سيما في اورشليم مستشفيات او ملاجئ للمرضى اقاموا فيها خداما يعتنون

بهم ويسهرون على شفائهم. فكانوا ينقلون اليهـا كل غريب اصيب بمرض ويعالجونـه حتى يصح. فاذا تعـافى اعطوه زاداً وسرحوه بسلام واذا توفي شيعوه باكرام

واستتلى ميخائيل الكبير وصفه هذا في الصفحـة ٥٩٧ قال : اتفق لهؤلاء الاخوة الرهبـان الدواوية انهم حين حدوث المجاعـة الشديدة في القدس واصلوا توزيع الخبز على المساكين كمالوف عادتهم الحميدة حتى كادت تنتهي مؤنتهم وتفرغ اهـراؤهم . فبلغ الوكلاء رؤساءهم ومدبريهم وسالوهم ان يشرفوا على تلك المخازن استدراكاً للخطر فيروا بام عينهم ما تبقى فيها من الذخائر الزهيدة. فعقدوا مجمعـاً وتفاوضوا في ذلك الامر الخطير فقالوا اننا اذا حرمنـا المساكين ما تبقى لدينا من المؤون فلا تعود تكفي لنا ايضاً. فالاجدر ان نواصل التوزيع كعادتنا اذ اننا مساكين ويلزمنـا ان نحاكي المساكين في شدتهم ان جاعوا جعنا معهم وان ماتوا متنا معهم . وبعد ان ايدوا اتفاقهم هـذا واثبتوه جميعا ثابروا على التوزيع كعادتهم فتعهدهم الله بغزير مراحمه كما تعهد الوف الجياع في القفر واشبعهم بقليل من الخبزات. على ان الوكلاء تفقدوا الاهراء يومئذ فالفوها مشحونة بالقمح والشعير والخمر وسائر الحبوب. وذاع امر تلك الاعجوبة الباهرة في جميع البلدان . ومجد الله تعالى كل انسان

٢١

زحفة غالران وايلغازي وانكسار رجير
وتغلب بغدوين الثاني على الترك

وولى بغدوين على الرها غالران صاحب البيرة فجيّش الجيوش وكبس خيم الترك اصحاب ايلغازي في بريـة جبل حسمي شرقي الرها وسبى نحو خمسمائـة من الرجال والنساء والصبيان واحتوى على نيف والف ومائتي فرس ومائـة الف من البقر والغنم والجمال وفتك بعدد كثير وعاد بالغنائم الى الرها. فاحتدم الترك سخطاً ونووا الاثئار منه . فزحف ايلغازي صاحب ماردين الى الرهـا وقت الحصاد وارسل الى الفرنج رسلاً في الصلح فاطلقوا الاسرى وعاد الترك الى حران واحتلوها وعبروا الفرات الى حلب وامتلكوها. فقويت شوكة ايلغازي وهابه من حوله من الترك واختضع له ملوك آثور وسائر بـلاد المشرق. ثم جيّش جيشا كثيفا وزحف الى انطاكية فاستنجد رجير بغدوين ملك القدس وغالران صاحب الرهـا وتسرّع الى مقاتلة الترك واثقا بقوة جيشه غير منتظر وصول الجنود الفرنج لمساعدتـه مقتنعا بالفوز والنصر . ولما اقتحم

صفوف الترك احاطوا بـه احاطة السوار بالمعصم واسطروا على الفرنج السهام كالبرد فانكسر رجير وضاع اثره وباد قوم كثير من اصحابه وغنم الترك اثقالهم واموالهم

وبعد هذا وصل بغدوين ملك القدس في عسكر جرار يصحبـه صاحب طراباس وغالران فخرج الانطاكيون للقائهم. ثم انقضوا على ايلغـازي ووضعوا السيف في عسكره فاثخنوا فيهم وانهزم ايلغازي فيمن تبقى معه الى حلب

٢٢

ولاية جوسلين على الرها واستئساره مع غالران واستئسار بغدوين ونجاتهم

عاد بغدوين الى انطاكية فاورشليم ظافراً محبوراً واستحضر جوسلين من طبريا وولاه على الرها في السنة ١١٢١ فخرج عنها غالران الى البيرة. ولما وصل جوسلين الى ولايتـه رحب بـه الرهاويون واستقبلوه استقبالا فخماً. وما لبث ان زحف الى معسكر الترك ونهب خيامهم ودحرهم فانتشر ذكره في جميـع بلاد ما بين النهرين. وسارع ايلغازي الى الرها في الوف وربوات فاكلوا غلالها وقطعوا اشجارها وعاثوا ضواحيها وانقلبوا

اما جوسلين فخطب يومئذ بنت رجير صاحب انطاكيـة واستلم بلدة عزاز بدلا من جهازها وقصد انطاكية ليأتي بخطيبته

فعبر الفرات وبات ليلته في البيرة عند غالران صاحبها. فباغتتهما كتيبة من الترك مقبلة من قرية مريبا بضواحي البيرة . وكان بلك الارتقي قد غادر حلب في اربعة الاف فارس وفرقهم في الاطراف للنهب والسلب واستقر هو عند عين هائج اللاحقة بالرها تجاه بلدة راس كيفا. وما وصل الخبر الى الفرنج حتى تهيأوا لمقاتلة العدو وهم يجهلون ان بلك قريب منهم وسارعوا الى راس كيفا ممتطين الخيل وعلى رأسهم جوسلين وغالران معاً فتوغلوا في تلك المفاوز راكضين من اول الليل حتى نصف النهار لا يكترثون للتعب والعطش والحر حتى بلغوا مقر بلك فصادفوا معه عسكراً كثيفاً ولم يستطيعوا الى الرجوع سبيلاً فقصدوا النهر ليسقوا الخيل ويشربوا فاصطف العسكر الترك على الشاطئ. وطفقوا يرشقون كل فرنجي وفرس يدنو للشرب. ثم تدفقوا عليهم وفتكوا بكثيرين واسروا البقية وفي جملتهم جوسلين وغالران ومن معهما من الضباط ومضوا بهم الى بلك . فلم يصدق الامر بل ظنه حلماً فركب من ساعته مبتهجاً بالنصر واستصحب الملكين الى الرها يريدها فانكرها عليه الرهاويون وسخروا به فانقلب في الاسرى الى حصن زياد واعتقلهم جميعاً في بئر القلعة

وكان بغدوين وقتئذ في انطاكية فارتحل الى الرها وامن

اهاليها واقام الجنود لحراستها وولى عليها غودفروا الموين وكان من الرهبان الافاضل ريثما ينتهي امر الاسراء. فجاء اليه ميخائيل الارمني صاحب جرجر وتنازل له عنها لانه لم يكن عنده من العسكر من يحميها فاستعمله بغدوين على دلوك بدلا منها وعاد الى انطاكية

اما بلك فلم يفتر من التضييق على الفرنج في جرجر وكوختي وحصنمنصور بل كان يبعث العساكر اليها يعيثون ويسلبون ويقتلون. فرأى بغدوين ان لا بد من قمعه وردعه ومقاتلته فحشد الجنود وسار الى كيسوم ليجمع الذخيرة والمؤن فبادر اليه بلك وكمن له على نهر سنجا عام ١١٢٣. فعيّد بغدوين عيد القيامة وخرج ثالث العيد في جنوده وعبروا جسر ذلك النهر الشهير ثم انتقى بعضهم وسار بهم فرسخاً واحداً فانقض كمين بلك من كل صوب كذئاب العشي وهم مدججون بالاسلحة يزأرون لافتراس الغنائم واكتنفوا بغدوين واصحابه وقبضوا عليه وعلى ابن اخته الفتى البهي الطلعة واوثقوا بعض القواد وفتكوا ببعضهم. واستاق بلك غنائمه الى قلعة جرجر وانزل ببغدوين عذابات فادحة واراده على تسليمها فسلمه اياها فاستتب الامن في تلك الاطراف وكف العائثون عن النهب والسلب. وواصل بلك مسيره الى حصن زياد حيثما كان جوسلين

وغالران مسجونين فاضاف اليهما بغدوين . وتم القبض على جوسلين وغالران ليلة عيد ارتفاع الصليب ١٤ ايلول فلبس الرهاويون الحداد ولم يحتفلوا بالعيد. اما بغدوين فقبض عليه في نيسان يوم الاربعاء من اسبوع القيامة

وانقلب بلك الارتقي الى الرها وافسد البساتين واتلفها وارتحل الى حران واستباحها وقصد حلب وامتلكها . وتوغل في بلاد الفرنج كتل باشر ودلوك وعزاز فنهبها وحمل الذخائر الى بلاده وسبى حصنمنصور وغيرها وافتعل الاهوال والغوائل مدة سنة كاملة

وفي آب ١١٢٤ اتفق زهاء عشرين جندياً من الجنود الارمن في قلعة كيسوم وقصدوا الرها وتشاوروا مع غودفرا الموين والملكة في انقاذ المأسورين وانطلقوا الى حصن زياد بزي الفقراء والفلاحين مستصحبين شيئاً من العنب وسائر الثمار والدجاج يتظاهرون بانهم قادمون من القرى ليشتكوا على حاكمهم . ولما شارفوا القلعة حمل بعضهم شيئاً من تلك الثمار ودخلوا الباب ووصلوا الى فوق وافادوا الحراس عن سبب قدومهم فاستمهلوهم ريثما يستاذنون امير القلعة

وكان ذلك الامير قد أولم يومئذ وليمة للوجهاء والاعيان والخفراء اجمع ما عدا ثلاثة منهم فدخل احدهم فرآهم سكارى

قد لعبت الخمرة بدماغهم. فانتهز اولئك الجنود الارمن الفرصة واخذوا السيوف المعلقة على جدران الابواب وضربوا من صادفوا حولهم ونادوا بقية اصحابهم فبادروا اليهم واغلقوا ابواب القلعة وانقضوا على اصحاب الوليمة وفتكوا بهم قاطبة ثم قصدوا السجن واخرجوا الاسرى من البئر وضبطوا القلعة واحتلوها

فسمع اهل البلد وارسلوا الى حلب يخبرون بلك وتالبوا حول القلعة وتتبعهم غيرهم من القرى المجاورة ليصدوا الاسراء عن الخروج. غير ان جوسلين عول في تلك الليلة عينها على الفرار واقسم لبغدوين انه لن يتوقف في طريقه حتى يصل الى اورشليم ويحشد الجنود ويعود فينقذه. فخرج من ثم مترجلا يصحبه جنديان وخرق صفوف الترك المنتفين حول القلعة وافلت باذن الله ووصل الى كيسوم فتل باشر فانطاكية فاورشليم وابتهج الناس ببشرى نجاته وقرب نجاة الملك بغدوين وغالران

اما بلك فما وصل اليه الخبر حتى غادر حلب ووصل الى القلعة في اربعة ايام وهو اليوم الرابع عشر لحدوث الحادث وشد الحصار عليها وعلى الابراج فثغرها وسال من فيها ان يسلموه القلعة وينجوا بنفوسهم اذ لم يكن يجب ان ياخذها بالسيف حرصاً على شرفه. وكان في القلعة برج كبير فوق المياه فعالجه

الترك حتى قوضوه . فارتخت عزائم المحاصرين وانقطع خيط رجائهم . فانحدر غالران وقصد بلك وسأله الامان له ولاصحابه فاقسم بذلك انه لن ينزل بهم اذى اصلا فسلموه القلعة . فدخلها بلك وقبض على اولئك المحتالين ونكل بهم وسلخ جلدهم . وقتل سبعين رجلا من الفرنج والارمن واعاد بغدوين وغالران الى السجن . ثم استاقهما الى منبج وحصرها وضيق عليها . فارسل الاهالي يستغيثون بجوسلين فسار اليهم في جيش عرمرم وناوش الترك القتال من الصباح حتى المساء فانكسر بلك اقبح كسرة وباد اغلب عسكره وعاد الى منبج يريد الانتقام من اهلها لانهم لم يخرجوا لمساعدته فاصيب بسهم كان الضربة القاضية على حياته ونقل الى حلب ودفن فيها . وخلفه تيمرطاش الارتقي ابن عمه فباع الاسيرين بمائة الف دينار وعاد بغدوين الى اورشليم (١)

وقتل في تلك المعركة الهائلة غودفروا المونبالسل صاحب كيسوم وكان هذا راهباً في رومية ثم توجه الى القدس وابلى بلاء حسناً في مواقع شتى فتقلد قيادة الجيش ثم وكله بغدوين على الرها كما ذكرنا . ثم ولاه على كيسوم ورعبان ومرعش

(١) ع ٢٨٤ و ٢٨٥

٢٣

حصار جوسلين حلب ومسئلة كنائسها المغتصبة

وعاد جوسلين الى حلب وخيم عند جبل جوسن تجاه بابها الغربي وشد الحصار عليها اياما ثلاثة فهابه الحلبيون واجمعوا على ان يدفعوا له دية قبضها منهم وقصد جبل جوسن او هو جبل الدكة وقوض جامعين للمسلمين واكتسح الاشجار واتلف الحدائق وارتحل. فاستدعى ابو الحسن ابن الخشاب نصارى حلب وارادهم على بناء الجامعين المذكورين فاجتمع غريغوريوس شمشون مطران السريان ومطران الروم الملكيين بوكلاء الاوقاف الكنسية وبلغاهم الامر وبعد اخذ ورد قالوا اننا اذا نفذنا هذا الامر فتحنا علينا باباً عريضاً طويلا واضطررنا ان نتعهد ببناء اي جامع تهدم من ريع اوقاف الكنائس. فاستشاط ابن الخشاب سخطاً واستدعى يوم الجمعة الوفاً من المسلمين فسارعوا الى الكنائس حاملين الفؤوس والمرازب ودخلوا كنيسة مار يعقوب السريانية فحطموا منبرها وكروبي مذبحها وكشطوا الصور ونزعوها وفتحوا في جدارها الجنوبي محلاً جعلوه جامعاً وصلوا فيه. وافتعلوا مثل ذلك في كنيسة الروم المعروفة بكنيسة العذراء وفي كنيسة النساطرة ايضاً. واستباحوا

تلك الكنائس وقلالي الاساقفة نهباً وغزواً وتخريبا فانهزم مطران الروم الى انطاكية ومطران السريان الى قلعة جعبر وكان ذلك في السنة ١١٢٤ في عهد اثناسيوس السابع بطريرك السريان (١٠٩١–١١٢٩) المشهور بابن خمارة

٢٤

ملوك الفرنج وبطاركة السريان

وكان اثناسيوس السابع بطريرك السريان (١٠٩١–١١٢٩) وهو المعروف بابي الفرج بن خمارة قد حرد على باسيل ابي غالب ابن صابوني مطران الرها وحرمه وابطل الصلوات والطقوس في كنائسه من نصف الصوم الكبير حتى احد العنصرة واعاد جميع الرسامات التي اجراها المطران. فحنق المطران باسيل على بطريركه وسار الى انطاكية ورفع الدعوى عليه الى بطريرك الفرنج واساقفتهم وارباجم فاوفدوا في طلبه وادخلوه الى كنيسة القسيان مرحبين به وسألوه ان يغفر لمن انه ويصلي عليه فأبى. فثقل ذلك عليهم واستوضحوه السبب بواسطة ترجمان فقال لهم ان المطران مذنب ومجرم. غير ان الترجمان نقل اليهم كلام البطريرك على غير صحته ظاناً ان المراد بالمجرم كونه

مديوناً له بذهب وافر . فقال الفرنج ان كانت المسئلة مسئلة مالية فتلك شيمة سيمون الساحر ولا يحق للبطريرك ان يتشبث بها. وبعد اخذ ورد طويل وعدهم البطريرك بان يصلي على مطرانه ويغفر له. فالح عليه رؤساء الفرنج ان يكتب له صكا في ذلك ويطلقه ودفعوا اليه قرطاساً ليكتبه حالا دون توقف. فلما اخذ البطريرك القلم التفت الى ابن صابوني وكان واقفاً بالقرب منه وقال له انظر يا ابا غالب الى اي ذل اوصلتني . فقال له ابو غالب متفحا : ان كنت انا ابا غالب فانت ابو الفرج . فما كان من البطريرك الا ان القى القرطاس ومد عنقه وقال للحضور اقطعوا هامتي فاني لن احله . فتأثر احد الاساقفة وقال لاعضاء المجلس دعوا البطريرك ومطرانه وشأنهما. فارفض ذلك المجمع دون جدوى وخرج البطريرك اثناسيوس من الكنيسة وخرج معه جميع الملتئمين وانطلق الى كنيسته

اما رؤساء الفرنج فارسلوا يحرجون عليه مغادرة انطاكية قبل ان يعقدوا مجمعا ثانيا لاعادة النظر في تلك الدعوى . فظل البطريرك محجوراً مدة خمسة ايام لا يسوغ لاحد ان يفاتحه في المسئلة قطعا غير ان بعض الكهنة السريان قصدوا عبد المسيح الفيلسوف الرهاوي الملكي صديق البطريرك وسالوه ان يسعى في حسم تلك المشكلة فسار اليه وتفاوضا مليا . ثم ان البطريرك قصد الملك رجير صاحب انطاكية في تحف وتقادم

واستاذنه في العودة الى ديره فاطلق له الحرية في ذلك بموافقة البطريرك الانطاكي . فعاد البطريرك اثناسيوس الى آمد وجدد الحرم على ابن صابوني فامتعض الرهاويون واخذوا يعمدون اطفالهم في كنائس الفرنج بالرها

على ان اثناسيوس البطريرك استرسل في تعصبه وحنقه على مطران الرها فجدد حرمه وحرم معه ثلاثة من اساقفته وهم اساقفة ملطية وقليسورا وطور عبدين. وحرم كذلك الشماس اسحق بن قريا الامدي فتوسل اليه حاكم البلد ان يغفر له فلم يجب الى طلبه فاستشاط الحاكم غضبا عليه واضطره ان يلزم دير قنقرات ولا يخرج عنه . فاستغاث البطريرك بجوسلين فكتب جوسلين من فوره الى صاحب امد يتهدده باتلاف بلده ان لبث مصراً على معاداته البطريرك. فما كان من الحاكم الا ان اطلق سبيله فقصد جوسلين وشكر له احسانه واستمر عنده اياما معززاً مكرماً ثم عاد الى ديره وتوفي عام ١١٢٩

وبعد وفاة البطريرك استحضر جوسلين الى تل باشر مركزه جميع الامتعة البيعية من دير برصوما واستدعى اساقفة السريان وفي جملتهم ابن صابوني لينتخبوا بطريركاً جديداً فعقدوا هناك في كنيسة الفرنج مجمعاً بحضور المفريان ديونوسيوس موسى وانتخبوا الراهب موديانا رئيس دير الدواثر وتوجوه بطريركاً

يوم الاثنين ثاني اسبوع الصوم الكبير في ١٧ شباط ١١٢٩ بحضور جوسلين وارباب الفرنج وسموه يوحنا الخامس عشر وحلوا من الحرم باسيل مطران الرها ومطران سجستان فذهب هذا الى اورشليم وانضم الى الرهبان الفرنج واخيراً سقط في تنور واحترق[1]. على ان اساقفة السريان وكهنتهم تمتعوا بالراحة والسكينة في عهد دولة الصليبيين ولم يلحق بهم الصليبيون ادنى اذى لانهم كانوا يعتبرون جميع الساجدين للصليب مسيحيين على حد سوى لا يحاكونهم في المسائل الدينية كاساقفة الروم[2]

وفي السنة ١١٢٤ اوفد البابا الروماني اونوريوس الثاني (١١٢٤-١١٣٠) احد كرادلته الاثني عشر الى بلاد المشرق للنظر في احوال الكنائس والاديار في اورشليم وغيرها. غير ان ذلك الكردينال ما وصل الى القدس وباشر البحث والتفتيش حتى ادركته المنية. فاوفد البابا بدلا منه احد مندوبيه الاربعة الكبار فاصلح ما اصلح وعزل البطريرك الانطاكي واقام بطريركاً اخر عوضاً عنه وتوفق في الحصول على رغائبه

بيد ان الروم اللئام المعتادين الشرور والمساوىء قصدوا مندوب البابا المشار اليه واتهموا السريان والارمن مدعين بانهم

---

(١) م ٦١٢ (٢) م ٦٠٧

هراطقة. فارتحل المندوب البابوي الى دلوك وزار غريغور جاثليق الارمن واستحضره الى اورشليم وعقد مجمعاً صباح الاثنين ثاني عيد القيامة بحضور ليقيطس بطريرك اورشليم واساقفة الفرنج والجاثليق واساقفة الارمن واغناطيوس مطران السريان وفئة من الرهبان وجوسلين وسائر الامراء والاعيان وارسلوا يستدعون اساقفة الروم ويقولون لهم انكم قد ادعيتم ان السريان والارمن اراتقة فهلموا اثبتوا لنا دعواكم. فكتبوا لهم الجواب اننا لا نحضر المجمع لان ملكنا ليس حاضراً فيه. على ان الفرنج ارسلوا ثانية وثالثة يطلبون حضورهم فأبوا وبذلك ابدوا بطلان مزاعمهم

ثم ان الارمن كتبوا دستور ايمانهم وكتب السريان ايضاً دستور ايمانهم وعرضوهما كليهما على المفوض البابوي وعلى آباء المجمع فنقلوهما الى الايطالية وتلوهما على مسامع الحضور اجمع فاثنوا عليهما واعلنوا انهما يشتملان حقيقة على دستور الايمان الارثذكسي. ولم يكتف الفرنج بذلك بل سالوا الارمن والسريان ان يبرموا القسم بانهم لا يعتقدون قلبياً اعتقاداً مخالفاً لما ورد في ذينك الدستورين فالسريان ابدوا ذلك اما الارمن فلامتزاجهم باليعاقبة والسيمونيين رفضوه. وهكذا ارفض المجمع

ولما انتقل البطريرك يوحنا الخامس عشر الى دار الخلود في ايلول ١١٣٧ عقد اربعة اساقفة منهم مجمعاً وانتخبوا الشماس يشوع ابن قطرة الملطي بطريركا وساروا الى ديار بكر فرسمه ديونوسيوس المفريان في ٤ كانون الاول ١١٣٩ ودعي اثناسيوس الثامن. وأولم لهم موید الدين صاحب ديار بكر وليمة فاخرة. ثم ارتحل البطريرك الى ملطية. فسار بعض السريان الى سميساط وقالوا لجوسلين ان هذا البطريرك لم يرتسم شرعا. فامر جوسلين أن لا ينادى باسمه في الكنائس. واوفد في استحضار طيمثاوس اسقف جرجر واستطلعه طلع المسئلة. وسعى باسيل ابا الفرج ابن شمنا مطرانا للرها فوافق البطريرك على ذلك[1]

وبعد هذا سار البطريرك في اساقفته جميعا الى تل باشر وزار جوسلين وصالحه فرد اليه الحلل الكهنوتية التي كان استحضرها من دير برصوما[2]

٢٥

زحفة الفرنج من البندقية

وحصار صور وحلب وعزاز وكفرطاب وجبلة وغيرها

تجهز البندقيون عام ١١٢٤ وابحروا مع ملكهم دوقاس الى

(١) م ٦٢٦ (٢) م ٦٢٨

فلسطين فوصلوا الى سواحل صور وصيدا وخرج بطريرك اورشليم واعيان الفرنج لاستقبالهم . ثم نازلوا صوراً العامرة بالاهلين المشحونة بالمسلمين الملتئمين فيها من البلاد المجاورة التي استولى عليها الصليبيون. فابتنوا برجين شاهقين عظيمين يشتمل كل برج على سبع طبقات علو كل طبقة عشر اذرع ووضعوا فيهما العرّادات والمجانيق وحوطوهما بالواح من خشب البلوط الرطب لئلا يؤثر فيها النفط واستاقوهما الى قرب الاسوار الثلاثة. وكان يتوسط كلا منها خندق عميق وقد جهزها الترك بالعدد والآلات واقاموا فيها جنوداً شجعاناً . وجعل الفريقان يتحاربان ليل نهار طيلة سبعة اشهر فاخترق الفرنج الاسوار واخربوا عدة ابراج فتضايق الاهالي من الجوع وخابت آمالهم من وصول الذخيرة اليهم من مصر. فقرروا ان يستنجدوا صاحب دمشق ويستدعوه ليوافي اليهم ويتولى امرهم وكتبوا اليه رسالة اوفدوها مع حمام الزاجل. فكتب لهم الجواب مع الحمام نفسه يقول تقووا ولا تيأسوا فاني موافٍ قريباً

على ان الحمام عاد بجواب صاحب دمشق واستقر في معسكر الفرنج فقرأوا الرسالة وكتبوا جوابها هكذا : نفيدكم يا اهالي صور الذين كتبتم تستقدموننا اليكم لنساعدكم انه يتعذر

علينا المجيء اليكم وليس عندنا جيش كاف لمحاربة الجنود المحاصرين لكم . فالاجدر ان تطلبوا الامان وتسلموا المدينة . وربطوا الرسالة في ذلك الحمام وسرحوه . وما قرأ الصوريون تلك الرسالة حتى عولوا على التسليم فارسلوا بعضهم الى الفرنج ليفاوضوا ملكهم دوقاس وبطريركهم في مسائل الصلح . وجرى الاتفاق بين الفريقين على اطلاق الحرية لمن يشاء مغادرة المدينة بما يقدر على حمله من الاموال والاثقال . ثم فتحوا الابواب فدخل الفرنج واحتلوا المدينة في تموز

وسار بغدوين الملك مستصحباً سنجيل صاحب طرابلس وجوسلين ملك الرها يريدون حلب ومعهم دبيس الامير العربي والي الحلة والعراق سابقاً فنازلوا المدينة وحصروها تسعة اشهر وضيقوا على اهاليها حتى اضطروا ان ياكلوا لحوم الحيوانات النجسة . ولما عول الحلبيون على تسليم البلد جاءهم الخبر بقدوم برزاقي صاحب الموصل لنجدتهم . فسأل دبيس بغدوين الملك ان يسير الى برزاقي في كتيبة من الجنود ليصده فابى . فوصل برزاقي وانضم الى الحلبيين وقاتل الفرنج وهزمهم الى جبل جوسن فظلوا ثم عشرة ايام وعادوا الى انطاكية . فتخوف الحلبيون سطوة الفرنج واتفقوا ان يؤدوا لجوسلين كل سنة اثني عشر الف دينار على ان لا يضيق عليهم . واغروا الطباخ

واخدم ان يدسوا سما في الطعام ويقدموه له ولاصحابه الستة فمات اولئك الستة من ساعتهم ونجا جوسلين بعناية الله ومعالجة الاطباء فقتل الطباخين وابناءهم [1]

اما برزاقي فارتحل الى عزاز وهي للفرنج وحصرها واقام المجانيق وحفر الخنادق وضيق عليها . فعول بغدوين ملك القدس وجوسلين ملك الرها ان يسيرا في جيشهما لمقاتلته غير انهما تخوفا لما بلغهما عنه وعن جيشه الكثيف . اما الاهالي فلشديد ما احاق بهم من الضيق اعملوا الفكرة في النجاة وخرج احدهم مستبسلاً واثقاً بحول الله تعالى يريد انطاكية ليوقف الملك على جلية الامر . ووعده العزازيون انه ان عاد اليهم بالسلامة اجزلوا له العطاء . فركب ذلك البطل حصاناً سريع الاحتضار واستل سيفاً واخفى حمامة من حمام الزاجل في عبه وخرج كالبرق وخرق صفوف العدو المجمهر حول المدينة وقفز الخندق الى الناحية الاخرى . فثار الاعداء عليه فغاب عنهم وانهزم الى انطاكية وبلغ الملك امر ضيق الاهالي . فاشتدت عزائم الفرنج وخرجوا واثقين بعون الله يريدون عزاز وكتبوا رسالة اوفدوها مع ذلك الحمام يقولون اننا واصلون اليوم الفلاني . تقووا وتشجعوا ولا تجزعوا . فحام ذلك الحمام وحط في خيام الترك

(١) ع ٦٠٩

فقرأوا الرسالة وكتبوا جوابها على لسان جوسلين: ان لا ترجوا منا خيراً لان الملك متشبث بقتال المصريين. فاطلبوا الامان وسلموا. ولما قرأها العزازيون ارتابوا في صحتها وقالوا الخليق بنا ان نتربث قليلاً لئلا يحدث لنا ما حدث لصور فوافقوا جميعاً

فأستدل الترك ان خديعتهم لم تتوفق فاعادوا اثقالهم الى حلب يخافون هجوم الفرنج واوفدوا الجواسيس على طريق انطاكية ليقفوا على جلية الامر فعادوا اليهم وافادوهم انهم قادمون فاضرموا النيران في الابراج وتدججوا وتأهبوا للقتال. فوصل الفرنج الى قورس وخلفوا فيها اثقالهم وبرزوا من برية كلس فلمحهم الترك وانحرفوا عنهم وانقسموا فرقتين الى يمين الفرنج ويسارهم فجاز الفرنج بينهما وحلوا حيثما كان الترك. فلما رأى الترك انهم قليلون قالوا اذا لبث الفرنج هنا قطعنا عنهم السبل فاهلكناهم جوعاً. واذا ارتحلوا تتبعناهم ووضعنا فيهم السيف

اما الفرنج فسيروا بعضهم الى القلعة يقولون لهم اننا منتقلون نحن وخيلنا الى الناحية الغربية لنرتوي ونغتذي فاذا تتبعنا الترك اشيروا الينا بدخان في قمة القلعة وعلى الله اتكالنا فاذا انتصرنا انتصرتم واذا هلكنا تمكنتم انتم من الحصار زماناً

وكان في القلعة قائد فرنجي ذو كريمة واحدة مشهور بالبسالة والشجاعة فأيد ما ارتأى اصحابه واستجمع قواه للمقاتلة

ثم ارتحل الفرنج غدوة في طريق انطاكية فركب الترك في اثرهم فتظاهر الفرنج بالهزيمة فاشتدت قوى الترك وتتبعوهم جميعاً لاحقين بهم. ولما رأى قائد القلعة ان لم يتخلف احد من الترك بتة اضرم النيران وارتفع الدخان. فامر الملك ان يهتفوا بالابواق وانقلب في ابطاله على الترك ومزق شملهم وقتل منهم زهاء الفين ولم يفلت منهم الا برزاقي في عدد نزر فتتبعه الفرنج حتى حلب ثم عادوا الى عزاز منصورين ظافرين

وفي السنة ١١٢٦ سار الفرنج الى كفرطاب واحتلوها واحتلوا جبلة ونازلوا صاحب حماة وقتلوه في كفرطاب[1]

وفي السنة ١١٢٩ التقى الفرنج بالمسلمين في جهات حمص وحماة واتلفوا منهم نحو عشرة آلاف واحتلوا عدة قلاع وحصون وامتلكوا جميع البلاد من غربي ماردين وشبكتان حتى العريش وبلغوا الى آمد ونصيبين وراس العين وضيقوا على اهالي الرقة وحران ولم ياذنوا لهم ان يعبروا من بلادهم الى دمشق

ولم يبق للترك في سوريا سوى حلب وحماة وحمص ودمشق وكان اصحابها يؤدون الجزية للفرنج فكان الحلبيون مثلاً يؤدون لهم كل سنة نصف الغلال. وكان بهران صاحب بانياس يرسل الى ملك القدس التحف والهدايا ويبدي له الطاعة حرصاً

(١) ع ٢٨٦

على مركزه

واوفد ولاة الفرنج الى دمشق فاحصوا جميع النصارى المستعبدين عند المسلمين واعتقوهم من ربق العبودية وخيروهم في السكنى ما بين المسلمين او الارتحال الى اي بلد احبوا

٢٦

ولاية بيموند على انطاكية وقتله ووفاة جوسلين

واوفد الملك بغدوين فاستحضر الفتى بيموند بن بيموند الكبير صاحب انطاكية وزوجه بابنته وقلده الامارة عليها خلفاً لابيه وسير معه القائد فوك او (فولك) وزوجه ابنته الثانية وسماه ملكاً على اورشليم من بعده . فسار بيموند الى انطاكية وحاول التحامل على الفرنج فقصده جوسلين وغزا ضواحي البلد تشفياً فسخط عليه البطريرك الانطاكي واغلق الكنائس وابطل الصلوات والقداديس وقرع الاجراس ودفن الموتى ريثما استرجع الغنائم من جوسلين

وبعد هذا جيش بيموند جيشاً كثيفاً وسار يريد قليقيا فالتف به الترك وعلى راسهم غازي بن دنشمان واقتتل الفريقان فتغلب الترك وفتكوا بالفرنج وقتلوا بيموند نفسه وهم

يجهلونه ثم حزوا هامته وكانت مزدانة بشعر جميل مسترسل فسلخوها واوفدوا الجلد في أموال كثيرة واوان ثمينة وعدد حربية فرنجية الى سلطانهم الكبير[1] في اصفهان . ومما يجدر بالذكر ان دنشمان أبا غازي اسر بيموند والد بيموند الاول واتلف جيشه. وهذا غازي قتل بيموند الثاني ابنه

وفي السنة ١١٢٩ سار جوسلين الى آمد وحارب الاتراك والاكراد معاً ونهب ضواحي البلد. وكان يومئذ عند حسام الدين تيمورطاش صاحب ماردين فارسان فرنجيان مشهوران بالبسالة وهما برنول وغالران فالح عليه برزاقي واراده على قتلهما وتهدده باتلاف عاصمته ماردين ان تمنع عن ذلك فقتلهما توفية لاربه . وما عتم ان وصل اليه الخبر بان رجلا اسمعيلياً طعن برزاقي بالسكين وهو يصلي في الجامع يوم الجمعة فلم تؤثر فيه الطعنة اذ كان مدرعاً فقصد الترك ذلك الاسمعيلي وقبضوا عليه فاستغاث برفيقيه فبادرا الى برزاقي وطعناه تحت بطنه واماتاه من ساعته. فندم حسام الدين على قتله القائدين الفرنجيين[2]

اما جوسلين صاحب الرها فظل يواصل الحروب على رغم

---

(١) ع ٢٨٨ الى خليفة بغداد

(٢) م ٦٠٩

شيخوخته. وكان قريباً من حلب قلعة تسمى تل عرن بينها وبين منبج يسكنها قوم من الترك يتعرضون للسوابل ذهاباً واياباً فخرج جوسلين في طائفة من ابطاله ليدك تلك القلعة واخذ يحفر تحتها الخنادق. ولما سار يوماً ليشرف عليها انهار عليه الجدار فترضضت اعضاؤه واختفى ما بين الحجار فبادر الجنود وانهضوه على آخر رمق وحملوه الى تل باشر واعتنوا بأمره. ولما كان في تلك الحال حشد غازي التركي عساكره يريد ولاية اولاد روبين الارمني فاستدعى جوسلين جنوده وسالهم ان يحملوه على سرير المرض الى ملاقاة الترك فلما عرف غازي ان جوسلين حي بعد انقلب الى بلده. ونقل جوسلين الى دلوك حيث ادركته المنية عام ١١٣١ فشيع ودفن في كنيستها. فشق موته على غازي وابطل الحرب واوفد وفداً الى الفرنج يعزيهم وكتب اليهم اني لست احاربكم اليوم لئلا يذاع عني اني بعد ما بلغني موت ملككم ناجزتكم القتال. فدبروا امورهم واقيموا لكم رئيساً على مهلكم وسوسوا بلادكم آمنين مطمئنين فاني لن انشبث معكم بقتال او حرب

وتولى امر الرها وتل باشر بعد جوسلين ابنه جوسلين الثاني وكان جاهلا ارعن

٢٧

خلافة فلك في اورشليم وحروب جوسلين

وفي السنة ١١٣١ توفي بغدوين الثاني ملك اورشليم فخلفه صهره فلك السابق ذكره. وفي عهده اقبل من ايطاليا ريمند دي فتيرس او هو البدوي وسار الى انطاكية واقترن بابنة بيموند وتقلد امارة المدينة وما والاها

وظهر اذ ذاك امير تركي يقال له محمد شمس الخجاب كان يبغض النصارى بغضاً شديداً فكتب الى حسام الدين تيمورطاش صاحب ماردين ان يتخلى عن بلد شبكتان ليصد غارات الفرنج عن تلك الاطراف. واخذ يدمن الذهاب الى ضواحي الرها ويغزوها ويكتسحها. فادركه جوسلين مع فرسان الفرنج فقتلوا الف تركي وقبضوا على محمد المذكور واحرقوه على باب الرها واحتلوا قلعة شبكتان وقوضوها بالمرة من اساسها. ثم انطلق جوسلين الى حلب فانسحب الترك عنها وتوغلوا في براري تل باشر وسوادها وافسدوها فخرج اليهم سبعون فارساً من الفرنج فقبض عليهم الترك وانصرفوا بهم

وفي السنة ١١٣٤ سار الترك الى انحاء انطاكية فخرج اليهم جوسلين واثخن فيهم فعقدوا الصلح معه. وفي كانون قصد

صاحب طرابلس قلعة بعرين فاكتنفه الترك فلاذ بالفرار فغزوا البلد وغزوا جبل لبنان وحصروا تلك القلعة وضيقوا على من فيها من الفرنج فادركهم ملك القدس وهزمهم وسار الى قلعة القصير واحتلها وارتحل الى عمّ فتالب عليه الترك كالجراد فتخوف ملك القدس وارسل الى جوسلين يستنجده ثم التحم القتال بين الفريقين فركن الفرنج الى الفرار فتتبعهم الترك الى البقاع

وكانت يومئذ بين ملك القدس وجوسلين قوارص فنزلا عن فرسيهما وتصالحا فرضي الرب عنهما ثم حملا على الترك حملة صادقة فاثخنا فيهم وضرباهم ضربة قاضية من مفتتح النهار الى مختتمه. فعاد الملك منصوراً وأمر ان يهتفوا بالابواق وسأل عن جوسلين فلم يقف على خبره فحزن عليه هو والجنود حزناً شديداً حتى اذا كان نصف الليل اقبل اليهم فابتهجوا برؤيته وشكروا الله تعالى على نجاته[1]

٢٨

ظهور زنكي التركي

وكان السلطان سنجرشاه قد ولّى عام ١١٣١ عماد الدين

(١) م ٦١٥

زنكي بن آقسنقر على الموصل وبلاد ما بين النهرين وسوريا وفونيقي فسار الى قلعة شنا شرقي الرها وامتلكها وكان الفرنج قد احتلوها من صاحبها منيع بن عطير العربي . ثم زحف الى الرها واوفد الى الاهالي يصرح لهم بانه لا يريد محاربة الفرنج بل موافقتهم ومهادنتهم . فارسلوا اليه بعض الهدايا والاطعمة فغادرهم الى حلب فبعلبك وامتلكها وتوجه الى دمشق فتخوف اميرها وارسل يستنجد ملك القدس وبعث اليه ذهبا كثيراً . فخرج صاحب القدس في جيوشه والتقى بزنكي . فتقهقر زنكي وتتبعه الفرنج فرجع اليهم ودحرهم والتحم القتال بين الفريقين فاجفل ملك القدس في كتيبة قايلة وانهزم الى حصن الاكراد بحدود طرابلس فزحف زنكي وحصر الحصن زماناً حتى اضطر من فيه ان يأكلوا لحوم الخيل والجحاش بلا ملح . ثم اوفد ملك القدس الى ريموند دي فتيرس صاحب انطاكية والى جوسلين صاحب الرها ليسيرا اليه . فعرف زنكي ان الفرنج متأهبون لقتاله وان الملك في ضيق فارسل اليه اطعمة فاخرة وابرم معه عهد الاتفاق والمحالفة وارتحل . فوصل جيوش انطاكية والرها يريدون تتبع زنكي فلم يدعهم الملك حرصاً على شرفه وصيانة لعهوده

وبعد عقد الاتفاق سار زنكي الى قلعة تيرب وقلعة هدّنا

قرب حلب وحصرهما وكان صاحبهما امير فرنجي فتضايق اصحاب القلعتين وسألوا زنكي الامان فاقسم لهم في ذلك ووعدهم ان يوصلهم الى باب انطاكية ففتحوا له الباب وسلموه القلعتين. غير ان زنكي نقض عهده فاخرج الرجال والنساء والفتيان والفتيات واستاقهم الى حلب وادخلهم من باب انطاكية كأنه بذلك انجز وعده ثم وضع السيف في الرجال واستعبد النساء والصبيان

٢٩

زحفة ايوني ملك الروم الى سوريا

وفي السنة ١١٣٥[1] عول ايوني ملك الروم على الزحف الى سوريا فحشد زهاء اربعة آلاف من الروم والفرنج من هنغاريا وغيرها وتوجه الى سواحل قليقيا واميرها يومئذ لاون بن روبين الارمني خال جوسلين صاحب الرها. فتجبر لاون وتكبر وسار الى طرطوس والمصيصة وانزل بالفرنج افدح العذاب. وظل يعاديهم ويناوئهم حتى تولى دي فتيرس امر انطاكية فجيش الجيوش وخرج اليه وقبض عليه واستاقه الى انطاكية[2]

(١) ع ٣٠١ عام ١١٣٧ (٢) ع ٣٠١ ان ايوني قبض على لاون وعلى امراته واولاده وسيرهم الى قسطنطينية

وعند ذاك وصل ملك الروم الى قليقيا وأوفد الوفود الى الفرنج يقول ان من حالفه وحرص على صوالحه لزمه ان يذهب ويسجد له خاضعاً. فسار اليه فتيرس وجوسلين ليسلما عليه فرحب بهما الملك عند طرسوس ثم عاد كل منهما الى حاضرته. واستحوذ ايوني على طرسوس والمصيصة وآذنة وحصر عين زربة واحتلها وانطلق الى برية انطاكية وخيم فيها ونثم اصحابه يعيثون البراري والجبال وضياع النصارى. فسار اليه صاحب انطاكية وصاحب الرها يلفتان نظره ويستعطفان خاطره فاعرب لهما عن فكرته مصرّحا لهما بانه لا يريد انطاكية الا ليضع فيها الاثقال ويخزن فيها الذخائر تسهيلاً لما ينويه من فتح بلاد المسلمين. غير ان فتيرس خالجه الريب في امره ولا سيما لأنه كان قد استصحب جيوشاً كثيفة واستحضر معه انجاله الاربعة واخوته واصهاره وسائر حشمه ووزراء بلاطه واقسم انه لن يعود الى عاصمته قبل احراز النصر النهائي غير معتقد ان النصر لله وحده يمنحه من احب وشاء من عباده. على ان فتيرس عاد من ساعته الى انطاكية واطلق لاون الارمني فقصد ايوني الملك وادى له الطاعة فقبض عليه وارسله مع اولاده وآله الى قسطنطينية

اما جوسلين صاحب الرها فانه عقد اتفاقاً مع ايوني على ان

يزحف الروم الى حلب وسائر بلاد سوريا ويدوخوها ويولوا الفرنج عليها. فسار الجيشان معاً الى قلعة بزاعة واحتلوها وتنقلوا الى شيزر ووضعوا حامية فيها[1]

٣٠

فتح الترك آدنة

ولما كان ايوني وجيوشه في براري انطاكية وارياقها وكان الفرنج يتظاهرون له بالخضوع غير واثقين به وصل اليه خبر الشؤم عن فتح آدنة التاعسة الحظ. وكانت تلك المدينة يومئذ حافلة بالاهالي و كانوا كلهم من الشعب السرياني يتولى امورهم الروحية المطران ايونيس يشوع ابن الطويل الرهاوي النحلة. ذلك ان ايوني بعد ما دوخ تلك المدينة العامرة واقام عليها الحامية انصرف الى انطاكية. فابتهج النصارى بحصولهم على الامن والسكينة ونجاتهم من جزى الفرنج الباهظة الفظيعة. غير ان الترك باغتوهم ليلة الاحد وعلى راسهم مسعود سلطان قونيا[2] واكتنفوا المدينة من كل جهة واخذوا يحاربونهم حرباً عنيفة واقاموا السلالم على السور وتسلقوها على رغم معارضة الاهالي وطفقوا يرشقونهم بالنبال ويرجمونهم

(١) ع ٣٠١ (٢) م ٦٢١

بالحجار ويضرمون النيران حولهم . ولكنهم لبثوا من الصباح حتى نصف النهار يحاربونهم ببسالة

بيد ان جندياً تركياً تسلق سلما حتى بلغ قمة السور فألقى سوراً آخر أعلى نابتة فيه شجرة ثابتة فتشبث باغصانها ووقف فوقها فاستل احد الجنود رمحه من فوق وضرب ذلك التركي فقبض التركي على الرمح فسحبه ذلك الجندي سحبا عنيفا يريد افلاته من يده . لكن التركي لبث متشبثا به حتى وصل الى فوق فاجاله وطعن ذلك الجندي الضعيف فخار وحار واستحوذ الرعب عليه وعلى اصحابه ولاذوا بالفرار . فاستجمع الترك قواهم واخذوا يتسلقون واحداً فواحداً وتجمهروا في اعلى السور في فترة يسيرة . ثم انحدروا الى المدينة وفتحوا الابواب فدخل اصحابهم الترك واخرجوا الاهالي واكتنفوا الرجال وقتلوهم عامة وقصدوا البيوت والكنائس ونهبوها واتلفوا واخربوا واستاقوا الفتيان والفتيات فيئة فيئة . وقبضوا على المطران والكهنة والشمامسة الشبان واوثقوهم ومضوا بهم وتركوا المدينة قاعا صفصفا وارتحلوا

فجهز ملك الروم عسكره وسار ليدحر الترك ولكنه ما وصل الى آدنة الا بعد انهزامهم بسبعة ايام . وباع الترك اولئك المسبيين في ملطية فاعتنى بأمرهم ملك الروم . وتم خراب آدنة

خامس شهر لخروجه من العاصمة. واضطر عسكره ان يشتوا في قليقيا فاتلفهم الداء وافناهم الوباء

٣١

الترك والرهاويون وحرب بوزاش وزنكي

وفي سلخ تشرين الاول ١١٣٨ حصر الترك الرها وضيقوا على اهلها. فحشد الفرنج ثلاثمائة فارس واربعة آلاف راجل وساروا الى سميساط يريدون ايصال القمح والخمر واصناف المؤون الى الرهاويين المحاصرين. وما عبروا الفرات في مواشيهم واثقالهم حتى ادركهم تيمورطاش الارتقي صاحب ماردين وميافرقين في عشرة آلاف فارس ليلة الجمعة ٢٩ تشرين الاول. والتحم القتال بين الفريقين طيلة الليل. ولما انبثق فجر ذلك النهار النحس والفرنج مضطربون على الضيق . خرج اصحاب تيمورطاش من قرية دفتل قرب الرها ووضعوا السيف فيهم وفتكوا بقوم منهم واسروا الوفاً وغزوا الاموال الوافرة واحتووا على بغال وجحاش لا تحصى . واستصحب تيمورطاش الاسرى الى سور الرها ورتبهم صفوفاً موثقين بالحبال ونادى الاهالي وقال لهم: حتى م تصرون ايها الاشقياء على عنادكم . سلموني المدينة اعتق اسراكم. فلم يجيبوا الى طلبه. فارتحل عنهم

ولا سيما لانه لم يعد عنده اسلحة وذخيرة كافية لمواصلة الحصار. وكان في جملة من استأسرهم الشماس ابو سعيد الطبيب والفيلسوف وميخائيل بن شمونا وابنه

ومرق في تلك الاثناء بوزاش القائد التركي من طاعة مولاه شهاب الدين وسار في اصحابه الى طرابلس فخرج اليه ابن سنجيل فتغلب بوزاش وفتك بالفرنج عامة واحرق طراباس العليا وغزا البلد اجمع. وانقلب الى طبرية وحصرها ونهبها. وسار الى نابلس فنهبها ودمرها. فخرج ملك القدس لقتاله فزحف اليه زنكي بغتة ونازل الفرنج ليلاً وقتل عدة من رجالتهم وانهزم ملك القدس وفرسانه الى الحصون القريبة فشدد الترك عليهم الحصار اربعين يوماً. وبعد هذا ارسلت ملكة القدس الى صاحبي انطاكية والرها تستنجدهما فبلغ ذلك زنكي وصالح الملك وانصرف[1]

٣٢

زحفات ملك الروم

وفي ربيع ١١٣٩ استعد ملك الروم للزحف الى سوريا واوفد الى امراء الفرنج ليسيروا اليه . ثم اقبل الى مرعش فدلوك

(١) م ٦٢١

فمينتاب فتل باشر فمنبج واستصحب جوسلين الى بزاعة بين منبج وحلب واحتلها واستأسر اصحابها وولى جوسلين عليها وارتحل الى حلب ولم يتعرض لها على انه لو حصرها لاستحوذ عليها بلا ريب . غير ان الفرنج لاختلافهم عليه اشاروا اليه ان يزحف الى قلعة شيزر الحريزة المبنية فوق قلة جبل شاهق يجري في الواذه نهر غزير . وكان اولاد منقذ اصحابها متصفين بالسخاء والكرم . فلما وصل الروم اليها استدرك زكي الخطر وخرج من حلب حتى شارف معسكر الروم ومنع عنهم الذخائر فتضايقوا وادركهم العوز وطال الحصار ولم يستفيدوا شيئاً . فاستيقن الملك ان الفرنج طوحوه في تلك الفلوات وخدعوه . ثم ارسل اصحاب القلعة يقولون له : ان الفرنج يخاتلونك ويخادعونك فتركنا لاننا لم ننزل بالنصارى أذّ البتة . ثم اوفدوا اليه اواني بيعية ذهبية وفضية من كؤوس واطباق وصلبان ومباخر كان اسلافهم قد استحلوها من الروم في سالف الزمان . فاخذها الملك وغادرهم الى انطاكية فمين زربة حزيناً مغموماً لانه لم يظفر بشيء اثناء ذلك الصيف باجمعه

وعند ذلك استفرص زنكي الفرصة وقصد بزاعة وارتجمها وقتل من بها من الفرنج . وسار الى عزاز وكان بها عدد من الاسرى يخرجون يوماً فيوماً الى الحقول يتقوتون بالفول

والاعشاب فاحاط بهم زنكي وقتل منهم ونجا بقيتهم الى بزاعة

واستمر ملك الروم اياماً في قليقيا حيث توفي ابنه اليكس البكر فحنطه الروم وشيعوه الى قسطنطينية . وما لبث ان مات ابنه الثاني فنقلوه اليها كذلك . فشق الامر على الملك جداً وعاد الى عاصمته كمداً يندب خيبوبة اماله

وفي تشرين الاول ١١٤١ زحف الترك الي اديار زابار وهي الارمن بنواحي ملطية وسبوها . فخرج اليهم الفرنج ووصلوا الى زبطرة وعرقة وبلستين وغزوا بلاد النصارى وقتلوا من الترك خلقاً كثيراً واستأسروا الفتيان والنساء . فهجم الترك من هنزيط ساخطين والتقوا بمطران قليسورا السرياني في جبل ابدهار فاوثقوه وكبلوا من معه وحاولوا ان يقتلوهم فباغتهم الفرنج وهزموهم وفكوا وثاق المطران واصحابه وسرّحوهم[1] . وانتصر الفرنج في تلك المعركة انتصاراً باهراً لانهم كانوا في وئام واتفاق[2]

اما بغدوين ملك القدس فانه خرج ذات يوم الى الصيد وفيما كان يطارد ارنباً سقط من ظهر حصانه منتكساً وانغمست هامته في جثته فقضى من ساعته . وخلفه ابنه بغدوين الثالث عام ١١٤٤ وتولت امه ادارة المملكة[3] لحداثة سنه

---

(١) ع ٣٠٣ (٢) م ٦٢٣ (٣) ع ٣٠٥ وم ٦٢٧

٣٣

حصار الرها واحتلالها المشؤوم

عاد زنكي الى بلاد ما بين النهرين وحارب تيمورطاش صاحب ماردين وسائر الارتقيين واستولى على دارا وتل موزل وجميلين وشبكتان وحانين وارقانين وحاميمتا . فاستنجد الارتقيون جوسلين صاحب الرها وتنازلوا له عن قلعة بابولا بجرجر . فتجهز معهم لمحاربة زنكي . فحالف زنكي الارتقيين وحقد على جوسلين واخذ يتحين الفرص لاحتلال الرها ويبعث اليها الجواسيس ليقف على مقدار ما فيها من الجنود . وكان يساعده في ذلك فضل الله بن جعفر صاحب حران

وحشد وقتئذ جوسلين جيوشه وسار ليغزو سواحل الفرات عند كلس والرقة . فارسل صاحب حران الى آمد يخبر زنكي ان الرها فارغة من العسكر . فجهز قواده وارسلهم اليها مع صلاح الدين كبيرهم لينهبوا ضواحيها ويتجسسوا احوالها ووادیها . فاذا لاقاهم الفرنج عادوا والا اقاموا عليها الحصار واوفدوا في طلبه

غير ان زنكي لم يصطبر بل تتبع آثار قواده ليلًا فبزغ النهار وهم بعد على طريق حران وكانت الامطار الشديدة

تتساقط عليهم طول الليل. فوصلوا الى المدينة صباح الثلاثا ٢٨ تشرين الثاني ١١٤٥ وقصدوا المقبرة تواً وقتلوا جماعة ما بين الاسوار وارسلوا حمام الزاجل الى زنكي ليبادر اليهم فادركهم صباح الخميس في جنود كثيفة عديدة كنجوم السماء وملاءوا البراري المحيطة بالرها واحتفوا بها صفوفاً صفوفاً وعالجوا الدخول اليها فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً

ورتب زنكي قواده وجنوده فحل هو شمالي المدينة تجاه باب الساعات فوق التل المشرف على كنيسة المعترفين. وحل ابنه شرقي المدينة. ووزيره جمال الفارسي الحكيم في شماليها فوق تل المرصد. وصلاح الدين رئيس قواده في الناحية الغربية عند باب المعين فوق مقبرة الغرباء حيث ضريح مار افرام. وحل زين الدين علي صاحب اربيل وشهرزور في قلة جبل سليمان في سياج برصوما. والأمير دبيس شرقي باب كسس. والامير ابو علي صاحب الزعفران وارقانين الى يساره. واولاد باغوغ اصحاب سويرك وسواحل الفرات في الشمال الشرقي. وعين الدولة صاحب شبكتان جنوبي باب كسس والى جنوبيه عساكر التركمان. وخيم الاكراد عند باب الجنوب تجاه حران وفوقهم الرجالة العرب والحلبيون. وحل حسن امير منبج غربي القلعة

منظر الرها الحالية

يشاهد في علوها الى اليمين البرج المثمن حيثما كانت
كنيسة الاربعين شهيداً . والى اليسار في
الاسفل برج مربع حيثما كانت
كنيسة والدة الله

ولم يكن في المدينة يومئذ الا اساكفة وحياك وقزازون وخياطون وقسان وشمامسة. وثلاثة اساقفة وهم بيبوس اسقف الفرنج وكيل جوسلين وباسيل بن شومنا الرهاوي مطران السريان وايونيس مطران الارمن. فتأهبوا باجمعهم للدفاع ومقاتلة الاعداء بكل جهدهم

اما الترك فهيأوا الابراج واعدوا سبعة مجانيق واقاموا العساكر يرشقون السور بوابل من الحجار وكان اقوياء الرهاويين والرهبان فوقه يحاربونهم. وراح غيرهم يحفرون الحفر تحت السور من الناحية الشمالية خارج باب الساعات وواصلوا الحفر حتى وصلوا الى اساس السور وهم لا يفترون من الضرب والحرب. وعند ذاك طفق زنكي يملق الرهاويين ويسايرهم ليسلموه البلد صلحاً وارسل اليهم اثنين من معتمديه يقول لهم انظروا ايها الاشقياء ان آمالكم قد حبطت فعلى من تعتمدون ومن تنتظرون. اشفقوا على نفوسكم وعلى ابنائكم وبناتكم ونسائكم وبيوتكم قبل خراب مدينتكم. غير انه لم يكن يومئذ في المدينة رئيس يشير عليهم بل كان كل يحاول انجاز امنيته فافضى بهم الامر الى الخلاف والفساد والعاقبة الوخيمة بل غلظوا لزنكي في الكلام وبالغوا في احتقاره وشتمه

فراح مطران السريان يستشير بيبوس مطران الفرنج

وعقلاء القوم[1] فاقترحوا ان يكتبوا الى زنكي يستمهلونه اياماً ريثما يأتيهم المدد. فكتبوا اليه رسالة تلوها على مسامع الجمهور فيها يرغبون تاجيل القتال ليتاحوا هنيهة. اذ كان الاهالي اجمع رجالا ونساء وشباناً وصبياناً منهمكين في نقل الحجار والماء والكلس والبناء تجاه الخنادق وقد ازعجهم الترك عن طعامهم وشرابهم ويقظتهم ومنامهم وهم يطلقون عليهم الحجار فتتساقط فوقهم تباعاً وواصلوا ذلك حتى ثقبوا السور من كل ناحية ودكوا اساساته في الناحية الشمالية ودعموها باخشاب دهنوها بالنفط والشحم والكبريت حتى اذا اضرموا فيها النيران اندلعت وقوضت السور ثم ابتنوا برجين آخرين. اما الاهالي فانهم احتفروا كذلك حفراً تحت السور وخرجوا الى العدو وقتلوا من صادفوا وعادوا فابتنوا سوراً آخر تجاه الحفر

وبعد ما كتبوا الرسالة الى زنكي وعولوا على ارسالها اليه اعترض عليهم رجل غبي احمق اسمه حسنون القزاز فخطف تلك الرسالة ومزقها ساخطاً. فعلا الضجيج وانتشر الهياج والغي ذلك الاقتراح الحسن المفيد. على ان زنكي سبق فبلغ الرها وبين

---

(١) ع ٣٠٦ ان بيبوس كان يعلل النفس بقرب وصول جوسلين ومالك القدس الى الرها فلم يكترث لقول زنكي بل سخر به

انه يتربث اياماً معدودة ليعملوا الروية فاذا جاءهم نجدة والا سلموا وسلموا لانه لم يكن يشاء تخريب البلد واتلاف السكان ولكنه لما رأى ما رأى قسا قلبه كفرعون وأبى الا المحاربة والقتال. فاوقع في رجاله صيحة ارتجت لها القلوب وارتعدت الفرائص وامرهم ان يضرموا النيران في السور وقال لهم تاهبوا للحرب واذا رايتم السور تداعى فاقفزوا الى المدينة واصدقوا الحملة على من بها وانهبوها ثلاثة ايام. فاندلعت من ثم النيران في النفط والكبريت وانتشرت في الاخشاب وانصب عليها الشحم وهبت ريح شمالية قلبت الدخان على الاهالي فتداعى ذلك السور الحصين وانهار وانهارت معه الابراج واخذ الترك يهجمون البلد فعارضهم الاهالي وحاربوهم من الصباح حتى الساعة الثالثة يوم السبت ليلة عيد الميلاد ٢٤ كانون الاول[1]. فدخل الترك ووضعوا السيف في الشيوخ والفتيان والشبان والنساء والكهنة والشمامسة والرهبان والنساك والراهبات العذارى والرضعان والعرائس. وفتكوا في ذلك اليوم بستة الاف نسمة

واسرع النساء والصبيان الى القلعة العالية لينجوا بنفوسهم فألفوا بابها مرتجاً وكان المطران بيبوس قد حرج على الحراس ان يفتحوه لسواه. فازدحم الناس صفوفاً صفوفاً وتكردسوا

(١) ع ٣٠٦ في ٣ كانون الثاني

كتيبة كتيبة وجعلوا يتسلقون راكبين بعضهم فوق بعض لشدة الهول والرعب. فيا له مشهداً مريعاً محزناً مزعجاً. على انهم صاروا كتلة واحدة واختنق منهم ما ناف على الخمسة الاف نسمة. سبى الترك من الفتيات والفتيان زهاء عشرة الاف نسمة

ثم بادر زنكي الى القلعة وشاهد ذلك الازدحام الهائل فشملته الكآبة وامر اصحابه ان يكفوا عن القتال. والتقى الترك بمطران الفرنج في طريق القلعة فضربه احدهم بالفأس على يافوخه. وقتل الترك عدداً غفيراً من القسان والشمامسة والرهبان والنساك في تلك المعركة الهائلة

اما باسيل مطران السريان فصادفه زنكي حافياً عرياناً موثقاً يجره الترك على الارض فأمرهم ان يحلوه ويلبسوه قميصه ثم جعل يعاتبه على التمنع من تسليم البلد. فقال له المطران باللغة العربية الفصحى: كذا شاءت العناية الربانية ان تغلب انت ونتكسر نحن ولا نحنث في يميننا وعهدنا مع الفرنج. وسنحافظ على عهودنا معك لان الله شاء ان نكون لك عبيداً. فرطب زنكي قلبه وسار به الى خيمته واخذ يستشيره في امر ترميم المدينة ثم فوّض اليه ان يستدعي اليها من يسكنها ويعمرها

وبعد هذا انطلق زنكي الى باب القلعة الاعلى ونادى

اصحابها ليسلموه اياها صلحاً ويستأمنوه فانحدر اليه بعضهم في ذلك وكان معهم قسيس خبيث لئيم يدعى القس برصوم اسمعيل محا الله اسمه من سفر الحياة لانه لم يكن يخاف الله ولا يستحي من انسان. وكان يحتقر القوانين والنواميس ويستهين بالسيد المسيح ورسله لا يهاب الله ولا يخاف جهنم ولا يعتقد بالبعث والنشور. ويطول بنا المجال لو شئنا سرد قبائحه ومنكراته وفظائعه. فهذا الخبيث الوقح حالف زنكي على تسليم القلعة فاستحلها بعد يومين من فتح المدينة. وفي اليوم الثالث تقدم زنكي الى اصحابه ان يجمعوا اليه الاسرى واقام الحراس على المدينة لئلا يلحق الترك بهم اذى. وصدهم عن الدخول اليها والفتك بسكانها. فتوطن من بقي من الرهاويين من السريان والروم والارمن واجزل لهم القوت ورطب قلوبهم فلزم كل بيته

واستتلى المؤرخ الرهاوي ان الترك سبوا زهاء الفي نفس ومات منهم ستة آلاف قتلاً وخنقاً واعتق زنكي من يد جنوده زهاء عشرة آلاف ونجا من اختفى في قلب الارض وفي القلمتين. وقال ميخائيل الكبير (ص ٦٣٧) ان عدد القتلى في المرتين بلغ زهاء ثلاثين الفاً وسبى الترك ستة عشر الفاً وافلت الف رجل ولم يفلت امرأة ولا صبي واحد

على انه لما فتحت ابواب القلعة العالية واستحصل الامان من فيها استحضر زنكي باسيليوس مطران السريان ثم امر جنوده فأخرجوا جميع من فيها من الفرنج في نسائهم واولادهم وقسانهم وشمامستهم في ذهب وفضة وامتعة شتى . وانضم اليهم قوم من الاهالي وساروا الى زنكي يستأذنونه في عبور الفرات والرحيل اينما احبوا

على ان الامير صلاح الدين امسك بيد المطران باسيليوس وقال له : « نرغب اليك ان تقسم لنا بالانجيل والصليب انك وشعبك تحافظون على عهودكم معنا لانك تعرف حق المعرفة . انكم كنتم مستوجبين الموت قاطبة اذ قد عاكستم سلطاننا واحتقرتم نبينا . ونحن مستعدون اليوم ان نرفق بكم ونحسن اليكم وقد اطلقنا اسراكم . انك لا تجهل ان هذه المدينة كانت منذ مائتي سنة يوم فتحها الترك حافلة بالاهالي عامرة كعاصمة المملكة . ولما احتلها الفرنج منذ خمسين سنة اخربوها واتلفوا سوادها كما ترى . فالسلطان حرسه الله معول على الاحسان اليكم . فعيشوا في ظل مملكته بالامن والسلام وصلوا عليه »

ثم خرج الرهاويون السريان والارمن من القلعة وسار كل الى بيته . اما الفرنج فان الترك ابتزوا ما معهم من الذهب والفضة والاواني البيعية كالكؤوس والاطباق والصلبان

والذخائر والجواهر وفرزوا القسان والوجهاء والاعيان وعروهم من ثيابهم وسيروهم اسرى الى حلب. وتركوا الصناع مأسورين يزاول كل صنعته ونكلوا بمائة منهم رشقوا بعضهم بالسهام وذبحوا بعضهم بالسيف

واستدعى زنكي المطران باسيليوس واوصاه ان يثبت على عهده ووعده مع المسلمين واعطى الرهاويين دواب ومواشي وذخائر. واستعمل عليهم الامير زين الدين علي صاحب اربيل وشهرزور ومعه سبعة امراء وخلف في الرها جيشاً كثيفاً وانطلق الى حران والرقة رابع يوم لفتح المدينة . وبعد هذا سار الرهاويون وفكوا اسراهم واستتب الامان في المدينة وعاملهم الامير زين الدين بالرفق والحسنى

وقد نظم في فتح الرها هذا ديونوسيوس يعقوب ابن الصليبي (+ ١١٧١) ميمرين يوم كان بعد شماساً في ملطية . ونظم في ذلك ايضاً باسيليوس مطران الرها ثلاثة ميامر كلها بوزن مار يعقوب

ورثاها ميخائيل الكبير بعبارات شجية نقلها عنه ابن العبري قال من الجملة (ص ٦٣٠–٦٣١) : « يا للخطب الرائع فقد استولى الخنزير الاثوري على الرها ومعس العنب الحلو . يا للفاجعة الكبرى ويا للداهية المرة. مدينة انجر خليل المسيح

دهسها العدو لسبب اثمنا. قتل كهنتها وذبح شمامستها ونكل بخدمة كنائسها وابتز هيا كلها وقوّض مذابحها. يا للضيق الشديد. كفر الاباء بابنائهم ونسيت الام عطفها على انجالها ...

واذ كان العدو يهدر الدماء كان كل يسارع الى الجبل ومنهم من كان يجمع اولاده كما تجمع الدجاجة فراريجها وهم ينتظرون الموت قتلًا او السبي جملةً. وكان الكهنة الشيوخ حاملين عظام الشهداء لائذين بالصبر وهم يقولون اننا نصبر على سخط الرب. لاننا خطئنا واسخطناه. فلم ينهزموا ولم يكفوا عن الصلاة ريثما اسكتهم السيف. فتضرجت حللهم الكهنوتية بدمائهم وفي ايديهم صناديق عظام القديسين ... والخلاصة حسبنا ان ندعو ارميا النبي وامثاله وندعو معهم النوادب لينشئوا المراثي وينتحبوا على الشعب المستوجب الشفقة والحنان !!!

٣٤

حصار سروج والبيرة

وبعد اربعين يوماً لفتح الرها اوفد زنكي جيشاً كثيفاً الى سروج فاجفل عنها المسيحيون وارتحلوا الى البيرة فاحتلها الترك وقصدوا البيرة نصف اذار ١١٤٥ وعلى رأسهم زنكي

وابتنوا حولها عشرة معاقل وجعلوا يحاربون بدءاً من خميس الفصح الى احد القيامة حرباً متواصلة حتى دكوا السور الخارجي. ثم استأنفوا الحرب واحتلوا القلعة ايضاً. فالقى الاهالي صيحة عظيمة تشققت لها الارض واستلوا السيوف وطاردوا الترك وهزموهم

ووصل اذ ذاك القمص ربرت السمين يصحبه ربرت القائد وكانا كلاهما منجذين محنكين ومعهما مائتا راجل. فوصلوا الى قلعة الروم فوق البيرة بعيدة عنها زهاء يوم واحد وركبوا سفينتين في الفرات غطوهما بالواح عريضة وتروس قوية واخذوا ما يلزمهم من الذخيرة والسلاح وجروا في النهر حتى شارفوا معسكر الترك فنفخوا الابواق على جهل منهم فتخوف الترك بداءة بدء ثم انقلبوا على السفينتين وحاربوا من فيهما من الناحيتين وركب بعضهم القوارب وواصلوا القتال. والفرنج في حيرة منهم حتى بلغت السفينتان الى الشاطئ. فلم يشاهدوا من يلقون اليه الحبل او الرمح ليرسيهما. فجعلوا يطفرون في الماء الى البر وجلين فغرق نفر منهم ووصل بعضهم الى معسكر الترك فتغلب عليهم الترك وأسروهم. واندفعت سفينة ربرت حتى افضت الى وسط العدو فشمل القنوط اصحابها فطفروا في المياه واختنق بعضهم وادرك الترك من بقي منهم في السفينة

فقتلوهم قاطبة

اما دبرت السمين فعام وسار في الوحل حتى وصل الى قرية غربي النهر فجهده التعب لانه كان سميناً بدناً وحافياً فدخل بيتاً مملوءاً تبناً واختفى. فصادفه الترك وقبضوا عليه ومضوا به الى زنكي فاعتقله وسيره الى حلب مع الاسرى. اما دبرت الثاني ومن معه فانهم وصلوا الى البيرة ولاذوا بقلعتها فاصاب دبرت المذكور سهم في عينه ومات من فوره

وظل زنكي يحاصر البيرة اربعين يوماً حتى وصل اليه رسول من الموصل راكباً ناقة تقطع البرية وتعجج الغبار كالزوبعة واخبره بقتل ناصر الدين. فارتعب زنكي وسير اليها صاحب اربل الذي كان قد استعمله على الرها وعاد هو الى حلب ليلاً في خيامه وعسكره. فافلتت البيرة من دهائه. اما الفرنج فانهم كتبوا الى حسام الدين تيمورطاش صاحب ماردين ليأتي ويتولى البيرة خيفة ان يعود اليهم زنكي ويوقع بهم. وكان تيمورطاش هذا قد ملك عدة حصون ومعاقل في ضواحي مملكته كمعاقل حور عبار وتل بسم وتوما وتل شيح وقلعة المرأة عند دير الزعفران[1]

(١) ع ٣٠٨

٣٥

عودة زنكي الى الرها ووصف كنائسها وارتحاله عنها الى قلعة جعبر وموته مقتولاً

وبعد زين الدين استعمل زنكي على الرهـا عين الدولة صاحب شبكتان وفضل الله بن جعفر رئيس حران الذي كان سبب فتحها . ولم يكف الرهاويون عن سوء عوائدهم مع ان باسيليوس مطرانهم كان ينصح لهم مراراً ويذكرهم بالفوائل السابقة ويحرّض الوجهاء والاعيان والاقليرس خصوصاً على الائتلاف والمحبة. فظلوا على تلك الحال المقيتة حتى استفحل فيهم الغدر والثلب والخطف وسائر المساوى . وكان جرثومة الشرور عبدون رئيس القسوس البالغ ثمانين سنة من العمر والقس برصوما اسمعيل اللئيم الغدار . فكانا يحتقران الاسرار والنواميس وينكران النبوءات والانجيل واخبار القديسين ويبالغان في غدر المسيحيين والتحامل عليهم دون فتور . حتى امسيا عثرة للبسطاء . ومرق زهاء مائة امراة نصرانية من دينهن واتخذن ازواجاً مسلمين

وفي تلك الاثناء غادر زنكي حلب الى الرها وقت الحصاد وترك جنوده على نهر غالب بين كسس وحران ودخل الرهـا

يوم الثلاثا ثالث احد العنصرة فخرج لاستقباله المطران والقسان والشمامسة وجميع النصارى في الصليب والانجيل وخرج المسلمون معهم. فرحب زنكي بالنصارى واخذ الانجيل وقبله وحيا المطران واستفسره عن صحته وقال له ما جئت الا حباً لكم وعطفاً عليكم وسداً لحاجاتكم . ثم قصد الباب الشرقي متوجهاً الى الباب الشمالي حيثما كان الترك محاصرين وكتب فوقه بالعربية تاريخ فتحه الرها واسم السلطان ايضاً

وقوّض الترك كنيسة المعترفين ورموا السور بحجارها . وشادوا قصراً للملك عند كنيسة مار يوحنا الفخمة واقاموا عليها الحراس يحرسونها ليل نهار وكان الفرنج قد دبجوها باجمل زينة وبدّلوا سقفها وجددوا قرميدها. وكانت تشتمل على زهاء مائة نافذة مشبكة بقضبان حديدية يدخلها نور الشمس ولا تدخلها الطير. وكانت تلك الكنيسة تضم اضرحة الاساقفة والآباء الاولين وفي وسطها عند البيم اضرحة اساقفة الفرنج منذ السيد مبارك[1] اول اساقفتهم الى بيوس المذكور آنفاً . وعلى ذلك الضريح حجر واحد من الرخام الاحمر نقر فوقه اسم بيوس

(١) م ٥٩٠ هو الذي اوحي اليه في الحلم عن مدفن ادى وابجر فاكتشفهما في بيعة مار يوحنا المذكورة في المتن

وكان في تلك الكنيسة صندوق فضي ملطوخ بالذهب يحتوي على جثمان ادى الرسول، وايجر الملك ففقد في هذا الفتح وتبدد الرفات فجمع المؤمنون ما جمعوا وضموه الى اعضاء بعض القديسين ووضعوها في جرن في الموفه الشمالي بكنيسة السريان المعروفة بكنيسة ثاوذرس. واستولى الترك على كنيستي مار اسطفانوس ومار توما الرسول بدعوى ان الفرنج كانوا يشغلونهما ويصلون فيهما فجعلوا الاولى مخزناً للذخائر والغلات والثانية اسطبلاً للدواب. وقوّضوا كنيسة المعترفين وكانت مبنية في ظاهر المدينة منذ مائة سنة تقريباً. وهدموا كذلك كنيستي مار ثاوذرس وميخائيل الملاك في جنوبي المدينة ورمموا السور بحجارهما. وجددوا الجامع الذي كان قد اتخذه مطران الفرنج لسكناه

فدخل زنكي كما قلنا من الباب الشمالي وهو باب الساعات وسار الى كنيسة مار يوحنا وانحدر الى النبع ثم قصد كنيسة مار توما واكل خبزاً وعاد فركب الى العين المدوّرة وهي عين ايجر حيث كان بلاط ايجر ملك الرها سابقاً ثم خرب على تراخي العصور وغرس مكانه بستان المطران. وعند الغروب عاد الى كنيسة مار يوحنا حيثما كان عظماء دولته. وعند الصباح استدعى المطران واستطلعه طلع البئر التي خارج المدينة في جهتها الجنوبية

حيث كان المصابون بالجذام يتعافون بمائها. فقص عليه المطران خبرها قال :

هي بئر في ساحة دير مار قزما ودميانس الطبيبين الشهيدين وفي كنيسة الدير هذه رفات مار قزما. وتتناقل الالسنة ان رجلاً وافى من الشرق الى الرها فاختلس المنديل الذي طبع عليه السيد المسيح صورته وارسلها الى ابجر. وخرج به من باب المدينة الجنوبي وبات ليلته في ذلك الدير وكان قد اخفى ذلك المنديل في عبه فأحس كأن ناراً تشتعل فيه فلم يتماسك ان اخرجه والقاه في البئر. فظهر للحال عمود ناري هابط من السماء فوقها وتقاطر الرهبان والاهالي لمشاهدة الاعجوبة فتطلعوا ورأوا المياه تضيء كالشمس فدلوا احدهم فنشل المنديل. وغدت مياه تلك البئر منذ ذاك ينبوع شفاء للمرضى وذاع خبرها في الاصقاع. فكان كل من اصيب كأبجر بالنقرس او الجذام اذا قصدها واغتسل بمائها حاز العافية والشفاء.

ولما وقف زنكي على الخبر وكان مصابا بالنقرس في رجله قال اني اؤمن بان المسيح قادر ان يشفيني ثم ركب وسارع الى تلك البئر وغسل قدميه بمائها وتعافى. فامر ببناء مستشفى للمرضى هناك ووقف له كل ما يحيط به من الحقول ولكنه مات قبل انجاز البناء.

وتعهد زنكي كنائس السريان وأعجب بجمالها وبهائها وأمرهم ان يملئوا فيها النواقيس كعادة الفرنج وامر المطران وشعبه ان يحافظوا على عهودهم . ويوم جمعة الذهب غادرهم الى حران فالرقة وارسل جنوده فغزوا قلعة جعبر ونقلوا الى الرها زهاء ثلاثمائة بيت من اليهود في نسائهم واولادهم

ثم سار زنكي بنفسه الى قلعة جعبر وحصرها . واتفق اذ ذاك ان الصياغ سبكوا طبقا ذهبيا وقدموه له بمثابة هدية فأخذ زنكي ذلك الطبق وجعل يتأمله معجبا به . وهو لكذلك اذا باثنين من خصيانه انقضوا عليه وهو في خيمته فضربه احدهما بالسيف من ورائه ضربة كانت القاضية على حياته في ١٤ ايلول ١١٤٧ وانهزما كلاهما وتبعهما رجل ثالث الى القلعة وقالوا للحراس دلّوا الحبال وانتشلونا فان عندنا بشرى تسركم . فدلوا زنبيلاً وجروهم واحداً فواحداً فاوقفوهم على الامر فضربوا الابواق ونادوا العسكر وقالوا لهم انهضوا فادفنوا اميركم قبلما ينتن . فسارع بعض القواد الى خيمة القتيل وابتزوا ما بها من الاموال والرياش الثمين الفاخر وركنوا الى الفرار . فامسى من كان بالامس ينطق الكلمة فتدوي بها صدور العظماء دوي الرعد في افاق السماء مطرحا في ظل خيمته لا يجد بين جنوده من يأبه له ولا من ينظر اليه . وظلت جثته في الخيمة حتى مرّ

بعض اهالي الرقة فشيعوها ودفنوها

اما محمود بن زنكي فاحتدم سخطا على اولئك الثلاثة وشدّد الحصار على القلعة واقسم لاصحابها انه لن يغادرهم الّم يسلموا اليه الخونة فاجابوا الى طلبه ففتك بهم واحرق جثثهم[1] وخلف زنكي ابنه نور الدين صاحب حلب وما بين النهرين وحمص وحماة ودمشق . فهادن الفرنج وزار جوسلين البطل وأبرم معه عهد الاتفاق . ثم احتل عزاز وبعلبك وفاق اباه في الحيل والدسائس

٣٦

خراب الرها ودمارها

ظل جوسلين يتقلى ويتكوى وهو يعمل الروية في استرجاع الرها معللا النفس بالوصول الى غايته ولا سيما بعد مقتل زنكي وتفرق اصحابه شذر مذر . فارسل في طلب بغدوين صاحب كيسوم ومرعش حليفه ولم يكتب في ذلك الى صاحب انطاكية لانهم كانوا مختلفين . وما مرّ اربعون يوما على قتل زنكي حتى جيّشا جيشهما واستعدّا للزحف الى الرها ليلا فسمع صاحب حلب وارسل الى معتمديه في الرها يقول

(١) ع ٣٠٩

ان الفرنج متأهبون للقتال فاذا جاؤا اليكم اقبلنا نحن ايضا فاحرصوا واحرسوا المدينة واستحلفوا المسيحيين وخذوا منهم ميثاقاً ورهناً . فاجرى اولئك المعتمدون اوامره وامسكوا زهاء خمسين نصرانياً بمثابة رهن واعدوا البنائين والعملة والحدادين وجهزوا الحصون بكل ما يلزم

ويوم الاحد ٢٧ تشرين الاول للسنة الثانية من فتح الرها اقبل الفرنج واختفوا في الوادي حتى المساء . ولما جن الليل تهيأ رجالتهم للهجوم وبلغوا الى غربي المدينة وتنحوا في مكان لا حراس فيه . واخذ بعضهم يتسلقون البرج[1] ودلوا الحبال ووضعوا السلالم واصعدوا اصحابهم . والقوا القبض على الحراس فقتلوا قوماً وطرحوا قوماً الى اسفل خارج السور فارتفعت اصوات النحيب والعويل

ثم اوقع الفرنج وهم على البرج صيحة عظيمة وسبحوا الله على الغلبة وبلغوا البشرى اصحابهم الباقين في الكمين فوثبوا وثبة شعواء وتقاطروا بلفيفهم الى المدينة في الساعة الثالثة ليلاً فانحدر الفرنج من السور وفتحوا لهم الابواب فدخل الفرسان والرجالة من الباب الغربي عند المعين و كفوا عن القتال ولكنهم لسوء الحظ غمضوا عن الحراس وراحوا ينهبون الدور وقصدوا

(١) ع ٣١١ ان الفرنج تسلقوا برجين بحيلة احتالوها مع بعض الارمن

حوانيت النصارى والمسلمين ليلا فكسروا ابوابها ونهبوا ما فيها . اما المسلمون فبادروا الى القلعة وفسح لهم الخفراء مجالا فدخلوها هم واولادهم واثقالهم وذهب بعضهم الى حران ليلا ولم يعارضهم احد في الطريق

وعند الصباح استحضر جوسلين مطران السريان وسأله ان يهيىء له متارس وعرادات نصبها عند الحصن الاسفل وطفق الفرنج يحاربون من فيه حرباً عنيفة دون جدوى . لانه كان شاهقاً ومحصناً . اما المعقل العالي فكان مشحوناً بجنود اشداء وهكذا بات الاهالي على هذه الصورة ستة ايام

ولما تعذر على الفرنج اخذ الحصون ورأوا ان الترك يتقاطرون افواجاً الى المدينة من كل فج استحوذ عليهم القلق والرعب . وكان الاهالي لشديد خوفهم وهلعهم يجتمعون اليهم كل ليلة عند دير البحر . ويوم السبت وصل جاسوس الى جوسلين وقال له حذار حذار فقد شارف الترك حلب ومنبج وكمن بعضهم في الجبل واقبل اغلبهم ليحيطوا بكم غداً ويدخلوا المدينة ويوقعوا بكم وبالاهالي معاً

فارتعش جوسلين وحار في امره ولا سيما لانه شاهد بام عينه جيوشاً كثيفة مجيشة في البرية الجنوبية وفي الجبل . فرأى ان يخرج هو واصحابه خفية دون ان يشعر بهم الترك

الواقفون في القلعة والرابضون في البرية . ولكن كيف كان يسوغ لهم الخروج من باب واحد في خيلهم وفي الوف من الاهالي . فلو سارعوا في الهزيمة لتيسرت لهم النجاة . ولكنهم ظلوا حتى مضى من الليل ثلاث ساعات ففتحوا الباب الشمالي اعني باب الساعات واخذوا ينهزمون . فشمل الخوف الاهالي طراً وارتفعت الصرخات والعولات في المدينة في تلك الليلة الحالكة . وجعل الاطفال والرضعان والنساء والصبيان يولولون نائحين ويبكون منتحبين . الام تنادي ابنها والابن لا يجيبها . تفرّق الفتيان في الشوارع يطلبون امهاتهم ويجولون بين الناس والدواب والخيل فتطأهم بحوافرها وتحطمهم عضواً فعضواً وتقتلهم قتلاً مفجعاً . وكان بعضهم يركضون نحو باب الساعات فيتغلغلون ما بين العسكر والجحاش ويدوس بعضهم بعضاً . وكانت الامتعة التي استلبها الفرنج تتساقط من ظهر الدواب فتقتل الاطفال المزدحمين حولها قتلا اليما حتى امتلأت الازقة من الجثث وغصت بالبهائم والنساء والرضعان . وعلى ذلك المنوال خرجوا من المدينة وتركوا البيوت ممتلئة والابواب مفتوحة والقناديل مضيئة والاسرّة مفروشة . يا للداهية الدهياء ويا لليلة السوداء

خرج الفرنج فيمن امكنه الخروج وتألبوا حول البرج

المعروف بعمود الرهبان تجاه كنيسة المعترفين فاحدق بهم الترك كالهالة وصوبوا نحوهم وابلا من السهام ووضعوا فيهم السيوف وجعلوا يقصبونهم كالغنم وكان يسمع اذ ذاك وقع كوقع فأس تقطع الاشجار في الغابات . وتسرب الهول والجزع الى قلوب الجميع . فاختلط المسلم بالنصراني والعسكر الفرنجي بالاهالي . و كان كلٌّ يحاول الفرار لمزيد رعبه وهلعه

فنادى اذ ذاك الضباط الفرنج مناداة مولمة تتقطع لها القلوب وصاحوا بالرجالة وقالوا رحماكم اخرجوا حباً لربنا وتشددوا وقاتلوا العدو والا هلكنا باجمعنا . ثم نزل الفرسان عن خيلهم واحاطوا بالناس وظلوا هكذا يحمونهم حتى الفجر . ثم ركب بغدوين وجوسلين فتقدم بغدوين ووراءه الاهالي وتتبعهم جوسلين فالرجالة ميمنين وميامرين . وغادروا المدينة صباح الاحد ٣ تشرين الاول عيد مار جرجس الشهيد وساروا متمهلين في طريق سميساط فتتبعهم الوف وربوات من الترك وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وعند ذاك توقف الرجالة الفرنج الشجعان مستبسلين ولم يدعوا للترك مجالا للهجوم على الاهالي . وساروا على هذا النسق وقلوبهم محشوة بالهموم والخطر يتهددهم من كل ناحية . لعمري ان اللسان يقصر عن وصف هيئتهم الكئيبة اذ كانوا يركضون حفاة على الاحجار تخرق الاشواك

ارجلهم وتقطعها تقطيع السكين للحوم فتسيل منها الدماء بغزارة وهم مزدحمون يعثرون ويسقطون ويطأ بعضهم بعضاً وينتهر احدهم الآخر ويختفي بعضهم ببعض خيفة السهام الساقطة عليهم كالمطر . هذا يصاب فيقتل . وهذا ينهض فيركض وذاك يسرع فيدركه العدو ويذبحه كالحمل

وكان الفتيان يركضون بين الاشواك تسيل الدماء من اقدامهم الرخصة . السنتهم مندلعة وافواههم مرة كالعلقم لشديد سغبهم ولغبهم . اسنانهم سوداء كالفحم وهم يحشورون مزدحمون تطأهم الخيل وتهلكهم . وعلى شديد ضنكهم ومشقتهم ساروا في صحراء قحلة كثيرة الاشواك والقتاد . وسارع العدو فالقى فيها النيران فاندلعت واكتنفت الهاربين يميناً وشمالا بحيث لم يعد في وسعهم ان يحيدوا عن الطريق فساروا فوق اللهيب مخاطرين بنفوسهم حتى تكوت ارجلهم واحترقت . وغدوا يتعذبون افدح العذاب حتى الساعة التاسعة

فعجز الترك عن اللحوق بهم واستعدوا للرجوع لانه غلب على ظنهم ان الفرنج يتركون الاهالي في احدى القلاع القريبة ويقاتلونهم . وزد عليه انهم احبوا العودة ليفوزوا بشيء من الاسلاب والغنائم اذ كان اصحابهم قد تخلفوا عنهم للنهب والسلب وشاركهم في ذلك من كان في القلعة ايضاً

٣٧

سياسة الفرنج الحرقاء وهلاك الرهاويين المنهزمين كافة

وعند ذاك افتكر الفرنج فكراً سيئاً افضى بهم الى الدمار والهلاك . ذلك انهم راوا ان يزحفوا الى الترك المتبقين . فبادر جوسلين واصحابه وانقلبوا عليهم من الجهة الشمالية وهم يدقون الابواق . وتتبعهم بغدوين صاحب كيسوم من الجهة الجنوبية وتسرعوا في الهجوم دون نظام . ولما لمحهم الترك حادوا عن الجادة العامة . وتركوهم يجاوزونهم ثم كروا عليهم واحدقوا بهم فشملهم الجزع ولم يعودوا يفتكرون الا في النجاة بنفوسهم فقط فالقوا الرماح والدروع والاسلحة حتى السيوف ولاذوا بالهزيمة . اما الرجالة فسارعوا الى قلعة النسر او قلعة كوكب الخربة واحتصنوا بها في الفين من الشبان والفتيان الرهاويين . فاستولى الترك على النساء والاطفال وسبوهم ونهبوهم . واصيب جوسلين بسهم في فخذه وافات الى سمسياط خائفاً مذعوراً . اما بغدوين الفتى المجيد البهي الطلعة فقتله الترك في تلك المعركة الطاحنة ولم يعرفوا انه هو جوسلين . وكان جوسلين هذا فارساً غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأي وامتاز عن سائر رجال عصره بعلو قامته من كتفه الى ما فوق . وقتل الترك في هذه المعركة عدداً وافراً من القسان والشمامسة

والرهبان[1] . وغزوا من اموال جوسلين وبغدوين ومن اهالي الرها ما لا يقع تحت احصاء وسبوا خلقاً كثيراً

دخل اذاً الترك الى الرها وانصرفوا الى النهب والسلب لا يومين فقط كالمرة السابقة بل سنة كاملة. وطافوا الدور وحفروها وعثروا على مطامير وخزائن كثيرة وعتائق يرتقي عهدها الى القرون القديمة مما لم يكن يعرفه اهل الرها عينهم

فاكتشفوا من جملة ذلك اواني بيعية في كنيسة السريان الكبرى . من صلبان واناجيل وكؤوس وصوان ومباخر . وقنينة ميرون كبيرة مستبدعة . وحق بخور ورؤوس عكاكيز . واغراض شتى فضية ملطوخة بالذهب وسجوف ملكية ثمينة واغطية مذابح اهداها الى تلك الكنيسة في سالف الزمان الملوك والاعيان . الى غير ذلك من التقادم الفاخرة الحديثة العهد مما كان يرسله من قسطنطينية عاما فعاما الوجيهان الفاضلان ايليا وصليبا المؤمن ابن كيماش الى الكنائس والاديار والى الفقراء والبائسين . وكان القس عبدون المذكور آنفا يبتلعها غنيمة باردة . فعلى هذا الاسلوب خربت مدينة الرها وفقدت ذخائرها وكنوزها وبيعت بابخس الاثمان . وتفرق قطانها في

(١) ع ٣١٢ بلغ عدد القتلى في المرتين ثلاثين الفاً . والسبايا ستة عشر الفاً . ونجا الف رجل مع الرجالة الفرنج الذين قصدوا قلعة كوكب . اما بغدوين فغابت جثته ولم يشاهد لها أثر

اطراف البلدان

اما النصارى المتبقون في القلعة فانهم غادروها ليلاً وتشتتوا خمسة خمسة وعشرة عشرة . فقبض الترك على طائفة منهم . وانهزم قوم منهم الى سميساط ومعهم باسيليوس مطران السريان . وقبض الترك على اسقف الارمن وباعوه في حلب . وقتلوا طائفة من القسان واستاسروا فريقاً

اما عبدون رئيس القسان مقلق الكنيسة السابق ذكره فان الترك قبضوا عليه ليلة الفتح وجرّوه من الخندق وهو ينادي ويقول : من اخرجني اعطيته مائة دينار . واخذوا كيس الذهب الذي كان حامله وذبحوه واكلت الكلاب جثته وانطلقت نفسه الى العذاب الدائم . وراح من افلت من السبي يطوف في الفلوات مفتشاً عن آله واصحابه

وامتاز بالرحمة على الرهاويين يومئذٍ السريان القاطنون في ماردين وشبكتان وسويرك ولاسيما السيد يوحنا مطران ماردين +١١٦٦ الرهاوي النحلة من يعجز اللسان عن وصف عوارفه ومبراته . سجل الله اسمه في اورشليم السماوية . اما النصارى القاطنون بعيداً عن الفرات ولاسيما الاساقفة والكهنة والرهبان فانهم لم يشفقوا على الرهاويين بتة بل جافوهم ونبذوهم وغمضوا عن اسعافهم

٣٨

زحفة ملك الروم وموته
وزحفة ملوك الفرنج

وفي نيسان ١١٤٣ خرج ملك الروم الى طرسوس مستصحباً ولي عهده عمنوئيل واجتمع بملوك الفرنج وعاتبهم وعول على مصاهرتهم طمعاً في ان يوافقوه في مشربه ورأيه . وانطلق ذات يوم الى البرية يتصيد فادرك ظبياً[1] ووتر القوس ليصطاده فانقلبت عليه وخرقت ذراعه فانتفخ وتورم ومات فحنطه ارباب دولته ونقلوه الى قسطنطينية ونادوا بابنه عمنوئيل ملكاً عام ١١٤٤

ولما بلغ الفرنج ما حدث لاصحابهم في الرها من الغوائل والاهوال عظم عليهم الامر فتدفقوا كالسيول الجارفة في ثلاثمائة وخمسة وتسعين الفاً[2] وتوجهوا في السنة ١١٤٧ تواً الى قسطنطينية وحصروها وكان على رأسهم ملك الالمان (ملك النمسا كونراد)

---

(١) ع ٣٠٥ خنزيراً برياً

(٢) روى الرهاوي هذه الحوادث مرتين اولا في ف ٤٠٧ ص ٣٠٦ وثانياً في ف ٤٣٣ ص ٣٢٨ و٣٢٩ وقال في المرة الاولى ان الفرنج حشدوا مائتين وخمسة وتسعين الفا وفي الرواية الثانية ٣٩٥ الفاً

في تسعين الف فارس . وملك الفرنسيس (لويس السابع) اوهو انفوش او فونش في رجالة فوق الاحصاء . فاوفد اليهم عمنوئيل ذهباً جزيلاً واقسم لهم بالصليب والاسرار المقدسة انه في هذه المرة يهديهم الطريق السوي ولكنه كمألوف عادة اسلافه غدر بهم واوفد معهم بعض رجاله فشردوهم في فلوات قحلة وجبال صعبة واودية لا ماء فيها وظلوا هكذا عشرة ايام[1] حتى شملهم الضيق والعوز وجهدهم الجوع والعطش . افضى بهم اللؤم الى ان يخلطوا القمح بالكلس ويطعمونهم اياه فكانوا اذا اكلوه سقطوا مائتين وتكوموا كوماً كوماً[2]

ولم يكتف الملك عمنوئيل بذلك بل كتب الى مسعود ملك الترك صاحب قبدوقيا يستعجله ليلاقيهم ويتلفهم فسارع من فوره وانقض عليهم في رجاله وهم مطوحون في الجبال والفيافي فوضعوا السيف فيهم وحصدوهم واستأسروا عدداً صالحاً منهم وغنموا اموالهم الذهبية والفضية حتى امتلأت بلاد الترك من الغنائم وبيعت وزنة الفضة في ملطية بسعر الرصاص . ومات من الفرنج الوف وربوات جوعاً وعطشاً . اما الملك فافلت في شرذمة من الخيالة وركب البحر الى ايطاليا فانطاكية على اخر رمق

---

(١) ع خمسة ايام ٣١٢ (٢) ع ٣١٢

اما كونراد ملك النمسا فافلت من تلك الغائلة مع ثلاثة امراء وسار الى اورشليم وزار ضريح الفادي واستراح قليلاً. واتفق اذ ذاك ان الفرنج عقدوا مؤتمراً في عكا مؤلفاً من لويس السابع وكونراد ملك النمسا وبغدوين الثالث ملك القدس وبطريرك اورشليم وطائفة من الامراء والوجهاء والرهبان وقرروا ان يحاصروا بادىء بدء مدينة دمشق. فساروا اليها في عشرة الاف فارس وستين الف راجل حتى شارفوا الانهار والبساتين وشدوا الحصار على المدينة وكان فيها من العسكر التركي ما عدا الفرسان زهاء مائة وثلاثين الف راجل فضيقوا على السكان وكادوا يستحوذون على دمشق. غير ان المعين صاحبها ارسل يستجير ببغدوين[1] ملك القدس ويعده مواعيد عرقوبية ويطمعه في المال. فرأى بغدوين ان يصرف ملك النمسا عن فكرته طمعاً او حسداً كمألوف عادة النصارى الموصوفين بالعداء والاختلاف. ذلك لانه تخوف من ان كونراد اذا ما احتل دمشق يعود فيحتل فلسطين ويخرجه عنها. وبناء عليه اوفد الى المعين في الصلح سراً

وتم الاتفاق بينهما على ان يدفع له الدمشقيون مائة[2] الف

---

(١) روى الرهاوي هذا الحادث مرتين ص ٣٠٧ و٣٢٩

(٢) ع ٣١٢ مائتي الف دينار ذهباً

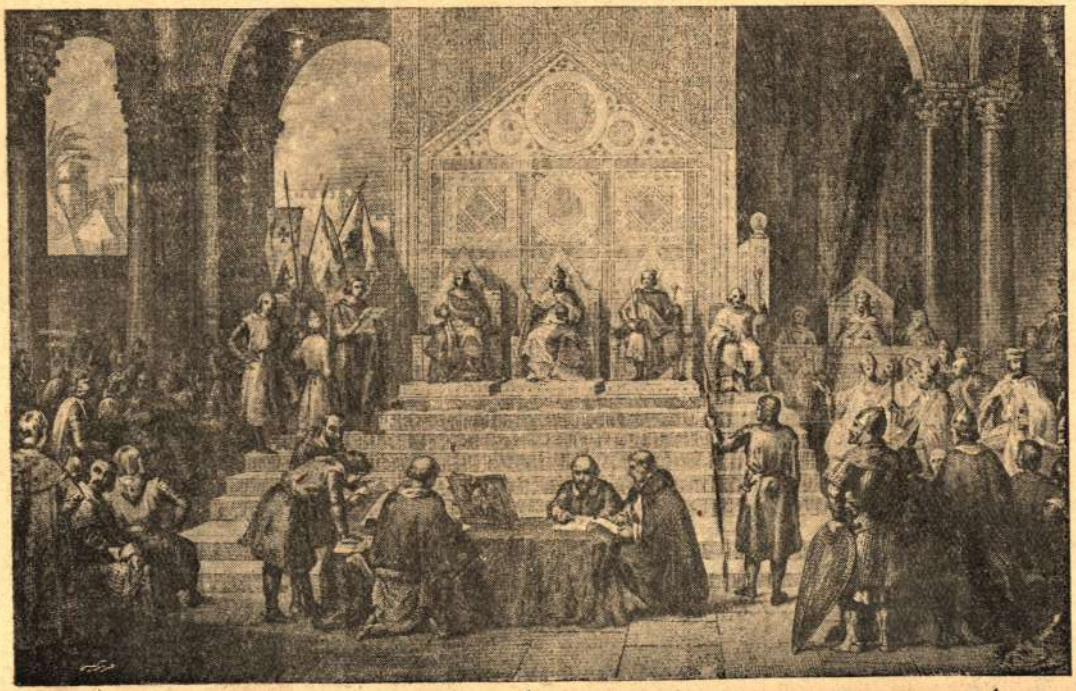

لويس السابع و كونراد وبغدوين والبطريرك والرهبان والامراء في مؤتمر عكا عام ١١٤٨

دينار ذهباً . فقصد من ثم بغدوين ملك النمسا وقال له الاجدر ان ننتقل الى الناحية الثانية فوثق الملك بقوله فطوحه بغدوين مع جنوده وعساكره في باديـة قفراء لم يستطع الى مواصلة الحصار فيها سبيلاً فعاد الى عكا حاقداً وابحر الى بلاده

بيد ان بغدوين مـا قبض الدية من صاحب دمشق حتى الفاها باجمعها مزيفة لأن الدمشقيين احتالوا فسبكوها من نحاس ودفعوها اليه . وجاراهم في ذلك صاحب طبريـة فارسل الى بغدوين خمسين الفـاً من الذهب المزيف . واستتلى ابن العبري (ص ٣١٣) قال : ان خبر هذا الذهب طالعته في خمسة كتب مختلفة من كتب العرب ولم ينقله الي احد وقد ذكره ميخائيل البطريرك ايضاً في تاريخه

ولما بلغ ملك صقلية غدرُ الروم بالفرنج سخط عليهم وسار الى ثيبائس وفتحها ووضع السيف في من بها . وافتعل كذلك في ادرنة وفيلوبوليس وقصد قسطنطينية وافسد ضواحيها

وروى الرهاوي ان الملك انفوش ابحر في الف فارس من فرسانه الى عكا وان صاحب طرابلس خرج للقائه في امرأتـه واولاده فسلم عليه وعرفه انه من انسبائه لكنه تخوف ان يزاحمه في ولايته فعاد به الى طرابلس واولم له وليمة دس له فيها سماً واماته[1]

(١) ف ٤٠٨ ص ٣٠٦ وف ٤٣٣ ص ٣٢٩

٣٩

الترك في ضواحي ملطية

وقتل فرينس صاحب انطاكية

ولما سمع ابن غازي أمير ملطية بقتل جوسلين صاحب كيسوم الذي كان استولى على اربعة اديار زابار الارمنية قصد نحوها واحتلها واحتل ما حولها من القرى العامرة وسبى سكانها وكانوا سبعة الاف واربعمائة نسمة وابتز اموالها الطائلة واحرقها واتلف ما احتوت عليه من الخمر والزبيب والتين والجوز والطحين والحبوب واحرق معها مخطوطات شتى وعلى كثرة تلك الذخائر والمؤن لم يكن الرهبان يرفقون بالفقير ويغيثونه بتة

وسار الترك الى حصن اجنجتل فوق آدنة وقتلوا السكان وسبوا النساء والاطفال واضرموا فيه النيران ودكوه. وملكوا قلعة شيرزاخ بتل باشر وقتلوا من فيها. وقصدوا تل ارسانيوس قرب نهر ارسانيوس الذي يصب في الفرات وقتلوا زهاء خمسة الاف من النصارى السريان وغنموا عدة غنائم وانقلبوا عائدين

اما نور الدين بن زنكي فانه قصد في السنة ١١٤٨ افاميا واخذها واستحل قلاعاً اخرى من الفرنج[1] فادركه كمين ملك انطاكية وقتل كثيرين من عسكره وهزمه مع شرذمة الى حلب

وبعد سنة سار نور الدين عينه الى حارم وغزا بلدها واخرب الابنية المجاورة لقلعتها فادركه فرينس صاحب انطاكية وكان الترك يهابونه ويخافون سطوته والتحم القتال بين الفريقين فقتل فرينس وقتل معه صاحب كيسوم فتولاها جوسلين وتولى معها بيت حصنا

وعلى اثر قتل فرينس وقع خلاف بين الانطاكيين في من يولون عليها وارسلوا الى ملك اورشليم يستقدمونه فاستعجل اليهم. ووفقهم ونصب البطريرك مدبراً لهم ريثما يكبر بوهيموند بن فرينس

واقبل يومئذ ابن مسعود سلطان قونية الى مرعش واحتلها من الفرنج وخيّر الفرسان والاسقف والقسان الفرنج في الرحيل الى انطاكية وفيما هم سائرون ارسل من قتلهم برمتهم . وفقدت اذ ذاك امتعة كنيسة السريان في مرعش لسبب اختلاف القسان على مطرانهم ومن جملة تلك الامتعة عدة كؤوس ومباخر

(١) ع ٣١٤

واقمشة وحلل كهنوتية وقارورة ميرون جميلة

اما قرا ارسلان صاحب حصن زياد او خربوط فسار الى بابولا وهي للفرنج واستحوذ عليها

٤٠

جوسلين في دير برصوما بملطية

وفي السنة ١١٤٨ سار جوسلين صاحب الرها الى نواحي ملطية وقلوذيا فوصل الى الجبل الابيض وشارف دير برصوما وهو من اعظم اديار السريان اليعاقبة وكان قد اتخذه بعض بطاركتهم مركزاً لهم . ففي يوم السبت ١٨ حزيران اقبل رسول يقول لرئيس الدير ان جوسلين قادم اليكم فابتهج الرهبان لظنهم انه مواف ليزورهم ويصلي عندهم فخرجوا لاستقباله حاملين الصلبان والاناجيل ودخلوا به الى المصلى المشرف على الدير . فانحدر جوسلين من جواده ودخل الكنيسة وانتشر جنوده مدججين بالاسلحة داخل الدير وخارجاً لا يعارضهم احد في ذلك ظانين انهم يقدمون للدير بعض نذور وهدايا . فزينوا الكنيسة واخرجوا ذخيرة صاحب الدير ووضعوها فوق صمدة ليتبارك بها الفرنج . فصلى جوسلين بخادعاً ووضع ورقة على المذبح وخرج فجلس في الدهليز واجتمع

بالرهبان وقال لهم ان ابن عمي قد اقبل من رومية وهو يريد ان يتعهد البرج الذي في قمة الدير فأمر له الرئيس بذلك . ثم اشار جوسلين الى عسكره فاوصدوا ابواب البرج وقال للرهبان بغيتي ان يبقى هنا حراس يدخلون فيما بعد الى ملطية ويقاتلون صاحبها ويثيرون منه كما افتعل باديار زابار . وقد بلغني ان عندكم اموالا اخذتموها من الترك واخفيتموها فهلموا بها الي . فاحضر الرهبان كل ما عندهم من غال ورخيص . فامر جوسلين ان يُحشروا في المطبخ ثم اوقد قسيساً فرنجياً الى الكنيسة فاخرج الاواني البيعية باسرها اعني الكؤوس والاطباق والمراوح والصلبان والاناجيل بينها صليب ذهبي ثمين واستحوذ عليها . ثم جعل العسكر يجولون في قلالي الرهبان واحدة فواحدة واحتووا على جميع ما فيها فعارضه الرهبان الفرنج الذين كانوا معه فلم يكترث لهم فتركوه وانصرفوا ولم ياكلوا ولم يشربوا شيئاً

وبعد هذا جمع تلك الاواني والامتعة وضم اليها امتعة اديار مار انجاي وسرجسيه ومماديق وحرصفنا التي كانت نقلت الى الدير[1] وحملها على اثني عشر بغلاً من بغال الدير وطالبهم بعشرة آلاف دينار[2] فقالوا له قد اخذت كل شيء ولم تترك

(١) م ٦٤٢ (٢) م ٦٤٢ اثني عشر الف دينار

انا سبداً ولا لبداً فاقام في الدير رئيسين ووضع رجالا في الحصن ليمنعوا وصول المؤنة اليه واخذ ذخيرة برصوما وتوجه الى كرم الفيل على شاطئ النهر . ثم عاد صباح الغد وامر بتفتيش الغرف تكراراً وحمل على الجمال والبغال سائر الامتعة حتى الطواجن والقدور النحاسية . وفي ٢٠ حزيران استاق الرهبان وعددهم زهاء خمسين وتوجه بهم الى كاخي وحصنمنصور وتل باشر . وترك في الدير عشرين ارمنياً يحرسونه . وبعد هذا ارسل الى الامير دولة صاحب ملطية يقول انك قد اغتصبت اديار زابار التي تخصني ودمرتها وانا اخذت دير برصوما لانه قلعة حريزة ممتازة عن جميع القلاع امتياز النسر عن جميع الطيور

ولما وصل الرهبان الى تل باشر توسل الاهالي الى جوسلين ليعيدهم الى ديرهم فتمنع ثم ابرم ان يؤدوا له عشرة آلاف دينار فرهنوا عنده خمسة رهبان شيوخ وبقيت ذخيرة برصوما ايضاً لديه واطلق سائر الرهبان فعادوا الى ديرهم مع ايونيس ايليا مطران كيسوم في آب ١١٤٨ . وكان الجنود في غيابهم قد حفروا القلالي ونبشوها ونبشوا المذابح والمعابد وتركوها خراباً يبابا . فرممها الرهبان وسموا لعازر الشيخ رئيساً عليهم . وخرجوا الى القرى والبلاد فجمعوا خمسة آلاف دينار حملوها الى جوسلين في اول كانون من تلك السنة فرد لهم الذخيرة

شارطاً ان يؤدوا له الخمسة آلاف المتبقية

وبالغ ميخائيل الكبير فاورد في الصفحة ٦٤٥ و٦٤٦ اخباراً شتى عن برصوما لا دخل لها في موضوعنا . ولعل جوسلين قصد ذلك الدير لاختلاف الرهبان عليه او لموافقتهم الترك والله اعلم

٤١

انكسار نور الدين فالقبض على جوسلين وسجنه وموته

لم يكف نور الدين عن مقاتلة الفرنج بل سار في السنة ١١٤٩ يريد قلعة بغرا قرب انطاكية مغتنماً فرصة غيبوبة فرينس ملكها في جبلة . ولما اطلع صاحب انطاكية على ذلك كرّ عليه وادركه وقتل نحو عشرة الاف من عسكره . فاجفل عنه نور الدين في مانتي فارس وانقلب الى حلب . فاستحوذ الفرنج على خيم الترك واحتووا على ما فيها من الذهب والفضة والعبيد والاماء والنساء القينات وغنموا الطبول والابواق وآلات الطرب وعادوا الى انطاكية مبتهجين وخرج الاهلون للقائهم مسرورين

وبعد ثلاثة اشهر حشد نور الدين عينه عسكراً كثيفاً

وقصد قلعة انّب وحصرها فخرج اليه بيدبين (فرينس) في جيشه فخاف نور الدين وغادر القلعة الى الجبل فوصل الفرنج وخيموا في الصحراء بين انّب وتلّا . ولما استيقن نور الدين ان الفرنج قليلون أمر اصحابه فدقوا الابواق وزحفوا اليهم ودارت رحى الحرب بين الفريقين . فانهزم غودفروا صاحب مرعش وعلي ابن وافا العربي وعدد كثير من الفرنج . وغزا نور الدين بلد دقسا واستولى على حارم وعامّ وارتح وعلى جميع ضواحي حارم . وقتل الترك في تلك المعركة فرينس بدوي الاسد المغوار صاحب انطاكية ورنجند صاحب كيسوم شبل الليث[1] وأسروا خلقاً كثيراً . واحتووا على عدة عديدة من العبيد والخيل والاموال وارسلوا راس فرينس الى بغداد

وكان جوسلين صاحب الرها متغيباً يومئذ في عزاز فلما بلغه مقتل صاحب انطاكية سار اليها في قليلين ليمتلكها . وعند وصوله الى الشيح قرب قورس خرج اليه الترك من بين الاشجار بغتة والقوا القبض عليه . فقال لهم امضوا بي الى عزاز فاعطيكم ما تريدون . غير انهم استاقوه الى قرية شيح الدير وهم يجهلون من هو فعالج المسيحيون ان يبتاعوه بمبلغ ستين ديناراً . بيد ان صباغاً يهودياً مر من هناك فعرفه وقال

(١) ٦٤٦

للترك انـه هو جوسلين فاستاقوه الى حلب واشتراه منهم نور الدين بالف دينار وفقأ عينيه واوثقه بسلاسل ضخمة والقاه في السجن وظل مسجوناً تسع سنوات . واراده الترك على الاسلام مراراً وكانوا يلقونه تارةً بالعطا وطوراً يتهددونه بالعذاب والقتل لكنه ثبت راسخاً في ايمانه . مقراً بانه اصابه مـا اصابه لسبب آثامه . واوفد الى رؤساء الكنائس والاديار ليصلوا عليه ليقبل الرب توبته ويغفر له . ولما دنا اجـله وهو في السجن استاذن الترك وسار الى الكنيسة واعترف عند الاسقف وتزود بالاسرار المقدسة وعاد الى سجنه وفيه توفي[1] . فشيع النصارى جثمانـه ودفنوه في الكنيسة بحضور جماهـير غفيرة من نصـارى ومسلمين[2]

واستفرص الترك فرصة حبس جوسلين فساروا الى جرجر وكاختي وحصنمنصور وتكنكار وملكوها . امـا الفرنج المتبقون في تل باشر فنصبوا خليفة لجوسلين ابنه الفتى وكان اسمه جوسلين ايضاً باسم ابيه

---

(١) قال ابن العبري (ص ٣٢٥) ان جوسلين ظل ماسوراً حتى السنـة ١١٥٢ وتاب توبة نصوحاً وناوله الاسرار اغناطيوس مطران السريان بحلب وشهد انه تاب توبة كاملة . غير ان ميخائيل الكبير والرهاوي لم يذكرا انه اعترف عند المطران المشار اليه

(٢) م ٦٤٩ وع ٣١٦

وفي السنة ١١٥٠ اوفد اهالي كيسوم المطران ايونيس الى مسعود سلطان قونية يطلبون الامان للفرنج واطلاق الحرية لهم لينتقلوا الى عين تاف (عينتاب) فاجاب السلطان الى طلبهم واستولى على كيسوم وكان صاحبها رنجد الفرنجي وامتلك ايضاً بيت حسنا ورعبان وفرزمان ومرعش

وسار في تلك الاثناء ملك اورشليم الى تل باشر فنقل امرأة جوسلين واولاده وجميع الفرنج الى اورشليم وولى عليها قوماً من اتباع الروم فملكوها وملكوا معها عينتاب وعزاز[1]

وفي السنة ١١٥٧ دشن السريان كنيسة جديدة في انطاكية وتم ذلك في عهد ريكرد صاحب انطاكية وبغدوين ملك القدس وهنري بطريرك الفرنج واثناسيوس الثامن بطريرك السريان (١١٣٩–١١٦٦) بحضور ايزابل الملكة وعدة من الاقليرس والرهبان الفرنج والارمن والسريان

---

(١) روى ميخائيل (ص ٦٤٩) ان السلطان مسعوداً بعد ما ملك كيسوم سار الى تل باشر وولى عليها ابن اخي ملك الروم وزوجه ابنته وجعل تل باشر بمثابة جهاز لها

٤٢

زحفات الفرنج واحتلالهم عسقلان

وفي السنة ١١٥٢ [1] خرج الفرنج عن رومية ساخطين على ملك الروم الخداع الغدار فوصلوا الى عاصمته واحرقوا سوادها واستأنفوا الرحيل الى فلسطين فاتلفوا عدة قرى بجوار عسقلان وفتكوا بجم غفير من الترك والمسلمين . ثم ظعنوا الى مصر واستحوذوا على جملة من المدن والضياع في غربيها واتلفوها وعادوا الى اوطانهم

وفي السنة ١١٥٣ او ١١٥٤ حصل خلاف بين بغدوين ملك القدس وبين امه فخرجت عنه الى برج داود واحتصنت به . فتوسط ارباب الفرنج بينهما حتى تم الاتفاق على ان تكون مدينة القدس للام وسائر المدن لابنها . ثم جيش بغدوين الجيوش وزحف الى عسقلان وهي للمسلمين المصريين ونازلها وابتنى تجاهها برجاً خشبياً عظيماً فاق علوه علو السور واقام عليه العرّادات وأمر ابطاله ان يقذفوا اهالي البلد بوابل من السهام والحجار فكان كل من خرج عن بيته اصابته الضربة فخر قتيلاً. وواصل الفرنج اطلاق الحجار حتى ثغروا السور فدخل البلد

(١) ع ٣١٨

اربعمائة من الرهبان الفرير فوثب بهم الترك وعددهم يربو على العشرين الفاً وفتكوا بهم قاطبةً . فشق ذلك على الملك وكاد يترك الحصار ويعود . غير ان احد الجنود البواسل استمهله ولبث يحرس ذلك الثغر طيلة الليل محرّجاً على المسلمين ترميه . ولما اصبح الصباح حمل بغدوين راية الصليب والقاها ضمن المدينة ونادى في الفرنج يقول : من لا يتبع الصليب لا يعد مسيحياً . فحملوا باجمعهم حملة صادقة ودخلوا المدينة وقتلوا زهاء خمسة عشر الفاً وانهزم البقية في السفن الى مصر (١)

وروى مؤرخنا الرهاوي ان اهالي عسقلان ضايقهم الجوع والجزع وهم يعللون نفوسهم بوصول نجدة من مصر . غير انهم لما استبطأوها خرج كبارهم قاصدين بغدوين الملك والبطريرك وسلموهما المدينة . فاطلق لهم الفرنج الحرية في السكنى او الارتحال . فمن لبث في عسقلان بقي تحت حكمهم ومن ارتحل عنها الى مصر ارتحل في اهله واملاكه . واشتهر بين الفرنج في تلك المعركة قائد يقال له ريمند أبلى في الحرب بلاء حسناً وسأل بغدوين ان يزوجه بامرأة فرينس صاحب انطاكية الذي قتله الترك فاجاب الى طلبه واستعمله على انطاكية . وظلت عسقلان في حوزة الفرنج خمساً وثلاثين سنة

وفي السنة ١١٥٥ سار عباس وزير مصر في ثلاثة آلاف

(١) ع ٣١٨

ارمني من عساكره يريد نور الدين فوصلوا الى عسقلان فخرج عليهم الفرنج . وما لمح الأرمن رايات الصليب في رؤوس الرماح حتى القوا سلاحهم واتفقوا معهم وقتلوا يومئذ من المسلمين نحو خمسة آلاف وقبضوا على عباس وباعوه من المصريين وقتلوه[1]

٤٣

طورس الارمني ملك قليقيا . وفرينس صاحب انطاكية والزلازل في بلاد سوريا وغزو شيزر وامتلاك قلعة حارم ومنوئيل ملك الروم

واشتهر في السنة ١١٤٨ طورس الارمني صاحب قليقيا وخاف الناس بطشه فشخص الى رعبان يريد سيمون الفرنجي ليتزوج بابنته . واتفق ان الترك يومئذ زحفوا الى رعبان فلاقاهم طورس واثخن فيهم وقتل منهم زهاء ثلاثة الاف وفك الاسرى . ثم عاد الى بلده وملك عين زربة وبلاد قليقيا باسرها[2]

وفي السنة ١١٥٦ تحرش بطورس فرينس صاحب انطاكية والح عليه ان يرد اليه جميع ما اخذه الارمن من قلاع الروم

(١) ع ٣٢٢ (٢) م ٦٤١

طودس الارمني ملك قليقيا

ليولي عليها الاخوة الفزير الذين كانوا يجاهدون في سبيل النصارى . وكانت تلك القلاع فيما سلف في حوزة الفرنج . فابى طورس الاجابة الى طلبه فسار اليه فرينس وكسره ودحره. فندم طورس واختضع لصاحب انطاكية اما تلك القلاع فولى عليها الفرير[1]

وفي السنة ١١٥٧ سار فرينس عينه الى قبرس وهي للروم فغزاها واحتوى على عدة من الرجال والغنم والبقر والخيل والامتعة واستاق الجميع يريد البحر. فسار اليه الاهالي وتعهدوا له بمبلغ يؤدونه عن الغنائم فاجاب الى طلبهم واستاق الاساقفة ورؤساء الاديار والاعيان الى انطاكية بمثابة وديعة ريثما يؤدون له الدية[2]

وفي هذه السنة حدثت زلازل شديدة اخربت بلاداً شتى في سوريا كحماة وسلامية وحمص وحلب وكفرطاب وافاميا وحصن الاكراد وعرقا واغلب بلد انطاكية وطرابلس. واتلفت الزلزلة في شيزر اربعين الف نسمة وانهار نصف جبلها الذي تعلوه قلعتها المشهورة

واورد الرهاوي انه في السنة ١١٥٨ زحف ملك شهير من سلالة ملوك الفرنج يقال له غندفلند في جيوش ضخمة ووصل

(١) ع ٣٢٣ (٢) ع ٣٢٥

الى القدس واجتمع بالفرنج الذين على ساحل البحر وبملك اورشليم وصاحب طرابلس وطورس الارمني صاحب قليقيا وساروا معاً الى قلعة شيزر وغزوا البلد واستأسروا خمسة آلاف من النساء والاطفال واحتووا على ذهب كثير . ثم قصدوا قلعة حارم واخذوها صلحاً فغادرها المسلمون الى حلب

وفي السنة ١١٥٩ خرج منوئيل ملك الروم الى انطاكية وخيم عند نهر عفرين قاصداً الزحف الى حلب . فحشد صاحبها نور الدين عساكر الموصل وما بين النهرين وآمد وماردين وميافرقين وسار لملاقاته . وعند ذاك بلغ منوئيل الخبر من العاصمة ان اندرونيقس الوجيه اختلف عليه . فرأى من ثم ان يهادن نور الدين على ان يطلق الاسرى النصارى المسجونين في حلب . وكان في جملتهم انفوش؟ المذكور آنفاً الذي قلنا ان صاحب طراباس اماته بالسم

غير ان ابن العبري روى[1] ان منوئيل خرج الى قليقيا فارتحل عنها صاحبها طورس الارمني . فاستولى الملك على طرسوس وعين زربة وما جاورهما من المدن وظل هناك طيلة الشتاء . وانطلق الى زيارته ملك القدس وملك انطاكية والبطريرك وعقدوا معه الصلح ووفقوا بينه وبين طورس فاقامه

(١) ٣٢٦

الملك قائداً عاماً على جميع بلاده الواقعة في سواحل البحر . ثم اتفق على الزحف مع الفرنج الى حلب فدمشق فسائر بلاد سوريا ولكنه اضطر الى العودة الى عاصمته لما بلغه عن اختلاف اندرنيقس عليه[1]

٤٤

زحفة ريمند وجوسلين الى حلب وأسرهما وزحفة أموري الى مصر وحروب نورس الارمني ونور الدين

وفي تلك السنة حدثت زلزلة اخربت جبلة واختنق فيها زهاء الفي نسمة . وسار ريمند صاحب انطاكية وجوسلين بن جوسلين صاحب حارم الى ضواحي حلب للغزو وما عتم ان عاد ريمند الى حاضرته وظل جوسلين في قرية يأكل ويشرب فبغته الترك وكبلوه واستاقوه الى حلب وسجنوه مكان ابيه . فعاد ريمند في القابل الى بلاد حلب فادركه الترك عند النهر الاسود والتحم القتال بين الفريقين فقبض الترك على ريمند واستاقوه الى حلب واوثقوه وحبسوه . فتولى انطاكية ابن بيدبين الاول ورحل امه الى اليودسا

(١) اثبتنا الروايتين في المتن تاركين البت في صحتهما

وفي السنة ١١٦١ سار سير اموري شفيق ملك اورشليم الى بلد مصر واستحل اموالا طائلة وافضى الامر بالمصريين الى ان يودوا للفرنج كل سنة مائة وستين الف دينار ذهباً

وظهر في تلك السنة لص فرنجي نشم يغزو معسكرهم فشعروا به وحاولوا القبض عليه لكنه فرّ الى نور الدين واستصحب بعض الترك الى انطاكية ليغزوا ويتلفوا فادركه الفرنج وقبضوا عليه واحرقوه (١)

وفي السنة ١١٦٢ خرج طورس الارمني عن طاعة الروم وقتل منهم نيفاً وعشرة آلاف فسار اليه ملك اورشليم واصلح بين الفريقين . وفي السنة ١١٦٣ اختلفت امرأة فرينس صاحب انطاكية على ابنها الذي خلف اباه في المملكة وانكرت عليه التفرد بالمملكة دونها فنصح لها الاعيان فلم تنتصح بل كتبت الى ملك الروم صهرها تستقدمه لتسلمه انطاكية . فأحس البطريرك والاعيان بموآمرتها وارسلوا في طلب طورس فسارع الى انطاكية وطردها وايد ابنها في المملكة

وفي تلك السنة عينها قصد نور الدين حصن الاكراد في عساكره يريد غزو بلاد طرابلس فحمل الفرنج رايات الصليب وزحفوا الى الترك وهم في خيامهم مطمئنين فارتعبوا وهلعوا

(١) ع ٣٢٧

جداً وخرج نور الدين مذعوراً من خيمته لابساً قميص نومه وركب حصانه وكان الحصان مقيداً فسارع احد الاكراد وكسّر القيد فانهزم نور الدين وافلت . اما الفرنج فادركوا ذلك الكردي وقتلوا قوماً واسروا غيرهم واقتادوهم الى طرابلس

٤٥

حصار قلعة حارم وانكسار الفرنج

وفي السنة ١١٦٤ جيّش نور الدين جيشه واجتمع اليه العساكر من الموصل واربيل وسنجار وحصن كيفا وسار اليه حسام الدين تيمورطاش صاحب ماردين واصحاب زغما والبيرة ومنبج والرها حتى بلغوا ستين الف فارس ومائة الف راجل وسار بهم يريد قلعة حارم وشدد عليها الحصار . وكان صاحبها يومئذ ارنجد الفرنجي البطل الجبار فقاتل الترك قتالا شديداً دون ملل حتى وصل اليه خمسة من امراء الفرنج وهم فرينس صاحب انطاكية . وصاحب طرابلس . وطورس صاحب قليقيا والدوق صاحب طرسوس . والمستر رئيس الفرير في ثلاثة عشر الف فارس وراجل وقصدوا حارم فغادرها نور الدين الى قرية عم فوصل الفرنج وخيموا حيث كان الترك . فقال لهم طورس حسبنا هذه الغلبة وقد كشفنا العدو عن القلعة فهلموا نبدّل

العسكر فنخرج الضعيف وندخل القوي ونهيئ الزاد اللازم ونعود الى انطاكية ننتظر وصول ملك اورشليم من القدس

بيد ان صاحب طرابلس ابى الا مناوشة الترك القتال واثقاً بقوته مدعياً انهم ليسوا الا كلاباً . فزحف في رجاله الى عم وما لمحهم الترك حتى اخذوا يطبلون ويبوقون وانحدروا اليهم والتفوا بهم في آب ١١٦٤ واستلحموهم ففر صاحب طرابلس وطورس الى انطاكية . وقبض الترك على الدوق صاحب طرسوس وعلى فرينس وفتكوا بالرجالة اجمع واعتقلوا عدداً غفيراً من الفرسان . وساروا بهم الى حلب وقتلوا جميع الرهبان الفرير . ثم انقلبوا الى قلعة حارم واستلموها صلحاً وساروا الى دقسا وسبوها وقصدوا دير سمعان وفيه عدة من الرهبان الروم فابتزوا ما به من الذهب والفضة والامتعة والكتب واستولوا على الكؤوس والاطباق والصلبان والمباخر والصور الذهبية والفضية والسجوف الثمينة وجميع الاموال واستاسروا الرهبان قاطبة واستاقوهم الى حلب . واحصي عدد القتلى الفرنج في حارم فبلغ نيفاً وعشرة آلاف اما قتلى الترك فكان اكثر بكثير . ثم ارتحل الترك الى بانياس واخذوها صلحا . فشق ذلك على بطريرك الفرنج في انطاكية واقام مناحة عظيمة وكسر الاجراس وابطل الصلوات

٤٦

الفرنج ومصر وطورس الارمني

وفي السنة ١١٦٥ خرج شاور العربي صاحب القوس من مصر الى دمشق واستغاث بنور الدين فسير معه القائد اسد الدين في عشرة الاف تركي فادوا مبلغاً من الدراهم في هدايا الى فيلو ابن دقيق والي الفرنج صاحب قلاع كرك وشوبك ليفتح لهم الطريق ثم ساروا الى بلبيس يريدون شير كوه وحصروه ثلاثة اشهر . واشتغل وطيس الحرب بين المصريين والدمشقيين فانهزم المصريون وتتبعهم الدمشقيون الى مصر وحصروها واخذوها وقتلوا ضرغام واحتووا على اموال طائلة . ولما بلغ ملك اورشليم خبر انكسار الفرنج في حارم أذن لشير كوه ان يخرج الى بلده ويدع مصر لاصحابها فعاد الى دمشق

وفي تلك السنة قبض طورس الارمني على اربعمائة تركي واوفد الى نور الدين يتهدده ويقول أطلق من عندك من رؤساء النصارى والا احرقت الاربعمائة تركي . فاضطر ان يبيعهم ويسرحهم فباع بيموند بن فرينس بمائة الف دينار واطلقه فقصد ملك الروم واستحصل مالاً جزيلاً وعاد الى انطاكية مستصحباً اثناسيوس بطريرك الروم . فارتاب البطريرك الانطاكي في امره

وارتحل الى قلعة القصير وارسل فحرم الفرنج في انطاكية

وفي السنة ١١٦٧ ارسل شاور وزير مصر في استدعاء الفرنج اليه فاتفق المصريون اصحاب شيركوه على مناجزة شاور والفرنج القتال بخديعة سبقوا فهيأوها ثم التحم القتال بين الفريقين فكان مع شيركوه الفان ومع شاور والفرنج عشرة الاف فانتصر شاور وقتل من قتل وافلت من افلت وعاد شيركوه الى القاهرة . فاجتمع الفرنج بشاور وارسلوا الى شيركوه في الصلح . وعقدوا اتفاقاً على ان يقبض شيركوه خمسين الف دينار ويعود الى دمشق[1] بلده ويعيد الاسكندرية الى المصريين . وان يقبض الفرنج كل سنة مائة الف دينار ويقيموا حراساً وشحنة وفرساناً على ابواب الاسكندرية ويرجعوا الى بلادهم

بيد ان الفرنج الذين تخلفوا في الاسكندرية ليتقاضوا الجزية كتبوا الى اموري ملك القدس ان المدينة خالية من العسكر وانه يسهل فتحها . فعول ارباب المملكة ان يسارعوا في الذهاب اليها . غير ان اموري لذكائه وفطنته ثبطهم عن ذلك مبرهناً لهم انه ما دامت الجزية تردهم فلا سبيل الى الحرب وانهم اذا زحفوا الى المسلمين اسخطوهم واضطروهم ان

(١) ع ٣٣٣

يستنجدوا اصحاب نور الدين فياتوا ويتلفوا الفرنج ويبيدوهم . غير انهم لم يذعنوا الى مشورة اموري الصائبة بل قالوا اننا نذهب ونحتل مصر قبل وصول نور الدين اليها . قالوا هذا وتسرعوا في الرحيل واستولوا على بلبيس عنوة ونهبوها وسبوا اهاليها وقتلوا اربعة الاف وتركوها خراباً يباباً واستانفوا الزحف الى القاهرة فنازلهم المصريون وهم على الاسوار . فتضايق العاضد خليفة مصر وجز شعر حرمه وبناته وارسله الى نور الدين يتظلم ويقول : ان النساء يبكين ويعولن متوسلات اليك لتسارع الى نجدتهن وتنقذهن من الفرنج

فاقام نور الدين زهاء شهرين كاملين يحشد العسكر لمناوشة الفرنج حتى عيل صبر المصريين واشتد عليهم الحصار فارسل شاور الوزير الى اموري وعظماء الفرنج يقول : انكم تعرفون محبتي لكم فلو رضي الاهالي لسلمتكم مصر دون تربث . ولكني اعرف اني اذا اشرت عليهم في ذلك قتلوني للحال . فالاجدر على ما ارى ان تتخلوا عن مصر بدل دية تقبضونها . ونحن نسعى في جمعها قبل وصول نور الدين والا حرمتم الدية والبلد معاً . فاتفق الفرنج وتصالحوا على الف الف دينار فدفع لهم شاور مائة الف دينار ووعدهم بجمع البقية فارتحلوا عن مصر وعادوا الى بلادهم

وفي كانون ١١٦٨ مات طورس صاحب قليقيا وكان قد انقطع الى الرهبنة واوصى بالملك لابنه الصغير . واقام توماس ابن خالته وصياً له وحرم مليح اخاه من الوراثة فحصل خلاف بين توماس ومليح فزحف مليح الى قليقيا واتلفها واستاق جماعة منها من الرجال والنساء والقسان والاساقفة الى حلب فأرسل الارمن في طلبه واعطوه نصف البلد ثم احتال واحتل البلد كله وفقأ عيون جمهور من الاساقفة والاعيان وقطع ايديهم وارجلهم وسلخ بعضهم وهم احياء والقى جثثهم الى الحيوانات

٤٧

اموري ملك القدس ومليح الارمني وتقويض كنائس الرها وسائر حوادث العالم

وفي السنة ١١٧٠ بلغ اموري ملك القدس ما يقترفه مليح الارمني من المساوىء وما ينزله بالنصارى من اشكال النكال فحملته الغيرة والحمية على مقاتلته وصرفه عن شروره وفظائعه . فحمل عليه وكبسهُ في احدى القلاع وضيق عليه . فما كان من مليح الا ان اذعن له صاغراً وأقسم ان يقيم على طاعته وينتهي عن سوء فعلته ويدع الترك وشأنهم . فانصرف عنه اموري وعاد الى اورشليم . وظل مليح محالفاً الفرنج حتى السنة ١١٧٥ فثار به حراس القلعة وقطعوه ارباً ارباً والقوا جثته

للكلاب[1] وملكوا عليهم روبين ابن اخيه اسطفانا صاحب طرسوس

اما المسلمون في الرها فلم يكفوا او ينثنوا عن معاداة النصارى والفرنج معاً فانهم قوضوا كنيسة آجيا صوفيا في الرها من اساسها وكان قد بقي مذبحها وجانباها الجنوبي والغربي ودكوا كذلك كنيسة الرسل الكبرى وكنيسة مار اسطفانس وكنيسة الاربعين شهيداً فرمموا القلعة بحجارها ونقلوا بعض تلك الحجار الى حرّان . وجملة كنائس الرها التي خربت في عهد الترك ست عشرة كنيسة اولها الكنيسة الكبرى فكنائس مار توما ومار ميخائيل ومار قزما صاحبة المنديل ومار جرجس والمخلص المعروفة بكنيسة البحر . وكنيسة والدة الله المعروفة بالمعاقة وكنيستان اخريان على اسم العذراء ايضاً . وكنيستان على اسم الشهداء الاربعين . وكنيسة المعترفين عند باب الساعات . وكنيسة مار اسطفانس وكنيسة مار ثاوذرس تجاه القلعة . وفي السنة ١١٨٦ احترقت كنيسة السريان المشيدة على اسم مار يوحنا[2]

وفي ٢ حزيران ١١٧٠ حدثت زلزلة هائلة تناوبت خمسة وعشرين يوماً فهبطت الاسوار والدور في حلب وبعلبك وجبلة

(١) ع ٣٥٠ (٢) م ٧٢٩ اطلب هنا ف ٣٥ ص ١١٠ وما بعدها

واللاذقية وحماة وحمص وشيزر وبغراس . وتقوضت كنيسة الروم في انطاكية ومذبح كنيسة الفرنج المعروفة بالقسيان . وظلت كنائس السريان الثلاث في انطاكية سالمة اعني كنائس العذراء ومار جرجس وبرصوما . وصينت كنيستاهم في جبلة واللاذقية ايضاً

على ان حلب منيت بهذه الزلزلة اكثر من سائر البلاد حتى ان فرينس صاحب انطاكية جزّ شعر رأسه ولبس المسح حداداً وجمع الفرنج وسار بهم الى القصير يستغفر همري البطريرك ويتوسل اليه ان يعود الى كرسيه فاشترط البطريرك ان يخرج عنها بطريرك الروم فاجاب الملك الى طلبه وعادوا الى انطاكية فرأوا بطريرك الروم على آخر رمق لسبب الزلزال فحملوه واخرجوه عن المدينة وقضى نحبه في الطريق . ودخل همري الى انطاكية ورمم الفرنج اسوارها المتداعية

وكان ميخائيل الكبير قد ظعن الى انطاكية في ٧ ايار ١١٦٨ وادخله الفرنج الى كنيسة القسيان باحتفال عظيم واجلسوه على كرسي مار بطرس في الموفه الجنوبي ولبث في تلك المدينة حتى حزيران ١١٦٩ وقد اثبت هذا المؤرخ في كتابه (ص ٦٩٥) حوادث الزلزلة الى ان قال : رأينا بام عيننا ألوفاً من النصارى المأسورين في حلب . وكان الترك يطلقون لهم الحرية ليذهبوا

ايام الاحـاد الى الكنائس مغللين بالقيود موثقين بالسلاسل. وكانت صيحاتهم المؤلمة تشق الفضاء.

وفي السنة ١١٧٤ مـات نور الدين في دمشق وكان يبغض الاسلام العلويين واغتصب الفرنج نيفاً وخمسين مدينة وقلعة. فخلفه ابنه الملك الصالح اسمعيل وعمره يومئذ عشرون سنة. فزحف اموري ملك القدس الى انحـاء دمشق وغزاها وحصر بانياس وضيق عليها. وما لبث ان توعكت صحته فعـاد الى عكا وفيها قضى اجله في ١١ تموز ١١٧٥ فحزن عليه المسيحيون حزناً شديداً ولاسيما لانه كان ملكاً مظفراً شجاعاً هابه المسلمون والترك في مصر وسوريا. وكانت خلافته اثنتي عشرة سنـة. وتولى بعده ابنه بغدوين وعمره خمس عشرة سنـة فأبرم عهود الصلح مع الملك الصالح ابن نور الدين[1]

وفي السنة ١١٧٧ حدث غلاء وقحط شديد في بلاد سوريا فابدى السيد همري بطريرك انطاكية من الغيرة والرحمـة على البائسين ما سجل له ذكراً حميداً طيباً فانه اسعف المساكين بكل طاقته ووزع القمح والحبوب عليهم لا في انطاكية فحسب بل في جميع البلاد المجاورة

---

(١) م ٧٠٧

٤٨

الاحبار الرومانيون وميخائيل الكبير بطريرك السريان

لم يفتر الاحبار الرومانيون من بث الدعوة الى بطاركة المشرق في الانضمام الى الكرسي الرسولي ليغدوا كما كانوا في سالف العصور رعية واحدة لراع واحد . فاغتنموا فرصة انتشار الفرنج الصليبيين في بلاد المشرق ليراسلوهم في هذا الصدد . وقد رأيت في الفصل ٢٤ (ص ٧٥ و٧٦) ان انوريوس الثاني (١١٢٤—١١٣٠) اوفد عميده الى اورشليم فاجتمع بالبطاركة والاساقفة واستنهضهم الى تحقيق نيات الحبر الروماني

وفي السنة ١١٧٢ ارسل بطريرك الفرنج الانطاكي الى البطريرك ميخائيل الكبير كتاباً صحبة مطران طرسوس وقسيسين من قسانه يسأله الذهاب اليه . فسافر البطريرك الى انطاكية وجرى البحث بينهما عن مسائل دينية من جملتها ان قوماً من الفرنج الممتازين بالرحمة والرأفة بالبائسين كانوا تشبثوا بالزعم ان الخبز والخمر لا يستحيلان الى جسد ابن الله ودمه . وانه لا فضيلة الا فضيلة الرحمة والمحبة والالفة ما بين البشر اجمع . وهذا المبدأ قرره كثيرون واقاموا لهم رؤساء وانضم

اليهم ولاة البلاد . واضافوا الى مزاعمهم مزاعم اخرى لا يجدر ذكرها

فصمم الحبر الروماني اقوسطس ؟ اسكندر الثالث (١١٥٩ —١١٨١) ان يفند تلك الاضاليل ويلغيها فعقد مجمعاً مسكونيا وكتب من الجملة الى البطريرك ميخائيل يستدعيه الى رومية لحضور المجمع . فكتب اليه الجواب مستعذراً[١]

وفي السنة ١١٧٩ اوفد الحبر الروماني اسكندر الثالث المشار اليه مندوبه ابوسطولس الى بطريركي انطاكية واورشليم يستدعيهما الى رومية . وكان البطريرك ميخائيل الكبير يومئذ في انطاكية فسأله البطريرك الانطاكي ان يسافر معه فلم يوافق على ذلك[٢]

وفي تشرين الاول من السنة عينها ارتحل البطريرك ميخائيل من انطاكية الى اورشليم وزار الملك بغدوين الفتى في عكا واطلعه على الرسالة التي وجهها اليه الحبر الروماني فابتهج الملك بذلك غاية الابتهاج وبالغ في الاحتفاء بالبطريرك وحمّله كتاب توصية الى اورشليم . وعند بلوغه الى المدينة المقدسة اقبل اليه وفد من قبل مرقس البطريرك الاسكندري يفيده عما احدث مرقس بن قنبر الضرير من الشقاق بين القبط لسبب سر

(١) م ٧٠٠ و٧٠١ (٢) م ٧١٩

الاعتراف[١] . فوافق البطريرك ميخائيل بطريرك الاسكندرية وحرم ابن قنبر فانضم الى اليونان الملكيين

وفي نحو السنة ١١٨٠ سار ابن وهبون البطريرك الدخيل الى اورشليم[٢] واثار نيران الشحناء بين الرهبان ورئيسهم المطران اثناسيوس . وتعهد لبطريرك الفرنج في اورشليم بمبلغ الف دينار على ان يسلمه دير السريان المعروف بدير المجدلية . وما سمع البطريرك ميخائيل بذلك حتى كتب رسائل عديدة الى القدس في هذا المعنى ولاقى بسبب ذلك متاعب ومشقات غير يسيرة . وظل ابن وهبون حاقداً والخلاف قائماً على قدم وساق من جرى دخول المسلمين واحتلالهم اورشليم

وفي السنة ١١٨٥ توفي اغناطيوس مطران السريان في القدس بعدما ساس الكرسي ٤٥ سنة فاوفد البطريرك ميخائيل في تشرين تلك السنة اخاه المطران اثناسيوس خليفة للمطران المتوفى فرفضه الرهبان وعانده ابن وهبون بادىء بدء غير انه ظل يلاحقه حتى فاز وانتصر عليه

---

(١) م ٧٢٠ (٢) م ٧٢٣

٤٩

الفرنج وصلاح الدين . وفرينس صاحب انطاكية وشاهنشاه

وفي السنة ١١٧٢ استولى صلاح الدين على مصر وقوي أمره فزحف الى بلاد سوريا يريد حلب وخيم في ضواحيها وحصرها خمسة شهور . وفي السنة ١١٧٦ وافى سيف الدين صاحب الموصل الى الرها وارسل الى صالح اسمعيل صاحب حلب يلومه ويقرعه لأنه هادن صلاح الدين ثم قصد حلب في مائة الف بنيف وكان مع صلاح الدين اثنا عشر الفاً فانكسر سيف الدين وسقط من ظهر حصانه وانقلب الى الموصل فاستولى المصريون على ما استحضره من الذهب والفضة والخيل والعدد الحربية . فاوفد الفرنج الى صلاح الدين وفداً يعاتبونه قائلين : لا يجمل بك ان تقابل بالشر اصحاب مولاك الذين اصطنعوا عندك الخير والمعروف . فاخرج عن حلب والا وافينا باجمعنا ورحلناك عنها قسراً . فاستدرك صلاح الدين العاقبة وعاد الى بعلبك واحتلها واستانف المسير الى حمص وملك قلعتها . وارتحل الى دمشق واطلق الاسرى الفرنج وعقد معهم الصلح . فاوفد الحلبيون الى صاحب انطاكية يستنجدونه وفتحوا الابواب واطلقوا جميع الاسرى المسجونين من امد بعيد .

فباعوا صاحب طرابلس بثمانين الفاً وجوسلين بن جوسلين بخمسين الفاً ورنجد فرينس بمائة وعشرين الفاً

وبعد هذا قصد صلاح الدين بزاعة واخذها وسار الى منبج وامتلكها صلحاً من قطب الدين صاحبها وصادف في قلعتها ثلاثمائة الف دينار فاحتوى عليها وعلى اموال قطب الدين باسرها. واستأنف الزحف الى تل باشر وعين تاف وسائر بلاد سوريا. ثم توجه الى عزاز وحصرها اربعين يوماً [1] فخرج اليه الاهالي وطعنوه بالمدى فانهزم الى حلب وحصرها تكراراً فاستغاث الحلبيون بالفرنج فاوفدوا اليهم رنجد الذي كان مأسوراً عندهم فمنحه الرب الغلبة وقتل كثيرين من عسكر صلاح الدين. ثم انطلق الفرنج الى دمشق وقتلوا خلقاً كثيراً وغزوا سوادها وارسلوا العساكر الى بر مصر واتلفوا المدن والقرى فاضطر صلاح الدين ان يرجع عزاز الى صاحب حلب ويصالح الفرنج ويسارع في العودة الى مصر [2]

وفي السنة ١١٧٨ ركب البحر شاهنشاه ابن السلطان مسعود فساقته الرياح الى مرفأ اللاذقية وكان فيها يومئذ فرينس ملك انطاكية فخرج اليه واوثقه بالسلاسل واحتوى على ما عنده من الذهب والخيل. فاعلن شاهنشاه النصرانية طمعاً

---

(١) ع ٣٥١ (٢) م ٧١٢

في النجاة واجزل له المسيحيون الاموال . غير انه حاول ان يخادع الملك فركب البحر قاصداً صلاح الدين فادركه الفرنج وقبضوا عليه وعلى اولاده الثلاثة وعلى اربعين وزيراً من وزرائه في حشمهم وخدمهم

٥٠

انتصار الفرنج على صلاح الدين في عسقلان

وفي السنة ١١٧٨ زحف صلاح الدين في ٣٣ الف فارس واثني عشر الف راجل و٥٢ الف جمل[1] يريد عسقلان ونهب في طريقه ما نهب وقبض على قوم من المسلمين واهدر دماءهم وقتل بيده اول فرنجي صادفه واغتسل بدمائه تشفياً[2] وكان بلغه ان بغدوين بن آموري ملك القدس مريض مدنف فاستفرص الفرصة لمحاربة الفرنج . بيد ان بغدوين على رغم مرضه ركب حصانه وخرج الى القتال في الرهبان الفرير الابطال وفرينس صاحب انطاكية . ولما دنا من معسكر المسلمين نزل عن دابته وعفر جبينه امام راية الصليب المقدس وبكى وبكى معه الجنود اجمع واقسموا بالصليب انهم لن ينحرفوا

(١) م ٧١٧ (٢) م ٧١٧

عن القتال بتة ولن يتزحزحوا عن الجهاد حتى الممات . وابرموا ان كل من ينهزم منهم يُعدّ مارقاً من الدين كافراً . وبعد هذا زحفوا باجمعهم فابتهج المسلمون بمشاهدتهم معتقدين انهم يغلبونهم وينتصرون عليهم . غير ان الفرنج خافوا وفرة عددهم فانحدروا عن الخيل تكراراً وجزوا شعورهم وحيا بعضهم بعضاً تحية الوداع واتفقوا على الكفاح الى اخر رمق . وعلى هذا الاسلوب غمضوا عن المسلمين حتى دخلوا عسقلان والتهى قوم منهم بالغزو والنهب وركب قوم القوارب في النهر . وعند ذاك اثار الرب عز وجل زوبعة هائلة جرفت الرمل من ناحية الفرنج وناجزوهم القتال يومين كاملين وكسروهم افحش انكسار واضطروهم الى الفرار وتتبعوهم طيلة ذلك النهار وطوحوهم في البراري والقفار مدة خمسة ايام كاملة حتى اعياهم المسير وجهدهم الجوع والعطش والفرنج يلاحقونهم وكانوا كلما ادركوا كتيبة منهم اوثقوها وفتكوا بها واحتووا على ما عندها من الجمال والاثقال والاموال . اما صلاح الدين فانهزم في شرذمة الى القاهرة . وكتب احد المؤرخين المعاصرين يقول شاهدت بام عيني وسمعت باذني اقواماً ينادون في شوارع مصر وهم ممتطون الخيل ويقولون : « بشراكم فان السلطان غلب والفرنج انكسروا » فبادرت لاستحق الخبر واقف على جلية

الغلبة فسمعتهم يقولون : افرحوا وابتهجوا فان السلطان سالم . فاستنتجت ان الواقعة جرت خلاف ذلك[1]

ووصلت بشائر النصر الى انطاكية وكان فيها يومئذ ميخائيل الكبير[2] فادى المسيحيون فروض الشكر لله تعالى مبتهجين

٥١

انكسار الرهبان الفرير وقتال الفرنج في حارم ودمياط وقسطنطينية والكرك واخبار صلاح الدين وروبين ووفاة بغدوين

وفي السنة ١١٧٩ اتفق مع بغدوين جميع الفرنج الذين في سواحل البحر وزحفوا الى معبرة يعقوب وابتنوا مدينة على شاطئ الاردن ليضيقوا على الدمشقيين . فباغتهم صلاح الدين وتناجزوا القتال وهزموه الى دمشق وغزوا ذلك البلد وعادوا مبتعدين مرحلة وخيموا يستريحون فانقلب عليهم صلاح الدين وقبض على مائة جندي من جنودهم واوثق المستر رئيس الفرير وعاد الى معبرة يعقوب واحتلها عنوةً وكان فيها زهاء خمسمائة من اولئك الرهبان . وما كادوا يلمحونه حتى القى بعضهم بنفوسهم في النار وبعضهم في الاردن وبعضهم على الصخور

(١) ع ٣٥٣ (٢) م ٧١٩

فماتوا حرقاً وغرقاً وحطماً ووقع البقية في حوزة الترك فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم جميعاً[1]

وارسل يومئذ اصحاب قلعة حارم الى الفرنج يستنجدونهم على صالح اسمعيل صاحب حلب واقسموا لهم بالانجيل والصليب انهم يثبتون على عهود الامان معهم . فحشد غوندفلند جنود اورشليم وسواحل البحر وطرابلس واتفق معه فرينس صاحب انطاكية وروبين صاحب قليقيا وساروا في ثلاثين الفاً من الخيالة والرجالة الى حارم وشدوا عليها الحصار منذ اول كانون الاول حتى سلخ اذار وضيقوا على الاهالي المجاورين وارادوهم على احضار الزاد والعلف . فسخط الرب على الفرنج وساعد الترك المحاصرين في القلعة فارسلوا الى صاحب حلب يستنجدونه عليهم . فاوقد صالح اسمعيل يتهدد صاحب انطاكية ويتوعد كلا من امراء الفرنج بمفرده ويغلظ لهم فوعدوه بخمسين الف دينار ونصف القرى المجاورة للقلعة وانقلبوا الى بلادهم مخذولين وأمسوا اضحوكة للناس اجمعين

اما صلاح الدين فلبث اياماً في دمشق ثم زحف الى حلب وضيق عليها وملكها واستراحت روحه وولى عليها ابنه غازي واستعمل عماد الدين صاحبها السابق على سنجار واضاف اليها

(١) م ٧١٩ وع ٣٥٤

الرقة وسروج والخابور ونصيبين . وولى اولاده على مصر ودمشق وحمص وحماة وغيرها . وهادن الفرنج عام ١١٨١ في سواحل البحر وسار الى مرج قرد حصار عند النهر الازرق بين القلعة وحصنمنصور وقصد نهر كوكسو ونهر الاسود . واوفد عساكره لينهبوا بلاد قليقيا انتقاماً من روبين سلطانها الذي فتك بعدة من التركمان وسبى نساءهم واولادهم واموالهم . فارسل اليه روبين رسائل الخضوع في مبلغ من الذهب واعتق خمسمائة من الاسراء الترك . وعلى هذا الاسلوب انتهى الصلح بين الفريقين (١)

وفي السنة ١١٨٢ خرج الفرنج في مركب كبير الى دمياط اذ كانوا هم والمسلمون متهادنين فانقض عليهم المسلمون واستأسروا الفين وخمسمائة تاجر وملاح محتجين بان ميعاد الهدنة قد انقضى وانتهى . فحمل الفرنج على أيلة بساحل النيل وجهزوا السفن وعبروا البحر الاحمر لاول مرة وغنموا الوفاً من سفن المسلمين مشحونة بالذخائر والاموال الشتى وفتكوا باقوام كثيرين من اهالي عيداب . فاوفد صلاح الدين سفناً من الاسكندرية في جمال واثقال لمقاتلتهم فباغتها الفرنج واغرقوها فتتبعهم المسلمون والتحم القتال وباد من الفريقين

(١) ع ٣٥٦

خلق كثير[١]

وفي القابل زحف اندرونيقس احد عظماء الروم الى قسطنطينية وافتعل المفاسد والمساوىء وطرد الفرنج منها فاحرقوا فيها وفي سائر بلاد الروم اربعة عشر الف دير وقرية واقبل ملك صقلية فقوض ايضا عدة من مدن بلاد الروم وتركها قاعا صفصفا وارتحل[٢]

وقصد صلاح الدين في تلك الغضون قلعة الكرك فادركه الفرنج والجأوه ان يغادرها الى دمشق ثم زحف اليهم ثانية فاصدقوا عليه الحملة فشمله الخوف والجزع وامر باحراق العرادات وانصرف الى بلاد السامرة وغزاها . فزحف فرينس ارناط (رنود دو شاتيلون) الى الجبال ودخل الكرك بلدته وحصنها وعززها . وسار فرينس صاحب انطاكية في مائتي فارس الى حارم وغزاها وفتك بخيالة تركٍ كانوا على جسر الحديد وفتح محارس المسلمين في الجبل واهلك اربعمائة راجل وعشرين فارسا

اما بغدوين ملك القدس فظل الجذام يعذبه ويتلف جسمه حتى ادركته المنون عام ١١٨٥ وكان قد اوصى بالمملكة لبغدوين الخامس ابن اخته الذي لم يكن يبلغ بعد سن الرشد[٣]

---

(١) ع ٣٥٩ (٢) ع ٣٥٩ (٣) ع ٣٦٨

٥٢

فرينس وروبين الارمني وخلافة غي ده لوزينيان في اورشليم

عقد فرينس الهدنة مع صلاح الدين وحشد الجنود وزحف الى قليقيا عام ١١٨٦ والقى القبض على روبين صاحبها غيلة واعتقله وطفق يناوش الارمن القتال ولكنه لم يتيسر له ان ياخذ بلداً واحداً من بلادهم . ذلك لان لاون الارمني دافع عن اخيه روبين وعن بلاده بحكمة ورزانة وعارض الفرنج حتى اضطرهم ان يعودوا الى بلادهم مخذولين . وادى لهم ثلاثين الف دينار وتخلى لهم عن المصيصة وآدنة وغيرهما . فخرج روبين من السجن مضمراً الضغينة على فرينس ولم يمر الا القليل حتى تمرد عليه واسترجع منه البلاد التي وهبه اياها اخوه . فاحتدم فرينس سخطا وارسل فغزا بلاد قليقيا وأفسدها[1]

وجرت اذ ذاك حروب ومناوشات شتى في بلاد ارمينيا وما بين النهرين فقتل الاكراد في تل بسم عند ماردين مائة وسبعين سريانيا وفتكوا في قرية آمرون قرب ملطية بمائتين من السريان الشاكي السلاح[2]

---

(١) م ٧٣٠ وع ٣٧٠ (٢) ع ٣٧٠

وفي السنة ١١٨٦ عينها ثارت فتنة بين الفرنج بداعي ان صاحب طبرية قبل وفاته كان اوصى صاحب طرابلس بابنه القاصر . غير ان الصبي ما لبث ان ادركته الوفاة فاستلمت امه سياسة المدينة و كلفت برجل يقال له غي (ده لوزينيان) فاقترنت به مع انه لم يكن من السلالة الملكية ونادت به ملكا[1] فثقل ذلك على صاحب طرابلس وقصد صلاح الدين وهادنه وجعل يحفر الحفائر ليوقع بايزابيل وبالنصارى اجمع

٥٣

حروب الفرنج وصلاح الدين في فلسطين والسواحل

وفي تموز ١١٨٧ زحف صلاح الدين الى الكرك وشوبك ليثئر من فرينس لانه نكث العهود وسلب قوافل المسلمين . فاكتسح الاشجار واتلف القرى ووجه ابنه الافضل الى طبرية فغزا سوادها . فسخط الفرنج عليه وبرزوا لقتاله وكادوا

---

(١) هي ايزابيل شقيقة بغدوين الرابع وام بغدوين الخامس اقترنت بغي ده لوزينيان وافضت اليها المملكة بعد وفاة شقيقها وابنها ثم تولى زوجها غي مملكة اورشليم لا طبرية

يتلفون جيوشه الا انهم عادوا الى المدينة وانقلب الافضل الى ابيه

على ان وزراء الفرنج عقدوا مؤتمراً واعملوا الروية في مقاتلة المسلمين فعارضهم صاحب طرابلس قائلاً ان في محاربة صلاح الدين لخطراً لانكم عرفتم انه كان رجلاً خاملاً ثم اتصل بدهائه وبطشه الى ان يملك مصر وفلسطين وبلاد المشرق . فالاولى ان نهادنه ونستريح . بيد ان غي ملك القدس ابى الا مصادمته فقال له صاحب طرابلس سترى مغبة عنادك وتندم وقت لا ينفعك الندم

واجتمع صلاح الدين ايضا بكبار دولته واستشارهم في الامر فقالوا له الرأي عندنا ان نعدل عن محاربة جيوش الفرنج جملة ونقتصر على اتلاف بلادهم وتخريبها فاذا تشتتوا ساغ لنا التغلب عليهم شيئاً فشيئاً . لكن صلاح الدين لم يرق له هذا الرأي مدعياً انه يتعذر عليه ان يحشد ثانية ما حشده من العساكر الكثيفة . فقال لرجاله تقووا وتشجعوا ويفعل الرب ما شاء . ثم ركب من فوره وركب فرسانه لاحقين باثره الى الاردن عند طبرية وتألب الفرنج في صفورية . وظل الصفان احدهما تجاه الآخر اياماً دون قتال . ثم بعث صلاح الدين كتيبة من جنوده تحت الليل الى طبرية فساروا في طريق غير مسلوكة

حتى شارفوها وقت الصباح وحصروها وفتكوا باهاليها ذبحاً بالسيوف وحرقاً بالنيران . فهلعت امراة غي او هي امراة ريمند صاحب طرابلس وقصدت القلعة واحتصنت. اما زوجها فركب في جنوده ونازل المسلمين حتى العشاء ولما جنّ الليل خيم الفرنج والمسلمون يترصد بعضهم بعضاً وباتوا تلك الليلة ساهدين لا يغتمض لهم جفن

وكان المسلمون قد استحوذوا على سواحل الاردن ومنعوا الفرنج عن ارتياد الماء وعولوا على مناجزتهم القتال . غير انهم هابوا كثرة عددهم اذ كانوا كالنحل يهجمون ويقتحمون ولا ينكصون . فبادر صلاح الدين وتغلغل ما بينهم واوقع فيهم صيحة عظيمة وجعل يغلّظ لهم ويتهددهم تارة وطوراً يجاملهم ويشجعهم . فنهض منجوراس عبده وخرج مستبسلاً من قلب المعسكر واخترق الجيوش فوثب به بطل من ابطال الفرنج وطعنه بالرمح والقاه من ظهر حصانه ثم مال فامسك ضفيرته وسحبه الى معسكر الفرنج وحز هامته . فتشجع الفرنج ظانين ان القتيل هو ابن صلاح الدين . اما صاحب طرابلس الغدار فغلب على ظنه ان اصحابهُ يفوزون بالانتصار ويكذبون رأيه على ما سبق فركب حصانه متظاهراً بانه سائر الى قتال الترك واخترق الصفوف ففسحوا له حتى

جاوزهم وشخص الى طرابلس بلدته . وتوغل الفريقان في المعارك وانكسر الفرنج كسرة شنعاء . وقبض الترك على غي وعلى فرينس ارناط وعلى عدد صالح من الرهبان الاسبيتاليين وغيرهم ولم يفلت الا القليلون

ولما خمدت نيران المعركة جلس صلاح الدين في خيمته واجتمع بوزرائه وارسل فاستحضر اليه غي وفرينس فاكرم غي واجلسه الى جانبه وامر ارناط بالجلوس ايضاً . فسأله غي ان يأمر له بجرعة ماء فامر له صلاح الدين بماء مثلوج فشرب غي نصف القدح وقدم نصفه الى ارناط . فانكر عليه صلاح الدين ذلك قائلاً له لا يحق لك ان تسقيه دون امري . قال غي ان الاسر موت فلا تميتنه موتتين والانكسار قتل فلا تقتلنه قتلتين . فاعجبه الجواب وصمم ان يبقي عليهما كليهما . غير ان اصحابه أبوا الا الانتقام من ارناط مدعين انه اقسم وحنث في يمينه . ثم امر صلاح الدين فأعدوا لكل منهما خيمة وما مرّت ساعة حتى ارسل في استحضار ارناط وانتضى سيفه وقتله

وكان ارناط هذا شيخاً جليلاً وبطلاً صنديداً منجذاً بالحروب يهابه المسلمون ويخافونه جداً . وكان ممتازاً بتدينه وورعه . اراده صلاح الدين على الاسلام فأبى فقتله بيده[1]

(١) ع ٣٧٣ و٣٧٤

وقتل عشرة من الرهبان الفرير واغتسل بدمائهم [1]

وتمت الغلبة لصلاح الدين يوم السبت رابع تموز .. فاستأسر المسلمون من الفرنج ما ناهز العشرين الفاً واوثقوهم وجروهم على الحضيض كالكلاب . وقتلوا نيفاً وثلاثين الفاً وكوموا جثثهم كالتل تجاه خيمته . واستاقوا الى دمشق ملك اورشليم ووزراءه وصاحب جبلة وابن برزان وابني سبتا والشيخ فرينس سيرارنجد صاحب قلعة شبارك ونيفاً ومائة وخمسين من الرهبان الفرير

وفي سادس تموز سار صلاح الدين الى قلعة طبرية واحرقها وخادع الملكة واستحضرها واوفدها الى طرابلس في اصحابها وامتعتها وفي بعض الهدايا . واشترى من فرسانه ثمانين راهباً من الفرير كل واحد بخمسمائة دينار وفتلهم عن آخرهم وهو يقول ان هولاء يؤذون المسلمين اكثر من سائر الفرنج ويؤثرون القتل في سبيل ايمانهم

ويوم الخميس تاسع تموز زحف صلاح الدين الى عكا واخذها صلحاً وانهزم اعيانها الى صور وطلب الفقراء الامان فامنهم وقصد الناصرة يوم الثلاثا ٢٤ تموز فنهبها عسكر مظفر الدين صاحب الرها وفتك باهاليها واستاق الصبيان والنساء واستعبدهم

---

(١) م ٢٣٣

واستولى صلاح الدين على مدن الساحل وغزاها واهلك سكانها واخربها وابتز عساكره الاموال واستاقوا من النساء والاطفال ما لا يقع تحت الاحصاء . واستأنف المسير الى صور ونازلها فامتنعت عليه . ولولا وصول كنراد مركيز مونفرات لتخلى له الاهالي عنها . فغادرها صلاح الدين الى عسقلان وحصرها ففتك الفرنج بعسكره فاستحضر ملك اورشليم من دمشق ووعده باطلاقه على ان يسلمه اياها . فارسل الملك في طلب صاحبها وأمره ان يتخلى عنها فأبى فأومأ الملك الى المسلمين فأوثقوه واوثقوا من معه ثم ارسل الى الاهالي ليسلموا البلد وينجوا فاجابوا الى طلبه[1] فاعتق الملك وخلع عليه واوفده الى صور واوفد معه ابناء سبتا وبرزان وملك عسقلان يوم السبت ودك سورها وتركها خاوية خالية وانطلق الى عكا وحيفا ونابلس وتبنين وصيدا وقيسارية ويافا والناصرة وبيروت واستحوذ عليها . وحصّن عكا ورتب فيها الحراس وولى عليها قرقوش الخصي وبعض الضباط . اما صاحب جبيل الذي أسر فيمن أسر فانه سلم مدينته ونجا بنفسه . والخلاصة ان اللسان يقصر عن استيعاب ما لاقاه النصارى من الاهوال والغوائل في تلك الحروب والمناوشات العنيفة

(١) ع ٣٧٥

٥٤

فتح القدس

توسع ابن العبري دون المؤرخ الرهاوي وميخائيل الكبير في سرد ما حدث من الوقائع الهائلة عندما فتح صلاح الدين بيت المقدس فرأينا ان ننقلها عن تاريخيه السرياني والعربي قال:

سار صلاح الدين في ايلول ١١٨٧ يريد بيت المقدس . فلما نزل عليه المسلمون رأوا على سوره من الرجال ما هالهم . وبقي صلاح الدين خمسة ايام يطوف حول المدينة ينتظر من اين يقاتل لانه في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود او كنيسة صهيون . فانتقل الى هذه الناحية في العشرين من رجب فنزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات ونصب الفرنج على سور البلد المنجنيقات وتقاتل الفريقان اشد قتال كل منهما يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون

فتقوى الفرنج اولا اذ كان عدد جنودهم ستين الف فارس وراجل وخرجوا نحو المسلمين وقتلوا منهم كثيرين في جملتهم عز الدين صاحب قلعة جعبر وغيره من مشاهيرهم . ثم

طفق المسلمون يصوبون النبال نحو السور يشغلون من يحرسه حتى وصل اليهم العسكر الحلبي . فقلعوا منه حجاراً ونقبوا نقباً اسندوها بالاخشاب وحاولوا ان يوقدوا فيها النيران ليهبط السور . فلما راى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين من النقب ارسلوا باليان بن نيرزان[1] صاحب الرملة الى صلاح الدين بطلب الامان فأبى السلطان وقال لا افتحها الا بالسيف ولا افعل بكم الا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموهم سنة ١٠٩٧ من القتل والسبي . فقال له احد الاثنين الموفدين ان لي كلاماً ابلغك اياه ايها السلطان ان وعدتني انك لا تسخط او تغضب . قال السلطان ليس في ذلك ما يدعو الى السخط . قل مهما شئت . قال باليان اننا لو لم نعلم بفطنتك وانك لا تستطيع ان تلغي سنن من سبقك من السلاطين القاضية بانه متى أسلم السلاح وطلب الامان كف القتال لما قصدنا المجيء اليك . وبما انك خيبت املنا من جودتك فاعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير وانما يفترون عن القتال رجاء الامان . فاذا رأينا ان الموت لا بد منه فوالله لنقتلن اولادنا ونساءنا ونذبح بناتنا بيدنا ولا ندعكم تقضون اوطاركم ونحرق اموالنا ولا نترككم تغنمون منا ديناراً ولا

---

(١) ع اثنين من عظمائهم ٣٧٠

درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً او امرأة . فاذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الاقصى ثم نحرق الكنائس وسائر الابنية . ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة الاف اسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا . وحينئذ لا يُقتل الرجل منا حتى يقتل امثاله ونموت اعزاء او نظفر كرماء

فحار السلطان واجلسه في احد الخيم واجتمع باصحابه واستشارهم فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يحرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الامر فيه عن اي شيء ينجلي . على ان ما قاله الفرنجي صحيح لا ريب فيه بل يفعلون اكثر مما قال . فاستدعى السلطان الرسولين وقال رضيت بقولكما ولكنه لا يمكن الاهالي ان يغادروا المدينة ويرتحلوا دون دية فان امرائي يطلبون مالا وذهباً مكافأة لتعبهم وخسائرهم في الحرب . فاستقر الراي ان يزن الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير وترن المرأة خمسة دنانير ويزن الطفل من الذكور والاناث دينارين ويحملوا معهم ما استطاعوا . فمن ادى ذلك الى اربعين يوماً فقد نجا والاصار مملوكاً

فوافق الرسولان وبذلا عن الفقراء ثلاثين الف دينار وبذل الاغنياء عنهم وعن سائر الفقراء وخرجوا جميعاً بالامان

وبقي من الفقراء زهاء خمسة الاف نسمة فاوثقهم المسلمون واستاقوهم وكان الحفظة ياخذون من كل واحد ديناراً او اكثر ويطلقونه . واطلق مظفر الدين الف نسمة من السريان والارمن مجازاً وقال انهم رهاويون من ابناء رعيته . واطلق نظيره ابن شهاب الدين صاحب البيرة عدداً وافراً من ابناء بلدته . وكان في القدس يوم ذاك ملكة يونانية عاكفة في احد الاديار فارسلت الى صلاح الدين ليأذن لها في الخروج فأمر لها بذلك وخرجت في شمامستها وشماساتها وعبيدها واموالها واركب معها بعض جنوده فاوصلوها الى تخوم الفرنج وعادوا . واطلق الحرية في الرحيل لملكات غيرها كن في اورشليم . اما البطريرك فحمل امتعة كنيسة القيامة وسائر الكنائس والقناديل الذهبية والفضية وغيرها وانصرف . وجعل الاهالي يبيعون ما لم يمكنهم حمله . والخلاصة انهم سلموا المدينة فارغة من كل مؤنة . فقال عماد الكاتب لصلاح الدين ما بال هولاء ينقلون كل هذا المال وانت لم تعطهم الا الامان . قال صلاح الدين . حق ما تقول ولكني لست اريد ان يذاع عنا اننا اقسمنا ونكثنا عهدنا واحرزنا اسماً سيئاً

ملك اذاً صلاح الدين القدس يوم الجمعة ١٢ تشرين الاول ١١٨٧ واقام في كنيسة القيامة اربعة رهبان يتولون خدمة القبر المقدس

ريثما استلم بطريرك الروم شؤونها وادارتها

اما مؤرخنا الرهاوي وكان يومئذ في القدس . فقال ان صلاح الدين بعدما اطلق الحرية للفرنج في الرحيل بالامان كانوا اذا ابتعدوا عن المدينة خمسين خمسين او مائة مائة حمل عليهم المسلمون وفتكوا بهم واستولوا على اموالهم وكانوا يعولون ويبكون بكاء مراً يشق الصخور الصماء[1] . اما المتبقون في المدينة من الارمن والروم والسريان، فادى كل رجل منهم عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وارتحلوا حيثما ارادوا . ثم استطرد يصف حالة النصارى المنهزمين قال :

يا لها رؤية كئيبة محزنة فان اولئك الاذلاء كانوا يتركون اموالهم ويعرضونها للبيع بابخس الاثمان فلم يشترها احد . وكان في القدس يوم ذاك المطران اثناسيوس شقيق البطريرك ميخائيل وفئة من الرهبان السريان بينهم الراهب سهدو الرهاوي الذي خلف اثناسيوس المومأ اليه في الكرسي الاورشليمي ودعي اغناطيوس . وكان في القدس ايضاً ثاودرس بن وهبون بطريرك السريان الدخيل (١١٨٠—١١٩٣) الذي ازعج البطريرك ميخائيل الكبير واقام زماناً في دير الارمن بالقدس ثم ادى له الخضوع والطاعة . فهذا ابن وهبون اتفق مع المطران اغناطيوس على

(١) م ٧٣٣

خراب دير السريان وحمله نفقات طائلة وديوناً باهظة

قال المؤرخ الرهاوي وكنا نحن الحقيرين المنكودي الحظ يومئذ في اورشليم وابصرنا بعيننا ما افتعله المسلمون من الغوائل والمنكرات والقبائح مما يعجز لساننا عن تعبيره ووصفه . فان المسلمين باعوا الاواني القدسية في اسواق المدينة وجعلوا الكنائس والهياكل مراحاً للخيل واسطبلات للدواب ومسارح للملاهي ومواخير للخلاعة . وكانوا يرتكبون المنكرات ما شاءت وحشيتهم من الرهبان والنساء المحصنات والراهبات العفيفات . واستاقوا الفتيان والفتيات وطوحوهم في اطراف البلاد . وعروا الكنائس لا من الزينة فحسب بل من الحديد والاخشاب والابواب والرخام المطعم في الجدران والمرصوف في الاراضي . ونقلوا ذلك كله الى بلاد سحيقة . بيد انهم اشفقوا على كنيسة القيامة الكبرى واقاموا فيها حراساً لا حرمة لها بل طمعاً في ما يردها من الهدايا والتقادم اذ كانوا يقبضون عشرة دنانير من كل مسيحي يدخلها ويسجد في ضريح الفادي

وكتب ميخائيل الكبير[1] ان صلاح الدين افرز من النصارى عشرين الف رجل وامرأة فاطلق منهم اربعة آلاف من

(١) م ٧٣٤ و٧٣٥

الشيوخ والعجائز وتخلى لجنوده عن ستة آلاف اتخذوهم عبيداً وجواري . ورحل الى مصر خمسة آلاف ليرمموا اسوارها وترك خمسة الاف في القدس ليبتنوا كذلك سورها . اما هيكل سليمان الذي يسميه المسلمون الصخرة وقد ابتنوه حديثاً فانهم طهروه طبقاً لشريعتهم وحرجوا على النصارى الدخول اليه . واوصدوا ابواب كنيسة القيامة فكان النصارى العبيد والمتخلفون في المدينة يحجون اليها دائماً ويصلون عند ابوابها باكين منتحبين

٥٥

انكسار صلاح الدين في صور وتوغله في مختلف البلاد

ولما فرغ صلاح الدين من امر بيت المقدس سار الى مدينة صور يقول لاصحابه ان الفرنج لم يبق لهم في الساحل الا صور فاذا فتحناها نجونا منهم . وكان قد اقبل الى تلك المدينة من رومية المركيس وصار صاحبها وقد ساسها احسن سياسة وحصنها اشد تحصين واحتفر فيها الخنادق واقام ابطال الفرنج لحراستها فكانوا يخرجون مراراً في السفن ويقتلون المسلمين ويعودون

فارسل صلاح الدين الى الاسكندرية واستقدم سفناً

عظيمة ارست في ميناء صور فخرج الفرنج ليلًا في سفن عظيمة قوية و كسروا عدة عديدة من تلك السفن الكبيرة

فقسم صلاح الدين القتال على العسكر كل جمع لهم وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث يتصل القتال على اهل البلد على ان الموضع الذي يقاتلون فيه قريب المسافة تكفيه الجماعة اليسيرة من اهل البلد تحفظه وعليه الخنادق التي قد وصلت من البحر الى البحر فلا يكاد الطائر يطير عليها لان المدينة كالكف في البحر والساعد متصل بالبر والبحر في جانبي الساعد والقتال انما هو في الساعد فلذلك لم يتمكن منها صلاح الدين ورحل عنها . وكان للمسلمين خمس قطع من الشواني مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول اليه فنازلتهم شواني الفرنج وقت السحر وضايقهم واوقعت بهم فقتلوا من ارادوا واخذوا الباقين بمراكبهم وادخلوهم ميناء صور والمسلمون من البر ينظرون اليهم . ورمى جماعة من المسلمين انفسهم من الشواني فمنهم من سبح ونجا ومنهم من غرق . ومنهم من انهزم في السفن الى بيروت فادركهم الفرنج واستأسروا اغلبهم . فلما رأى صلاح الدين تلك الاهوال وبسالة الفرنج انقطع خيط آماله واخفقت آمال رجاله فاحرق ما ابتنى من الابراج والعرادات وسائر السفن وسار الى عكا واطلق الحرية لعسكره ليذهب كل

الى بلدته ويستريح في بيته

وفي السنة ١١٨٨ عينها سار صلاح الدين الى صيدا وبيروت وجبيل وتبنين واخذها . وتوجه الى حصن الاكراد وحصرها فلم يقو عليها . فقصد انطرطس وضيق عليها واستولى الحلبيون على سورها وظل الفرنج في برجين يحاربون زماناً . واخيراً اسلموها فاخرب صلاح الدين سور المدينة ودك قلعتها وقوض كنيستها المؤسسة على اسم العذراء وهدم جميع ابنيتها وانطلق الى مرقبة وجبلة واحتلهما وسار الى اللاذقية واحتفر خندقاً طوله ستون ذراعاً في عرض اربع اذرع . فطلب الفرنج الامان وخرجوا في اولادهم ونسائهم واموالهم ما عدا الذخائر وآلات الحرب والبهائم . فملكها صلاح الدين وولى عليها ابن اخيه تقي الدين صاحب حماة

ووافى في تلك الغضون من صقلية عدد وافر من الجنود لمساعدة النصارى وقصد قائدهم صلاح الدين وقال له : لقد ملكت جميع مدن الفرنج الساحلية ولم تدع لهم منها الا ما قل . وارى انك ان عملت على اتلافهم بالمرة جيشوا جيوشاً كثيفة واقبلوا في البحر لمقاتلتك واتعبوك . ومن ثم فجوار هولاء الضعفاء افضل لك لانهم يكونون بمثابة سور بينك وبين الاهالي . فقال صلاح الدين ان شريعتنا تقضي ان نعزز ديننا

بكل وسعنا ويصنع الرب ما يشاء . فتركه ذلك القائد وعاد الى بلاده

وسار صلاح الدين الى قلعة صهيون وحاصرها . وهي مدينة مبنية فوق صخور بين واديين عميقين فاستلمها صلحاً وملك شفر بكاس ودربساك وبغراس والكرك وصفد وهادن البرنس بيموند صاحب انطاكية وطرابلس ثمانية اشهر وسار الى حلب فدمشق ثم اخذ صفد وكوكب

وفي السنة ١١٨٩ سار البرنس بيموند الى حارم وغزاها وانتقل الى شيح وفتك باهاليها المسلمين والنصاري . اما ارناط صاحب صيدا فقصد صلاح الدين واستمهله ثلاثة اشهر ريثما يخرج منها هو واهله الى دمشق ويعطيه ارنون . فرضي السلطان بذلك غير ان ارناط استفرص الفرصة وجعل يحفر الخنادق ويرمم السور فشعر به صلاح الدين واوثقه وارسله الى دمشق فاضطر ان يسلمه ارنون وينجو

٥٦

حصار عكا وفتحها وانتصار الفرنج

وفي السنة ١١٩١ وصلت امداد الفرنج في البحر الى الفرنج النازلين على عكا يحاصرونها . وكان اول من وصل منهم فيليب

فيليب اوغست او فيليب الثاني ملك فرنسا ١١٨٠—١٢٢٣

ملك افرنسيس وهو من اشرف ملوكهم نسبا وان كان ملكه ليس بالكثير . فقويت به نفوسهم اي الذين كانوا في عكا ولجوا في قتال المسلمين الذين فيها . و كان صلاح الدين على شفر عم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وكان فيه الامير سيف الدين الهكاري المعروف بالمشطوب وسون الف مقاتل [1]

وتبع فيليب ملك افرنسيس ملوك وعساكر لا تحصى وارسلوا قبلهم شعوباً يتكلمون بلغات مختلفة لا يعرف احدهم لغة صاحبه . وحلوا جميعهم على عكا . وكان معهم اساقفة و كهنة و كنائس نقالة فابتنوا بيوتاً و كنائس واربعة آلاف رحى

ثم ان صلاح الدين سار لنجدة عكا وشارف الفرنج فرآهم يزدادون يوما فيوماً والذخائر تأتيهم من البحر دون انقطاع فقضى هو واصحابه ان يستعجلوا في القتال قبلما يزداد الفرنج . وصباح الجمعة اول رجب التقى الجيشان وتحاربا حتى المساء وباتوا تلك الليلة على ظهر خيلهم . واغتنم صلاح الدين فرصة انشغال الفرنج بالقتال فدخل عكا من الجهة الشمالية في عدد من الرجالة وذخيرة الى الاهالي واخرج الضعفاء . ثم امر المحاصرين ان لا يكتفوا بالحرب من الاسوار بل ان يخرجوا خارجاً

(١) م ٧٣٥

ويضربوا الفرنج

ويوم الاثنين ركب فرسان الفرنج الى خيم المسلمين وقتلوا كثيرين وعادوا . فتتبعهم المسلمون فاختفى الفرنج في تل المصلوبين فسار صلاح الدين وخيم في تل آخر تجاهه مطل على عكا . وكان اهالي عكا يخرجون كل يوم ويقاتلون الرجالة الفرنج ويعودون

قيل ان الفرنج قالوا يوما للمسلمين في عكا . قد سئمنا محاربة الكبار فنحب ان يتحارب صغارنا وصغاركم . فاحضروا من الجهتين زهاء مائة فتى واخذوا يطلقون على بعضهم بعض الحجارثم دنوا من بعضهم وتضاربوا بالعصي فانتصر الفتيان الفرنج وانكسر الفتيان المسلمون وانقلبوا الى المدينة

ويوم الاربعا ٢٠ رجب اشتعل وطيس الحرب فخرج الفرنج من خيامهم كالجراد . وسار الملك يتقدمه الانجيل موشحاً بحرير احمر يحمله الكهنة فوق رؤوسهم . فخاف صلاح الدين وارتعب واجتمع باصحابه . فانقض جانب الفرنج الشمالي على جانب المسلمين اليمين وعلى راسه تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين . فتشدد ملك الفرنج ورسم علامة الصليب على جبهته ودخل قلب معسكر المسلمين والتحم القتال وجعل الفرنج يحصدون المسلمين حصاد المنجل . فانهزموا وتتبعهم

الفرنج نحو فرسخ يضعون السيف في من يدر كونه وهم يدقون بالابواق . حتى غلبوا المسلمين غلبة تامة ووصل المنهزمون الى دمشق وطبرية وبلغوا الى الخيام ونهبوها وقتلوا الباعة في الاسواق ثم كروا راجعين فرأوا ان معسكر المسلمين الشمالي لم يتزحزح فتركوهم وعادوا الى خيمهم

فنادى صلاح الدين عسكره المهزوم فعادوا الى خيامهم كالاموات . وأحصي عدد القتلى فكان اربعة الاف ومائة . على ان صلاح الدين سبق فامر اصحابه في عكا ان يزجوا الجثث في البحر فاخذ احدهم خيطاً وجعل كلما القوا قتيلا عقد الخيط عقدة وقُتل من الفرنج نحو الفين . وطلب كبار المسلمين من صلاح الدين ان يرتحلوا عن مكانهم محتجين ان رائحة الجثث افسدت المناخ . فاغتنم الفرنج تلك الفرصة واحتفروا خندقاً عظيماً من التل الى البحر معترضاً ما بين الفريقين واحاطوا بالبلد من البر الى البحر ومنعوا الطريق عن المسلمين بحيث لم يعد يتيسر الدخول والخروج لاحد بتة

واقبل في تلك الاثناء فردريك الاول ملك النمسا وهو بربروس في مائتي الف فارسل صلاح الدين يستنجد امراء المسلمين ويستعجلهم على الحضور ويقول إلم تحضروا هلك المسلمون واضمحلوا بالمرة . ولما كان صلاح الدين يتصيد وثب

الفرنج على المسلمين فالقى العادلُ اخوه صيحة عظيمة في عسكره والتحم القتال وهلك كثيرون من المسلمين ولولا دخول الليل لكانت الكسرة كاملة . ثم عاد الفرنج الى خيمهم واقبل الشتاء باوحاله فتعذر على الفريقين ركوب الخيل والدنو من بعضهم وانقطعت المواصلات بين سكان عكا وبين صلاح الدين فانحدر احدهم الى البحر وقصده سابحاً وافاده ان الفرنج يشددون الحصار والقتال وقد ابتنوا متاريس عالية جداً واصبح الاهالي في ضيق شديد. فركب صلاح الدين ليلهي الفرنج ريثما يستريح الاهالي وما دنا من البلدة حتى رأى خنادق عميقة جداً يتعذر المرور عليها فندم وعاد الى تل العجول بعيداً عن الفرنج واجتمع اليه ملوك المسلمين من الاطراف

ثم احتال صلاح الدين فادخل الى عكا عملة امرهم ان يقذفوا النيران على ابراج الفرنج ويحرقوها وكانت تلك الابراج عجيبة في صناعتها حيرت المسلمين وارعبتهم . وكان الفرنج قد ركبوها على عجلات يدفعونها بارماحهم والجنود ضمنها حتى تلصق بالسور وكانوا اذا ارادوا جذبها جذبوها بالحبال . فاحرق المسلمون منها ثلاثة ابراج وبعث الله تعالى ريحاً صرصراً توجهت نحو المدينة فسلمت بقية الابراج

ووصل في تلك الاثناء ملك الالمان الى قسطنطينية فشبطه

على برج من الابراج سبع عرادات واوفد ملك انكلترا الى صلاح الدين يقول أرى ان نجتمع ونتحادث في ما يعود بالفائدة على الطرفين فاجاب صلاح الدين يجب ان يتأكد امر الصلح بادىء بدء ثم نجلس للمحادثة اذ لا يجمل القتال بعد الحديث والضيافة . غير ان رشرد مرض مرضاً عضالا ثبط الفرنج عن استئناف الحرب . ولما تعافى ارسل الى صلاح الدين رسولا ثانيا يقول : لا تعتب عليَّ لتأخري عن الجواب فقد عاقني المرض والان فقد تعافيت فان احببت ارسلت اليك الهدايا والتحف لانه من شيم الملوك ان يتبادلوا الهدايا والوفود وعبارات الولاء حتى وقت نشوب الحرب على ما علّمتنا قوانين آبائنا من قبلنا . فاجابه صلاح الدين رضينا بقولكم على ان تقبلوا منا هداياانا . فقال له الرسول ان عندنا بواشق ونسوراً وطيوراً وحمام زاجل ادركها الضعف فاعطونا دجاجا وزغاليل من عندكم تقتات بها وتتقوى فنحضرها اليكم . فتبسم العادل وقال بما ان ملك انكلترا ابلّ من مرضه فلا ريب انه يحتاج الى زغاليل

ثم ان صلاح الدين وشح الرسول حلة ملكية واوفد معه الى الملك طائفة من الدجاج والحمام والزغاليل . وبعد ذلك سار الى صلاح الدين ثلاثة من الفرنج وطلبوا ثماراً وثلجاً فاعطاهم

وعادوا. قيل ان الملك رشرد ما قصد بذلك الا ليتجسس احوال العسكر

ولما اشتد الحصار ارسل اهالي عكا يقولون لصلاح الدين ارسل الينا مساعداً والا سلمنا المدينة وكان صلاح الدين يحاول تعويق الفرنج . غير ان الفرنج انقسموا فرقتين اخذت الفرقة تحارب داخل المدينة والثانية خارجاً عنها . فلما رأى الاهالي انهم عما قليل ينكسرون طلبوا الامان فرفض الفرنج وقالوا لسنا نؤمنكم الا بعد ان يردّ لنا سلطانكم جميع الاسرى ويرجع الينا المدن التي اغتصبها منا . فاخبروا بذلك صلاح الدين فقال اني اطلق لهم ثلاثة الاف اسير بدلا من مسلمي عكا واذا تركوا لي المدينة اعطيتهم مدينة اخرى عوضاً عنها والا فليناز لونا بالسيف ان استطاعوا كما حاربت انا وملكت مدنهم. فاغتاظ الفرنج وبادروا الى السلالم وتسلقوا السور وانحدروا الى المدينة ووضعوا السيف في من فيها وذبحوا كثيرين وجمعوا الباقين جانباً فاستمهلوهم ريثما يخبرون السلطان ويسألونه ان يفتديهم بالذهب وبالاسرى الفرنج . فوافق الفرنج وامهلوهم اربعة عشر يوماً بشرط ان يؤدوا لهم مائتي الف دينار ذهباً ويطلقوا مائة اسير ممن يدرجون لهم اسماءهم من الوجهاء والاعيان والولاة والفاً وخمسمائة من سائر الجنود . ولما بلّغوا

الشروط صلاح الدين اجتمع بعظماء دولته وشاورهم فقالوا : ان هولاء المسلمين هم اخوتنا ولا يجمل بنا ان نغتمض عنهم . فرضي بذلك وارسل الى النواحي وجمع اسرى الفرنج وتعهد بدفع الذهب ثلاثة اقساط في كل عشرة ايام قسطاً . ولما تمت الايام العشرة ارسل يقول لهم اطلقوا جميع المسلمين نؤدّ لكم الثلث ذهباً والثلثين رهائن . او تعطونا انتم رهائن على الثلث الذي نؤديه لكم . فقال الفرنج كلامنا وعهدنا يقوم مقام الرهائن . فاستغلظ صلاح الدين كلامهم ورفض طلبهم وقسى الله قلبهُ فلم يرد ان يطلق الاسرى الفرنج وكانوا من الامراء النبلاء[١] . فامتعض ملوك الفرنج وسخطوا على جميع المسلمين واوثقوهم واخرجوهم ظاهر البلد الى التل وكوموا حولهم الحطب والحبال والبراميل كالسور واستلوا السيوف وقتلوهم جميعاً[٢] وكاتب الديوان يشاهدهم . فكان عدد القتلى على الاسوار وضمن المدينة وفي التل مائة الف وثمانمائة . وتم ذلك في رجب الموافق لآب ١١٩١[٣]

قال ابن العبري اننا اسهبنا الكلام عن حصار عكا لما له

---

(١) م ٧٣٥ (٢) وكان عددهم خمسة وعشرين الفاً واحرقوهم م ٧٣٥ (٣) قال الراوي ان حصار عكا استغرق سنتين كاملتين وان المسلمين قتلوا نصارى عكا باجمعهم ص ٤٨٥ و٤٨٦

من الشهرة عند المسلمين وقد كتبوا مجلدات في وصف ما كابدوه من الضيقات هذه المرة

وروى ابن العبري عينه في تاريخ الدول العربي (ص ٣٨٦ — ٣٨٧) ان سيف الدين الهكاري المعروف بالمشطوب امير عكا لما راى ان صلاح الدين لا يقدر للمسلمين على نفع ولا يدفع عنهم ضراً خرج الى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه باموالهم وبذل لهم عن ذلك مائتي الف دينار وخمسمائة اسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت واربعة عشر الف دينار للمركيس صاحب صور فاجابوه الى ذلك وان تكون مدة تحصيل المال والاسراء الى شهرين . فلما حلفوا له سلّم البلد اليهم فدخله الفرنج سلماً واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى اموالهم وحبسوهم الى حين ما يصل اليهم ما بذل لهم وراسلوا صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم . فشرعوا في جمع المال وكان هو لا مال له انما يخرج ما يصل اليه من دخل البلاد اولا باول فلما اجتمع عنده من المال مائة الف دينار اشار الامراء بان لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على الاطلاق من اصحابه . فقال ملوك الفرنج : نحن لا نحلف انما ترسل الينا المائة الالف ديناراً التي حصلت والاسارى والصليب ونحن نطلق من اصحابكم من

نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال فنطلق الباقين منهم . فلم يجبهم السلطان الى ذلك

فلما كان يوم الثلاثا ٢٧ رجب ركب الفرنج وخرجوا ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون اليهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن موقفهم فاذا اكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف وقتلوهم واستبقوا الامراء ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم واصحابهم ومن لا مال له . فلما راى صلاح الدين ذلك رحل الى ناحية عسقلان واخربها

اما الفرنج فساروا الى قيسارية واخذوها ورمموا يافا وكان صلاح الدين قد هدمها واقاموا فيها حامية وساروا الى عسقلان ورمموا اسوارها ورتبوا فيها اقواماً منهم [١]

وفي السنة ١١٩٨ رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا في عمارتها . وفي تلك السنة عقدت الهدنة بين صلاح الدين والفرنج لمدة ثلاث سنين وثمانية اشهر اولها يوم اول ايلول [٢]

قال ابن العبري . بعدما اخذ الفرنج عكا رتبوا فيها عسكرا كافياً لحراستها وبنائين يرممون سورها [٣] وساروا الى

---

(١) م ٧٣٥ (٢) تشرين الاول م ٧٣٥ (٣) واستعملوا عليها هنري ابن ملك انكلترا م ٧٣٦

صلاح الدين الايوبي

ارسوف وتبعهم صلاح الدين وكانوا يتحرشون ببعضهم يوماً فيوماً . وفي ذات يوم تعرَّض المسلمون لاثقال الفرنج فاحتدم ملك انكلترا سخطاً وحمل عليهم وشتتهم قاطبة ولم يبق مع صلاح الدين سوى سبعة عشر رجلاً من كبار المسلمين والعازفين بالابواق وحاملي الرايات . ولولا خوف الفرنج من كمين يترصدهم لقبضوا على صلاح الدين عينه وقوضوا عماد المسلمين

٥٧

رشرد ملك انكلترا وصلاح الدين

لم يرَ صلاح الدين الاّ ان يجيب الى رغائب الفرنج فدفع لهم قيمة ما انفقوه على اسوار عسقلان وراح فقوضها وجعل عاليها سافلها واخلاها من السكان وارسل البنائين الى بغراس ليخلوا قلعتها من الذخائر فحمل عليهم لاون صاحب قليقيا فانهزموا وسمع الانطاكيون بهزيمتهم فقصدوا قلعة بغراس ولقوا فيها اثني عشر الف مكوك قمحاً فحملوها الى انطاكية مسرورين اذ كان الجوع قد ضايقهم . فاقبل لاون بعد ايام وحارب الفرنج وملك بغراس . اما صلاح الدين فسار الى اورشليم ودبر شؤونها وعزز سورها ووضع فيها الحامية

ثم ان ملك انكلترا ارسل الى صلاح الدين يقول : ان الحروب أفنت اصحابنا واصحابكم وارتوت بالدماء سيوفنا وسيوفكم فالى مَ نستمر على هذه الحال . ردّ الينا ما اغتصبته من بلادنا ولاسيما اورشليم مقام عبادتنا التي لاجلها غادرنا اوطاننا فاذا عدنا اليها ارتحنا وارتحتم . فكتب له صلاح الدين ان هذه البلاد لم تكن لكم فيما سلف بل للروم ومنهم اخذها المسلمون ولما ضعفوا اقبلتم انتم واخذتموها منهم فعدنا نحن واسترجعنا بلادنا . اما قولكم ان اورشليم مزاركم فهي مزارنا ايضاً نعتبرها اكثر منكم على ما يأمرنا الله في القرآن

ثم ارسل ملك انكلترا الى صلاح الدين يقول اريد ان يصاهرني اخوك الملك العادل فازوجه اختي القادمة معي لتسجد في اورشليم فاذا تنازلت لاخيك عن مدن الساحل والقلاع وتخلى هو عن القرى للرهبان الفرير الاسبيتاليين تم الاتفاق على هذا الزواج . وانا اعطي اختي جميع مدن الفرنج الساحلية ويكون مقامها في القدس . فلم يرضَ صلاح الدين بذلك . بيد ان اخاه العادل كلف بالفتاة وارسل يقول لابيه ليرضى بالشرط فأبى . فقال له ارباب دولته اننا نعلم ان هذا الاقتراح مستحيل لان بنت الملوك لن تتزوج بمسلم بتة واخوها الملك يعرف ذلك حق المعرفة ولعله كتب ما كتب على سبيل الفكاهة كعادته

فنرى ان تجيب الى طلب اخيك . فارسل صلاح الدين وفداً على رغم منه الى ملك انكلترا في الرضى . فامسك رشرد الرسول ثلاثة ايام ثم قال له هذه ثلاثة ايام ألح والحف على اختي واتوسل اليها لترضى بالزواج فلم ترض بل شرطت ان ينتصر العادل فتتزوج به . فعاد الرسول مخذولا

ولما كان الفرنج والمسلمون على طريق عسقلان كمن المسلمون لبعض الفرنج وكانوا قد خرجوا يلتقطون حطباً فما لمح الفرنج الكمين حتى ركبوا خيلهم وادركوه بغتة وقتلوا ثلاثة من عظماء صلاح الدين وقبض المسلمون على فارسين فرنجيين . فاوفد ملك انكلترا الى العادل يعاتبه ويريد مواجهته واعدّ له خيمة كبيرة ظاهر المعسكر فسار اليه العادل وقضى عنده يوماً كاملاً وعاد وقت العشا الى محله . ولما ودعه الملك قال له اريد ان احادث اخاك صلاح الدين واشاهده في هذه الخيمة عينها . غير ان صلاح الدين رفض الطلب لسببين اولهما لخوفه وثانيهما لانه لم يرَ ذلك موافقاً وكتب اليه يقول : الخليق بالملوك ان لا يجتمعوا الا بعد عقد الهدنة وتأييد الامان والامان لم يتأيد بعد . واذا افترضنا حصول الامان فانا لست افهم مغزاه ولا هو يفهم مغزاي . ولما كان من الضرورة ان يتوسط بيننا ترجمان فليكن الرسول ذلك الترجمان ولا حاجة

الى الملاقاة . ولما اقبل الشتاء عاد ملك انكلترا الى عكا وسار صلاح الدين الى القدس واوفد ٢٤ الف دينار ذهباً الى الفرنج واعتق الاسراء المسلمين

وفي السنة ١١٩٢ زحف الفرنج الى عسقلان ليرمموها وكان المركيس صاحب صور مختلفاً مع ملك انكلترا لان هذا كان مصمما ان ياخذ منه صور . فارسل المركيس الى صلاح الدين في الصلح وفي مقاتلة الفرنج . فثار وقتئذ على المركيس رجلان اسمعيليان تزيا بزي الرهبان وطعنه احدهما بالسكين وفر الاخر الى كنيسة قريبة ثم حمل الفرنج المركيس الى تلك الكنيسة فوثب الاسمعيلي الثاني وفتك به ضمن الكنيسة فقبض الفرنج على الاسمعيليين ونكلوا بهما فادعيا ان ملك انكلترا هو الذي سيرهما ليقتلا المركيز فوثق الفرنج بقولهما لسبب الاختلاف الذي كان حدث بين الملك والمركيس . غير ان الحق انجلى اخيراً وعرفوا ان سينان رئيس الاسمعيليين هو الذي كان قد ارسلهما ليفتكا بالمركيس

اما رشرد ملك انكلترا فولى على صور الكونت هنري ده شمبانيا فتزوج الكونت بارملة المركيس وساس المملكة خير سياسة

وسار الفرنج الى اروم واحتلوها من المسلمين حرباً وقتلوا

من فيها . وتعرض الفرنج يومئذ لقافلة من المسلمين قادمة من مصر معها ذهب لصلاح الدين . وبلغ صلاح الدين ان الفرنج متاهبون للزحف الى اورشليم في جيوش جرارة فحشد عسكره وتأهب للحرب وعزز الاسوار . غير ان ملك انكلترا ثبط الفرنج عن الزحف مبرهناً لهم ان البلد خالٍ من الماء وان المسلمين قد افسدوا المياه التي في ضواحي بيت المقدس والنهر بعيد عنها فرسخاً وكسوراً فضلا عن ان القدس ليست كعكا . الى ان قال اننا لولا البحر لتعذر علينا حصارها . فوافق الجميع على براهينه وقصدوا غزة

ثم اوفد الملك الى صلاح الدين بقول لا يغلبن على ظنك اني نزحت عن القدس خوفاً او ضعفاً . كلا . فان الكبش لا يعود القهقرى الا ليضرب الراس ويصيبه . فان رأيت ان نعقد الهدنة على ما نطلب فذلك خير لك وقد سبقت واخبرتك

وعلى اثر مبادلة الملكين بالرسائل الشتى عُقد الصلح بين الفرنج والمسلمين على ان تبقى بلاد الفرنج للفرنج اعني يافا وضواحيها وقيسارية وارسوف وحيفا وعكا وانطاكية وطرابلس . وتبقى سائر البلاد للمسلمين . اما عسقلان فتبقى خراباً . ودفع السلطان للفرنج جميع ما انفقوه على ترميمها

وفتحت الطرق يومئذٍ وجعل الزوار الفرنج يتوافدون زرافات

الى زيارة بيت المقدس فبالغ صلاح الدين في اكرامهم وبذل لهم المواهب والعطايا واعطاهم الخيل لركوبهم . قيل ان ملك انكلترا ارسل الى صلاح الدين يقول . كل فرنجي لا يحمل رايتي لا تدعه يدخل القدس . فاجتمع صلاح الدين بالعقلاء واستفسرهم عن تلك الراية فقالوا ان الفرنج لا يقبلون الى اورشليم الا للسجود فيها فاذا زاروا وسجدوا وعادوا الى اوطانهم تمت رغبتهم . فلما عرف ذلك صلاح الدين كتب الى الملك يقول : ان هؤلاء الزوار غرباء لا يحمل بي ان اسيء اليهم بعد عقد الهدنة . فاذا اردت انت ان تمنعهم عن الحج فلست اخالفك

ثم ان الفرنج بعد احتلال عكا اوثقوا ابن المشطوب وقرقوش الخصي رئيس قواد عكا وحتموا على الخصي ان يؤدي لهم ثمانية الاف دينار فقال لهم الخصي بكم اعتقتم ابن المشطوب قالوا بثلاثين الف دينار . قال اودي مثله

ولما تم عقد الصلح سار صلاح الدين الى بيروت فاقبل الى زيارته البرنس بيموند صاحب انطاكية فتعجب السلطان من قدومه اليه دون وجل . فاكرم وفادته ووشحه ووشح اصحابه الاربعة عشر بحلل ملكية وتنازل له عن نصف ربع بلاد انطاكية التي احتلها المسلمون . وسرّحه بسلام . وانطلق صلاح الدين

الى دمشق . وعاد ملك انكلترا الى بلاده . وقيل انه توفي في الطريق[١] . ومات صلاح الدين في دمشق على اثر حمى تفئودية ليلة الاربعاء رابع اذار ١١٩٣[٢] وفيها توفي همري البطريرك الانطاكي في قلعة القصير وحملوا جثمانه الى انطاكية ولحدوه في الكنيسة الكبرى وسموا زنقل الكاهن الشيخ خليفة له[٣] . وفيها ايضاً احتال لاون الارمني على البرنس بيموند صاحب انطاكية وقبض عليه واوثقه واوثق امراته وابنه ونكل بهم وظلوا مسجونين عنده زماناً حتى سار هنري صاحب عكا ابن اخت ملك انكلترا واستفكه بالوعد والوعيد . وقوي امر لاون واشتد ساعده فاستولى على ٧٢ قلعة احتل بعضها من الروم وبعضها من الترك[٤]

٥٨

تتبع زحفات الفرنج واحتلالهم قسطنطينية

وفي السنة ١١٩٦ تحرش الملك العادل بالفرنج مدعياً ان الصلح قد ألغي بوفاة ملك انكلترا . فقصد يافا في عسكره

---

(١) لا بل وصل الى وطنه وفيه توفي عام ١١٩٩ (٢) الرهاوي في شباط ١١٩٣ (٣) م ٧٣٧ (٤) ع ٣٩٧

وعسكر مصر واحتلها عنوةً وقتل من فيها من الرجال واستاق النساء والفتيان عبيداً[1] فاستنجد الفرنج باصحابهم فسارعوا اليهم في جيش كثيف يقوده رجل من الاقايرس اسمه شنسلير ووصلوا الى تبنين قرب صور وكادوا يملكونها لو لم يفاجئهم الخبر بان هنري صاحب عكا سقط من جدارٍ عال ومات . فاجلوا الحرب وارسلوا في استحضار صاحب قبرص وزوجوه بامراة هنري القتيل . فعقد الصلح مع العادل مشترطاً ان تكون بيروت للفرنج وتبنين للمسلمين . وبعد هذا سار العادل الى الرها وظل الملك العزيز صاحب مصر مستولياً على اورشليم

قال الرهاوي (ف ٥٠٠ ص ٤٧٦) كتبنا هذه الحوادث الى هذا اليوم من السنة ١٢٠٣ سائلين الرب ان يساعدنا برحمته . وينعم بالامن والسلام على شعبه وبيعته . غير ان هذا المؤرخ الهمام كتب بعد ذلك فصولا شتى اضافها الى تاريخه سنثبتها في محلها

وعام ١٢٠٣ زحف ملوك الفرنج الى بلاد المشرق يريدون مساعدة النصارى واسترجاع اورشليم ان تيسر . فوصلوا الى قسطنطينية وحصروها ودوخوها في نيسان ١٢٠٤ . والسبب في ذلك ان ملك الروم كان قد تزوج باخت الملك فرينس (فرنسيس) فولدت له ابناً واختلف عليه اخوه ففقأ عينيه وزجه

(١) الرهاوي ٤٩٠

في السجن حيث قضى اجله . فانهزم ولي العهد يريد خاله فرينس واخبره بما جرى فامتعض فرينس وجهز العساكر وقصد قسطنطينية . وكان الاهلون يحبون الملك الخليع فاحرقوا العاصمة لسببه . ولما وصل الفرنج تسلقوا الاسوار ودخلوها فانهزم القاتل واختفى . فسمى الفرنج ولي العهد ملكاً بالاسم وتولوا هم الحل والعقد وضيقوا على الاهالي وخسروهم اموالا كثيرة ونهبوا صلبان الكنائس وامتعتها وجميع ما كان ملطوخاً على ظهر الاناجيل من الفضة والذهب . فسخط الاهالي على الفتى المتملك وفتكوا به واخرجوا الفرنج عن المدينة واغلقوا الابواب وجعلوا يقاتلونهم

قال ابن العبري[1] انه في السنة ١٢٠٣ ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم . واقام الفرنج بظاهرها محاصرين للروم من شعبان الى جمادى الاولى . وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين نحو ثلثين الفاً ولعظم البلد لا يظهر امرهم . فتواطأوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه والقوا النار فاحترق نحو ربع البلد . فاشتغل الروم بذلك ففتح الفرنج الابواب ودخلوها ووضعوا السيف ثلثة ايام وقتلوا حتى الاساقفة والرهبان والقسيسين الذين خرجوا اليهم من كنيسة

(١) تاريخ الدول ٣٩٦

اجيا صوفيا العظمى مع بطريركهم وبايديهم الاناجيل والصلبان وجثوا امامهم يتوسلون بهـا ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم اجمعين ونهبوا الكنيسة . وكان الفرنج ثلثة ملوك ذوقس البنادقة وفي مراكبه ركبوا الى القسطنطينية وهو شيخ اعمى اذا ركب يقاد فرسه . والثاني المركيس مقدّم الافرنسيس . والثالث كندافلند (او هو بغدوين ده فلندر الذي اختاره الصليبيون ليكون اول ملك للملكة التي انشأهـا الفرنج في قسطنطينية ودعي بودوين الاول) والمركيس هو بونيفاس الثاني مركيس ده مونتفرات وهو اكثرهم عدداً فلما استولوا اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلنـد فملّكوه عليها . وتكون لذوقس البنادقة الجزائر مثل اقريطش ورودس وغيرهما . ويكون للمركيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل نيقية ولاذيق وفيلادلف ولم تدم له فانهـا تغلّب عليها بطريق من بطارقة الروم اسمه لشكري

وفي السنة ١٢٠٦ استولى غياث الدين كيخسروا على انطاليا بساحل البحر في ٣ شعبان . فارسل الروم الذين فيها الى قبرس القريبة واستحضروا منها الفرنج ليساعدوهم . فابتعـد كيخسروا وكمن لهم في الجبال واخذوا يقبضون على كل من يخرج ظاهراً . ولما طال الحصار ارسلوا الى كيخسروا في الامان

وسلموه المدينة . واتفق الترك والروم معاً على مقاتلة الفرنج فاستولى السلطان على قلعة انطاليا واعتقل الفرنج

وفي السنة ١٢٠٧ خرج الفرنج من طرابلس الى حمص وعاثوا بلدها ولم يقوَ صاحبها اسد الدين على مقاومتهم. وواصل الفرنج زحفتهم فغزوا البلاد حتى الاردن وقتلوا عدداً غير يسير من المسلمين وقصدوا حماة وقاتلوا ناصر الدين صاحبها وملحطحوه . فخرج الحمويون لقتال الفرنج ففتك بهم الفرنج عامة فارسل الملك العادل يطلب الامان وتخلى للفرنج عن الناصرة وعن جميع البلاد التي كانت غلاتها توزع على الفرنج والمسلمين معاً

٥٩

انوكنتيوس الثالث الحبر الروماني والحرب الصليبية

مصادمة الفرنج والعادل · خلافة روبين في انطاكية

وفي السنة ١٢١٦ اوفد البابا الروماني انوكنتيوس الثالث † ١٢١٦ الى جميع ملوك الفرنج وحتم عليهم حتماً جازماً واستحلفهم بالله ان يحشدوا عساكرهم ويزحفوا الى اورشليم المدينة المقدسة ويعتقوها من ربق المسلمين . فاجتمع امم الفرنج وحشدوا الجنود وركبوا

البحر الى عكا . فبادر العادل الى اورشليم وخرج الفرنج من عكا الى مكان يقال له مغارة اللصوص كان العادل يريد ان يسبقهم اليه ولكنه عجز عن مصادمة الفرنج فارتحل الى باسان فبلاد دمشق ينتظر وصول بقية العساكر . فغزا الفرنج جميع بلاد باسان وبانياس وقتلوا وأسروا وعادوا الى مرج عكا في غنائم لا تحصى . قيل ان العادل لما خرج من باسان صادف شيخاً حاملاً حملة يسير ساعة ويستريح ساعة فدنا منه وقال له ما بالك تستقتل يا رجل لا تستعجل . قال الشيخ اذهب قل للسلطان ان لا يستعجل لانه لولا استعجاله لما استعجلت انا بل ما خرجت من بيتي قطعاً . فخجل العادل وتركه وانصرف

وفي تلك السنة مات البرنس بيموند صاحب انطاكية وخلف ابناً دعاه روبين باسم روبين ملك الارمن جده . وكان حق روبين ان يخلف اباه في المملكة لكن عمه اغتصبها فشق ذلك على لاون شقيق جد الفتى فاقبل الى انطاكية واراد الاهالي على تسمية ابن بنت اخيه ملكاً فكان كما قال . غير ان روبين بعد ما ملك انطاكية اخذ يتكبر ويتجبر وافضى به نكران الجميل الى الاحتيال على لاون والفتك به والاستيلاء على قليقيا . لكن الرهبان الفرير بلغوا لاون الملك خبث نية روبين ففر منه ونجا دون اذىً

غير ان فريدس عم روبين ضيق عليه واحرجه ان يغادر انطاكية فقصد هنري جوان (جان ده بريان سفير البابا الروماني) في دمياط وظل عنده حتى وفاة لاون عام ١٢٢٠ وكان لاون هذا بطلاً مقداماً منجذاً بالحروب

٦٠

زحفة الفرنج الى دمياط

وفي السنة ١٢٢٠ زحف ملك هنغاريا[1] يتبعه لغرد سفير البابا اونوريوس الثالث (١٢١٦–١٢٢٧) في جيوش كثيفة الى سواحل البحر فوصلوا الى عكا وامتلكوها ثم ركبوا السفن والقوارب الى دمياط فوصلوا الى بر بيزة والنيل بينها وبين دمياط وحصروها وابتنوا برجاً خشبياً عجيباً وضعوا فيه قوماً من ابطالهم وشادوا معاقل وحصوناً شتى وظلوا يحاصرون سنتين كاملتين براً وبحراً وهم محيطون البلد احاطة الخاتم بالاصبع يحرّجون الخروج على الاهالي ظاهراً

وكان المسلمون قد ابتنوا برجاً شاهقاً في قلب النيل وضعوا فيه حامية يصدون الفرنج عن المرور والدخول الى دمياط .

(١) الرهاوي ٥١٧ .

فاصلى الفرنج ذلك البرج ناراً حامية مدة اربعة شهور وملكوه وقتلوا من به وقطعوا السلاسل التي على النيل . ولما راى الكامل ذلك وهو واقف في الناحية الثانية عقد جسراً عظيما مكان تلك السلاسل فعالجه الفرنج ودكوه . فاستحضر الكامل سفناً عظيمة ثقبها وغرقها في ذلك المحل فلم يعد يتيسر للسفن ان تعبر فوقها

اما الفرنج فحفروا خندقاً كبيراً عميقاً في الناحية الثانية وثغروا فيه ثغراً واجازوا غديراً كبيراً في تلك الترعة مخرت فيه سفنهم حتى بلغت سور دمياط واخذوا يحاربون وهم في الماء فلم يعبأ بهم المسلمون خصوصاً لان الذخائر كانت تردهم دون انقطاع . وحين ذلك فاجأ الكامل الخبر بوفاة ابيه العادل في دمشق في ٧ جمادى الاخرة وله من العمر ٧٢ سنة وان الامير ابن مشطوب واصحابه اتفقوا على تسمية الفائز ملكاً في مصر . فانزعج الكامل عن دمياط فتشدد الفرنج ونزلوا الى البر وغزوا الاثقال المتبقية في الخيم وحصروا دمياط براً وبحراً وطال الحصار نحو تسعة اشهر . فيئس الاهالي وعادنوا الفرنج وسلموهم المدينة صلحاً . فاطلق الفرنج لهم الحرية في البقاء او الرحيل فبقي كثيرون وارتحل غيرهم في اموالهم وذخائرهم

وحدث في دمياط اثناء الحصار غلاء وقحط شديد حتى اضطر الاهالي ان يأكلوا لحوم الحيوانات الميتة وعجزوا عن

الحرب . واضاف الرهاوي[1] ان الفرنج اخذوا المدينة بالسيف وقتلوا خلقاً كثيراً واحتووا على شيء كثير من الذهب والفضة والامتعة والاواني مما يفوق الحد والعد

اما الكامل فانه سخط على الفرنج وتخوف شجاعتهم معتقداً انهم اذا حملوا على القدس استرجعوها بلا ريب واتخذوها معقلاً فاصدر الاوامر الى المعدم فقوض اسوارها ولم يدع فيها حجراً على حجر حتى امست كتل خراب واشفق على كنيسة القيامة وعلى هيكل سليمان[2]

وبعد ما ملك الفرنج دمياط حصل نزاع بين ملك هنغاريا وبين لغرد سفير البابا الروماني فان السفير بلغ الملك ان الفرنج لن يتخلوا له عن دمياط وعما يحتلونه من بلاد المسلمين. فاضطر ذلك الملك ان يعود في جنوده الى بلاده . فحمل لغرد وملك عكا والرهبان الفرير الاسبيتاليون في عساكر السواحل الى بلاد المسلمين وعاثوها واتلفوها نهباً وتخريباً وخاف المسلمون سطوتهم خوفا شديداً

وفي السنة ١٢٢١ كان اجتماع الملك المعظم والملك الاشرف مع نجدة صاحب ماردين وعسكر حلب والملك الناصر صاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص واتصال الجميع بالملك الكامل

(١) ف ٥١٧ (٢) الرهاوي في ٥١٨

على عزم قصد الفرنج ورد دمياط منهم . فاحاطوا بهم وضيقوا السبيل عليهم فاجابوا الى الصلح على تسليم دمياط واطلاق ما بايديهم من اسراء المسلمين واطلاق ما بايدي المسلمين من اسراهم . وقرّر الصلح عاماً مع الدكاد نائب البابا (رئيس الجنود الفرنجية وجوان ملك اورشليم) وملك فرنجة ومقدمي الدواوية والاسبتارية . وتسلم الكامل دمياط يوم الاربعاء تاسع عشر رجب . وكانت مدة مقام الفرنج بها سنة كاملة واحد عشر شهراً[1] فذهبت اتعاب الفرنج دون جدوى

وزاد ابن العبري في تاريخه السرياني ان الملك الكامل قبل وصول النجدات اليه كان يلحّ على الفرنج ويتوسل اليهم في الصلح راضياً ان يعيد اليهم اورشليم وعسقلان وطبريا وصيدا وجبلة واللاذقية لكن الطمع غلبهم فطلبوا علاوة على ذلك قلعة الكرك وثلاثمائة الف دينار بدلا من اسوار اورشليم التي امر بتقويضها . فاستدعى من ذكرنا من الاطراف وحملوا على الفرنج واسترجعوا دمياط . وخسر الفرنج فوق ذلك نصف ما كانوا يتقاضون من غلال حمص . وخسر الفرير الرهبان ايضاً نصف غلال بارين

ووصف الرهاوي تلك المعركة (ص ٥١٨) قال : لما

(١) تاريخ الدول ص ٤١٣

اصطف الجيشان للقتال فتح المسلمون طريقاً للفرنج ليتزحزحوا عن دمياط . وما كادوا يبتعدون عنها حتى استعجل المسلمون والتفوا بمعسكر الفرنج ووضعوا فيهم السيف حتى الساعة التاسعة وظل الجيشان يتحاربان طيلة النهار فانهزم الفرنج الى تل عال فاحدق بهم المسلمون وحفروا حول ذلك التل خندقاً اجازوا به مياه النيل فامتنع العبور على الفرنج وظلوا محاصرين ثلاثة ايام يضايقهم الجوع ويفتك بخيلهم . وحاول بعض المسلمين ان يقتلوا جميع الفرنج الذين ظاهر التل لكنهم قالوا اذا اتلفناهم تعذر علينا اخذ المدينة ممن هم ضمنها وهم اقوياء اشداء معهم سلاحهم والذخائر ترد اليهم من البحر . فارسلوا الى الفرنج يقولون سلمونا المدينة نتعهد بان لا نلحق اذى باحد منكم . فسرّ الفرنج واقسموا للمسلمين في ذلك وردوا اليهم دمياط وعادوا الى بلادهم

٦١

الارمن والفرنج

واوفد الارمن عام ١٢٢١ الى فيليب بن فرينس (البرنس) الاعور وزوجوه ايزابيل بنت لاون ملكهم وولوه قليقيا .

فاساء السيرة فيهم وحاول ان يهلك عظماءهم وينصب مكانهم امراء فرنجاً . واخذ يبالغ في احتقارهم ويعتبرهم كفلاحين لا يأذن لهم ان ياكلوا على مائدته او يدخلوا الى غرفته الا بعد ما يقرعون الباب بضع عشر مرات

فتميز الارمن غضباً ولجأوا الى بالي بارون قسطنطين وسألوه ان ينقذهم من دهاء فيليب . فارسل بالي اليه بعض الجلادين ليلاً فكبسوه في غرفته وهو راقد في فراشه وخطفوه من حضن الملكة . فجعلت تبكي وتعول وتخدش وجهها وتضج وتعج وتقول سير سير ذلك لفرط غرامها به . غير ان الضباط لم يكترثوا لعجيجها بل اوثقوا فيليب زوجها ومضوا به من تل حمدون الى سيس والقوه في السجن حيث ظل سنتين

اما فرينس ابوه فلم يرَ ان يسخط الارمن عليه خيفة ان يفتكوا بابنه فاوفد اليهم يسألهم اطلاقه فلم يجيبوا الى طلبه فسار الى تل حمدون واستدعى الارمن وطالبهم بابنه فقصدوا قلعة عمودا وارسلوا الى فرينس ليبعث في طلب ابنه . ولما عول على ذلك سمع البعض يقولون ان ابنك لن يعيش بعد اكثر من عشرة ايام لان الارمن قد سقوه سماً . فكان كما قالوا . فتركهم وارتحل وحده كئيباً ممتعضاً . وهددهم باخذ الثأر . وما عتم ان مات فيليب ودفن في مكان مجهول . فانقطع رجاء الملكة

امرأته وقصدت قلعة سلوقيا على ساحل البحر واستغاثت بالاخوة الرهبان الفرير اصحاب تلك القلعة فاكرموا مثواها حتى حضرت اليها امها من قبرس. وكانت امها هذه فرنجية بنت ملك تلك الجزيرة . ولما تزوجت ابنتها بفيليب اراد اهلها ان يزوجوها هي ايضا بالسير غوفري ابن البارون سنباط ابن البارون قسطنطين بالي . لكنها رفضت ذلك فنفوها الى قبرس. ثم حضرت الى سلوقيا عند ابنتها كما قلنا

وفي السنة ١٢٢٥ استدعى البارون قسطنطين بالي اغناطيوس الثالث بطريرك السريان (١٢٢٢—١٢٥٢) وقسطنطين جاثليق الارمن واوفدهما الى سلوقيا في استحضار ايزابيل بنت الملك لاون المذكورة فأبت ذلك عليه . فذهب البارون نفسه وسأل الفرير ان يسلّموه اياها قسراً عنها فرفضوا طلبه لانهم كانوا ملجا للمسيحيين . فاحتال بالي واشترى منهم القلعة بما فيها واخرجهم منها وملكها وقبض على الملكة واستاقها الى طرسوس على رغمها . واستدعى البطاركة والاساقفة والكهنة فكللوا ابنه هيتوم (اوتون) عليها ونادوا به ملكاً على قليقيا صباح احد العنصرة ١٤ حزيران ١٢٢٦ . بيد ان ايزابيل لبثت عشر سنوات لم تمكن هيتوم منها . وبعد هذا وافقته وولدت منه بنين وبنات

وعام ١٢٥١ توفيت ايزابيل[1] بنت لاون والدة لاون الثاني ملك الارمن المشهورة برحمتها وتواضعها . وقد كانت تسير في الكنائس حافية وعيناها تذرفان الدموع طول مدة الصلاة

وعام ١٢٧١ توفي حاتم ملك الارمن فاجتمع الاساقفة والوجهاء في طرسوس ونادوا بابنه لاون ملكاً يوم عيد الغطاس[2]

٦٢

استرجاع الفرنج بيت المقدس

وغادر الملك الكامل مصر الى دمشق عام ١٢٢٧ ليغتصبها من ابن اخيه . ولما وصل الى السامرة خرج اليه فردريك امبراطور النمسا الى يافا فهابه الكامل وتوقف عن اخذ دمشق وحضر اليه وقتئذ اخوه الاشرف ومجاهد صاحب حمص فمضى بهما الى تل العجول واوفد الى الامبراطور يستطلعه طلع امره فكتب اليه الامبراطور يقول انه ما زحف الى بلاد فلسطين الا غيرة على بيت الرب في اورشليم . وترددت الرسل بين الفريقين في عقد الصلح فاتفق الملك الكامل على تسليم البيت

(١) ع ٤٩٠ (٢) ع ٥٢٧

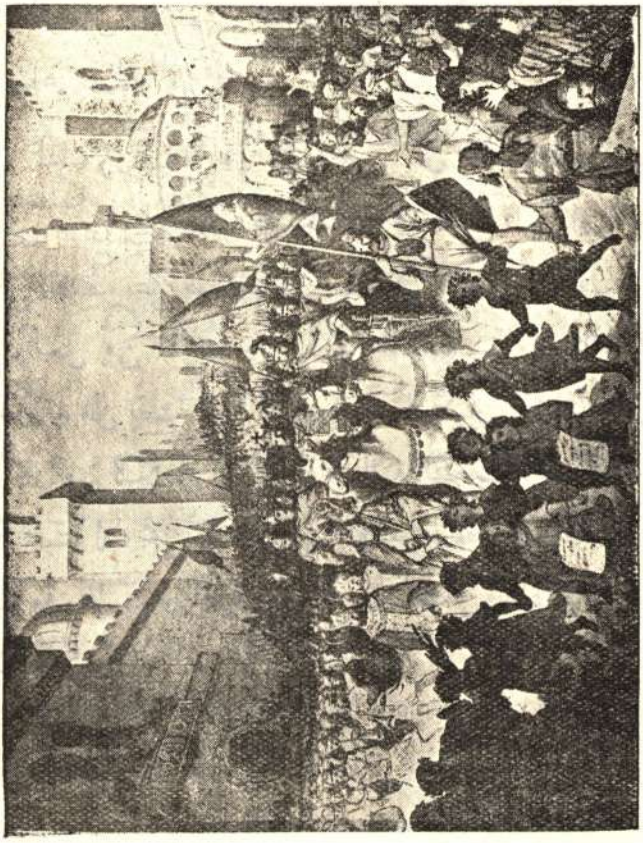

لاون ملك الارمن

المقدس الى الفرنج ومواضع كثيرة أُخر من بلاد الساحل . وانما اجابهم الكامل لما راى من كثرة عساكرهم وامداد البحر لهم بالرجال والاموال فخاف على بلاده ان توخذ عنوة فارضاهم بذلك[1]

اما مورخنا الرهاوي فقال[2] ان الامبراطور زحف في جيش عرمرم الى عكا وهو مختلف مع البابا الروماني الكبير والقى القبض على صاحبها ورحله في البحر . فخافه من في السواحل من الفرنج . واوفد المسلمون الى الملك الكامل يحذرونه من بطش هذا الامبراطور الكبير المحنك بالحروب . فما كان من الكامل الا ان اوفد اليه التحف والتقادم معرباً له عن محبته له وتخلى له عن بيت المقدس وعقد معه الصلح اعواماً معلومة . فاستولى الفرنج على بيت المقدس وعاد الامبراطور الى بلاده[3]

---

(١) تاريخ الدول ٤٢٧ (٢) ف ٥٢١ ص ٣٨٩

(٣) هذا آخر ما كتبه الرهاوي عن الصليبيين . اما ما يأتي فمنقول عن تاريخي ابن العبري السرياني والعربي

٦٣

بطريرك السريان في اورشليم وكشلكته . والرهبان الفرير وصاحب حماة

وتوجه في تلك الغضون اغناطيوس الثالث بطريرك السريان (١٢٢٢—١٢٥٢) في عدة من الاساقفة الى انطاكية فطرابلس فعكا فاستقبله الفرنج مرحبين به . ولما دخل اورشليم خرج للقائه الاخوة الفرير وحملوه على ايديهم لانه كان مصاباً بداء النقرس وطافوا به من باب العمود الى دير مريم المجدلية وكان يقطنه يومئذ سبعون راهباً من الرهبان السريان . فحل فيه البطريرك واساقفته . واتفق يومئذ ان توماس الراهب الحبشي قصد البطريرك اغناطيوس وسأله ان يرسمه مطراناً للحبشة خلافاً للقوانين المرعية . فامتعض الرهبان الفرير من معاملة البطريرك واقبل اليه رؤساؤهم الاجلاء ودخلوا ولم يسلموا عليه وقال له رئيسهم الاعلى : انما جئت الى اورشليم وقصدتنا كضيف غريب ولم تشتر المدينة او تتملكها بسيفك . ونحن استقبلناك واحترمناك طبقاً لوصية السيد المسيح . ومع هذا كله فانك بعدما استشرتنا في عملك المخالف للشرع ونهيناك عنه تسرعت واحتقرت كلامنا وشورنا . فعلامَ صنعت هذا قل لنا صريحاً . فتخوف البطريرك منهم واطرق صامتاً لا ينطق حرفاً

وامتقع لونه وابيضت شفتاه وحار في رد الجواب . فاشار المطران ديونيسيوس الى بطريركه ان يلقي عليه التبعة وهو يحتج عنه . غير ان البطريرك تشجع وقال لهم . حاشا لي ان اخالف كلامكم ولست بليداً فاقابل معروفكم بنكران الجميل وها هوذا الرسول الذي بعثته اليكم في هذه المسألة حي يرزق فانه هو الذي يلغي عن لسانكم ان اصنع ما يبدو لي موافقاً . فالتفت رئيس الرهبان وخاطب المطران وقال له أهكذا قلت لك . فقال له هكذا فهمت . قال الرئيس : السيد المسيح بيني وبينك . فنهض اعيان الفرنج وقالوا للرئيس يظهر انك انت والاسقف لم تفهما المسألة كما يجب ثم استغفروا البطريرك وانصرفوا

وعندنا ان رئيس الرهبان ما اقدم على توبيخ البطريرك الا لاعلانه الكثلكة وانضمامه الى الكنيسة الرومانية وارساله عام ١٢٤٠ الى انوكنتيوس الرابع صورة اعتقاده بالايمان الكاثوليكي . وقد جدد عهوده تلك عام ١٢٤٧ بالاشتراك مع المفريان باسيل يوحنا ابن المعدني مشترطاً ان يظل محافظاً على طقسه ولغته وعوائده وان لا يخضع لبطاركة الفرنج ولا يؤدي لهم العشور ولا يجبر ملته على اخذ سر التثبيت بعد العماد[1]

(١) اطلب كتابنا الزهرة الزكية ص ٦٩ و ٧٠

٦٤

الرهبان الفرير وصاحب حماة والسلطان غياث الدين والفرنج

وفي السنة ١٢٣٠ اوفد الرهبان الفرير الى صاحب حماة يطالبونه بما ترتب عليه من الدية البالغة الوفاً من الدنانير فلم يكترث لهم بل رفض طلبتهم بتاتاً . فاحتشد من ثم خمسمائة من فرسان اولئك الرهبان والفان وسبعمائة من رجالتهم وقصدوا حماة ليحتلوها فلقيهم تقي الدين وهزمهم فاجفلوا عنه[1]

وفي السنة ١٢٣٤ حصر السلطان علاء الدين مدينة الرها وملكها عنوة فدخلها الروميون ووضعوا السيف بها ثلثة ايام وقتلوا النصارى والمسلمين فتكاً ونهبا فاصبح الرهاويون فقراء لا يملكون شيئا ونُهبت البيع وأخذ ما فيها من الكتب والصلبان وآلات الذهب ... فلما عاد عنها عسكر الروم قصدها الملك الكامل وحاصرها اربعة اشهر ثم ملكها وهدم برجا كبيراً من ابرجة قلعتها وحمل من وجد بها من الروميين كل اثنين على جمل وبعث بهم الى مصر مقيدين[2]

---

(١) ع ٤٦٢ (٢) ع ٤٣٥

وفي السنة ١٢٤٠ ظهر ببلد اماسيا رجل تركماني ادعى النبوة وسمى نفسه بابا وارسل اسحق مريده فجمع اليه ستة الاف فارس غير الرجالة فحاربوا من خالفهم وقتلوا كثيراً من المسلمين والنصارى من اهل حصنمنصور وكاختين وجرجر وسميساط وبلد ملطية . فانفذ اليهم السلطان غياث الدين جيشا فيه جماعة من الفرنج الذين في خدمته فحاربوهم . وكان الجند المسلمون لم يتجرأوا عليهم ويحجموا عنهم لما توهموا منهم . فأخر الفرنج المسلمين وتولوا بانفسهم محاربة الخوارج فكشفوهم ورموا فيهم السيف وقتلوهم طراً واسروا الشيخين بابا واسحق فضرب عنقاهما وكفوا الناس شرهما[1]

٦٥

زحفة مار لويس التاسع ملك فرنسا

وفي السنة ١٢٤٩ خرج ريدافرنس (لويس التاسع) ملك فرنجة قاصدا للديار المصرية فجمع عساكره فارسها وراجلها جموعا عظيمة وازاح عليهم فسار عن بلاده باموال جزيلة وأهبة جميلة وارسى بعكا وانبث اصحابه في جميع بلاد الساحل . فلما

(١) ع ٤٣٩

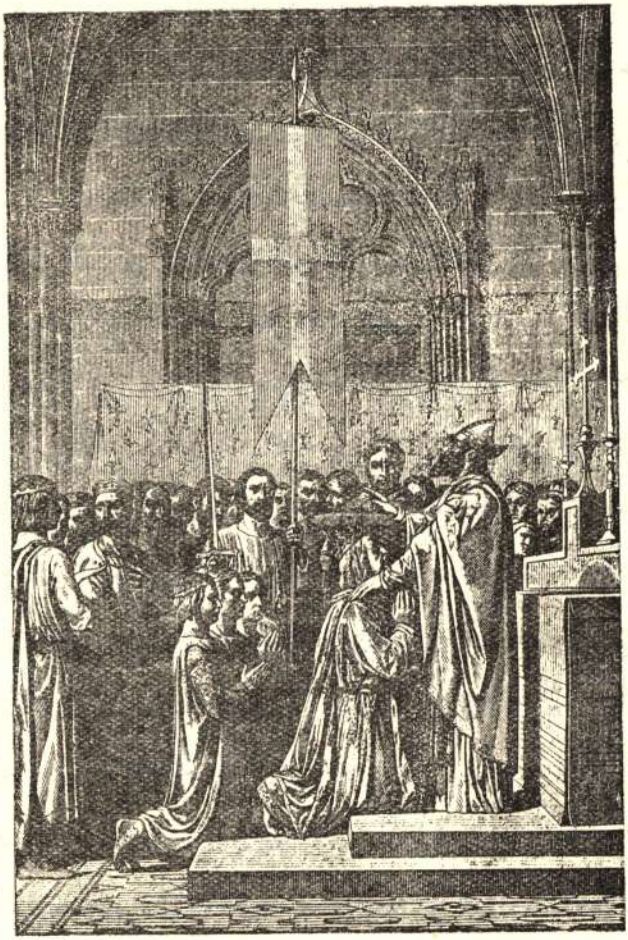

مار لويس التاسع ملك فرنسا يستمنح الاسقف البركة
قبل رحيله الى الحرب الصليبية

استراحوا جاؤوه حاشدين حافلين وساروا في البحر الى دمياط وملكوها بغير تعب ولا قتال لان اهلها لما بلغهم ما هم عليه الفرنج من القوة والكثرة والعدة الكاملة هالهم امرهم فرحلوا عنها مخفين . فوصل اليها الفرنج ولقوها خالية عن المقاتلين غير خاوية من الارزاق فدخلوها وغنموا ما فيها من الاموال .

وكان الملك الصالح يومئذ يحاصر مدينة حمص فلما سمع بان الفرنج قد ملكوا دمياط رحل عن حمص وسار مسرعاً الى الديار المصرية وخيم في احراج المنصورة الكثيفة الاشجار وحشد المسلمين من الاسكندرية والقدس واسوان . ومرض في الطريق وعند وصوله الى المنصورة عرض له في فخذه الداء الذي يسميه الاطباء غنغرانا . وبينما هو يكابد الشدائد وافاه مقدمو دمياط الذين اخلوها منهزمين فاستخبرهم هل ضايقكم الفرنج او قاتلوكم قالوا كلا بل خفنا ان يحدث لنا ما حدث في عكا يوم قتل الفرنج من قتلوا ولم يدافع عنهم احد . فلما استيقن انهم فروا عن دمياط من غير ان يباشروا حرباً وقتالاً عظم ذلك عليه فامر بصلبهم وكانوا اربعة وستين اميراً فصلبهم زوجاً زوجاً كل زوج على صليب واحد كما هم بثيابهم ومناطقهم وخفافهم . ثم مات من غد ذلك اليوم . وتولى بعده تدبير المملكة الامير عز الدين المعروف بالتركماني وهو اكبر المماليك الترك وكان

مرجوعه في جميع ذلك مما يعتمده من الامور الى حظية الملك الصالح المتوفي المسماة شجر الدر وكانت تركية داهية الدهر لا نظير لها فى النساء حسناً وفي الرجال حزماً . فاتفقا على تمليك الملك المعظم بن الملك الصالح . وكان يومئذٍ مقامه بحصن كيفا من ديار بكر فارسلا رسولا في طلبه وحثاه على المصير اليهم . فسار الى الديار المصرية من غير توقف فبايعوه وحلفوا له وسلموا اليه ملك ابيه

وفي السنة ١٢٥٠ سير ريدافرنس لويس التاسع ملك فرنسا عسكراً نحو الفي فارس نحو المنصورة ليجس بهم ما هم عليه المصريون من القوة . فلقيهم طرف من عسكر المسلمين فاقتتلوا قتالا ضعيفا فانهزم المسلمون بين ايديهم فدخل الفرنج المنصورة ولم ينالوا منها نيلًا طائلًا لانهم حصلوا في مضايق ازقتها وكان العامة يقاتلونهم بالحجارة والاجرّ والتراب وخيولهم الضخمة لم تتمكن من الجولان بين الدروب . وكان القائد لعسكر المسلمين فخر الدين عثمان المعروف بابن السيف احد الامراء المصريين شيخ كبير احاط به الفرنج وهو يصبغ لحيته فقتلوه هناك . وعادوا الى ريدا فرنس واعلموه بما تم لهم مع ذلك العسكر وبالمدينة . فزاد طمعه وطمع من معه من البطارقة ظانين انه اذا كان الالتقاء خارج الجدران بالصحراء لم يكن

للمسلمين عليهم مقدرة . فعبى جيوشه وسار بهم طالباً ارض مصر . فصبر المصريون الى ان عبر الفرنج الخليج من النيل المسمى اشمون بين البرين بر دمياط وبر المنصورة . فتوجهوا نحوهم والتقى العسكران واقتتل الفريقان قتالا شديداً . وانجلت الحرب عن كسرة الفرنج وهزموا افحش هزيمة ومنعهم الخليج المذكور من ان يفوزوا وينجوا بارواحهم فغرق منهم خلق كثير وقتل آخرون وأسر الملك ريدافرنس ومعه جماعة من خواصه واكابره . فلما حصل ملك الفرنج في قبضة الملك المعظم قال له المماليك الصغار اقرانه : اننا نرى الامر كله الى شجر الدر والامراء وليس لك من السلطنة الا اسمها فلو كنت في الحصن كنت ارفه خاطراً منك وانت صاحب مصر والحكم لغيرك والسبب في هذا ليس الا حاجتك اليهم في مقاومة الفرنج وليس لك عدو سواهم فالرأي ان تصالح هذا الملك ومن معه من امرائه الى اي مدة شئت وتستحلفه ان لا يجرد الفرنج سيوفهم على المسلمين لا هم ولا اولادهم ولا احفادهم الى مائة وعشرين سنة فانه لا يخالفك في جميع ما تريد منه اذا اصطنعته ووهبت له روحه وتاخذ منه الاموال والجواهر التي له في دمياط ويسلم اليك دمياط ويذهب في حال سبيله وتأمن شره وشر اهل ملته وتستريح من الامراء

واستخدام الجند وتبقي في ملكك من اخترت وتزيل من كرهت. فصغا المعظم الى قولهم واستصوب رأيهم ودبر الامر مع ريدافرنس واستحضره اليه ليلاً وحلفه كما اراد من غير ان يشاور الأمراء الكبار في شيء من ذلك وخلع عليه خلعاً كثيرة واطلقه

ولما كان الملك لويس مسجوناً واقت اليه البشائر بان

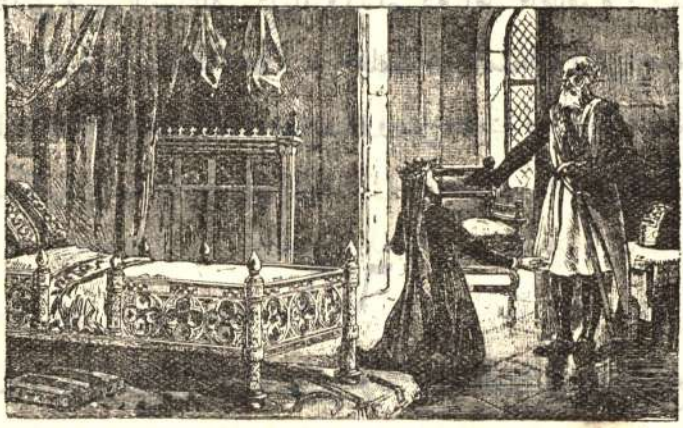

الملكة مرغريت تتوسل الى حارسها الجندي الشيخ ان يقتلها قبل وقوعها في يد العدو

قرينته مرغريتا وكانت في دمياط قد وضعت ولداً ذكراً. فلما بلغ ذلك المعظم اوفد اليه عشرة الاف دينار ذهباً وسريرا ذهبياً واقمشة فاخرة ملكية. فاحسوا بالقضية وتحققوا تغير المعظم عليهم وما قد نوى ان يفعل بهم فنقموا عليه ووثبوا به

فهرب منهم وصعد الى برج من خشب كان هناك فضربوا به النار فلما وصلت اليه وشاطته رمى نفسه الى الخليج النيلي . فجاؤوا اليه ورموه بالنشاب وهو في الماء فمات غريقاً جريحاً

واتفق الامراء الترك وقدموا عليهم اميراً منهم يلقب بعز الدين التركماني ونهضوا الى ريدافرنس وجددوا معه اليمين وافتدي منهم بالف الف دينار وتسليم دمياط فاطلقوه . ولما وصل الى دمياط اخذ اهله ومن تخلف من اصحابه وخرج عنها وسلمها الى المسلمين واقام هو بعكا وبنى مدينة قيسارية واصلحها واسكنها جماعة ثم سار الى بلده

٦٦

خروج الفرنج من قسطنطينية وحروب المصريين والفرنج

ولما تمكن ميخائيل ملك الروم من الملك عام ١٢٥٧ لم يكن له اهتمام الا باخذ قسطنطينية فسار اليها مرة ولم يقدر على فتحها فصبر الى ان ثارت الفتنة بين البنادقة والجنوية بمدينة عكا. فسار البنادقة اجمعين عن قسطنطينية الى عكا لنصرة اصحابهم وكانوا هم الحفظة لها . واحتال حيلة اخرى بان اشار الى متولي بعض قلاع الروم ليكاتب بغدوين الفرنجي صاحب قسطنطينية ويقول له : ان هذا ميخائيل قد تغلب على مملكة الروم بغير

استحقاق وهو ظالم متعد على بيت استاذه وانا كاره له وانت اولى بهذه القلعة منه لانك ملك ابن ملك وميخائيل خارجي . فابعث لي عسكرا وانا اسلمها اليهم ولا بد من منجنيقات تكون معهم فينصبونها ويظهرون القتال والزحف ليكون لي عذر عند الناس اذا سلمتها . فاغتر بغدوين الفرنجي بكلامه وقدره صادقاً بما قال فارسل من كان عنده من المقاتلين الى تلك القلعة ونازلوها واشتغلوا بنصب المنجنيقات والاستعداد للقتال . وحينئذ عبر ميخائيل في عساكره خليج قسطنطينية ونزل عليها وهي خالية عن رجال الحرب وحال بينها وبين العسكر الذي كان على القلعة المذكورة . فدله بعض الرعاة على باب عتيق للمدينة قد عفا اثره ولم يفتح من عهد قسطنطينوس فنبشوه ودخلوا المدينة وملكوها ليلاً وتغافلوا عن بغدوين صاحبها عمداً حتى خرج في اهل بيته وصار الى بلاد الفرنج في البحر . وكان مدة بقاء قسطنطينية بيد الفرنج نحو ثلث وخمسين سنة ثم عادت الى الروم كما كانت اولا

وعام ١٢٥٩ نهض بيبرز المعروف بالبندقدار الصغير على قوتوز التركماني صاحب مصر وقتله واخذ جماعة ودخل الى مصر وتسلمها وتمكن وقوي ولقبوه ركن الدين الملك الظاهر واشتد بأسه وتسلط على جميع المدن والقلاع التي على ساحل

البحر للفرنج . ونكل بجميع النصارى القاطنين فيها . ولم يدع للفرنج الا عكا وطرابلس وصور فقط[1]

وفي حزيران ١٢٦٩ ارسل البندقدار عساكره الى انطاكية وحاصرها واخذها اذ لم يكن فيها وقتئذ عسكر لحراستها والذين فيها لم يفتكروا في تسليمها . فدخلها المصريون وقتلوا جميع الرجال واحرقوا كنائسها المشهورة في العالم وسبوا النساء والبنين والبنات وتركوها قاعاً صفصفاً[2]

وفي السنة ١٢٧٠ سار صاحب مصر يريد فلسطين وحاصر حصن الاكراد واخذه بالسيف عنوة ولكنه لم يهدر فيه دماً واطلق الحرية لمن به في البقاء او الارتحال فظل قوم وقوم ذهبوا الى طرابلس

وفي السنة ١٢٧٥ توفي بيمونـد فرينس صاحب طرابلس وخلفه ابنـه . فارسل عظماء الفرنج في استحضار السير هنري (او هوج) والد صاحب قبرس وكان شيخاً وقوراً عاقلاً وفوضوا اليه تدبير الفتى وسياسة المملكة

وعام ١٢٨١ احتشد سبعة آلاف فارس في مصر وزحفوا الى قلعة مرقب على ساحل البحر وحصروها . فخرج عنها الرهبان الفرير اصحابها ليلاً وكانوا زهاء مائتي فارس وخمسمائة راجل

(١) ع السرياني ٥١٥ (٢) ع السرياني ٥٢٥

وكمنوا للمسلمين في مكان غير بعيد ونزلوا عن خيلهم واخذوا يهيئون خيامهم . ثم زحفوا الى معسكر المسلمين ووضعوا فيهم السيف ولم يفلت منهم الا القليل[1]

وفي منتصف نيسان ١٢٨٩ جيش المسلمون جيوشاً في سوريا وساروا الى طرابلس وحصروها فارسل الاهالي يستنجدون انسباءهم الفرنج في قبرس فاوفدوا اليهم في السفن عدداً من الجنود يسيراً . ولما وصلوا الى طرابلس تشدد الاهالي وقصدوا السور وحاربوا المسلمين حرباً شديدة استغرقت نحو ثلاثة شهور . غير ان المسلمين تغلبوا عليهم فانهم ثغروا السور باطلاق الحجار بالمجانيق فانهزم اغلب النصارى في السفن الى قبرس وبقي من بقي فثار بهم المسلمون واقتتلوا قتالا شديداً وهلك من المسلمين عدد كثير فسخطوا وقوضوا المدينة ولم يتركوا فيها برجاً الا قوضوه ولا كنيسة الا هدموها واحتووا على غنائم شتى . واستاسروا من البنين والبنات عدداً لا يقع تحت الاحصاء . وقتلوا جموعاً من الكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات وتركوا البلد خاوياً خالياً

وفي السنة ١٢٩٢ شاع خبر وفاة ارغون ملك التتر فحشد المصريون الجيوش وساروا الى عكا وهي للفرنج وحصروها

(١) ع ٥٤٤

شهرين كاملين حصارا عنيفاً . وكان الفرنج مستيقنين بالغلبة فتركوا ابواب المدينة ليل نهار مفتوحة وجعل فرسانهم يخرجون بشجاعة وبسالة ويحصدون المسلمين حصاد المنجل للسنابل حتى اناف عدد القتلى فيما قيل على العشرين الفاً . وظلوا متيقظين حتى اصيب قائدهم الكنت الكبير بسهم ومات . فخارت عزائم الفرنج وتشددت عزائم المسلمين فاقاموا على السور الصغير في البرزهاء ثلاثمائة عرادة جعلوا تحت كل متراس زهاء الف رجل يحفرون الارض فاخربوا برجاً او برجين . اما الرهبان الفرير الدواوية وسائر الضباط فجعلوا يدخلون الدور الحصينة ويحاربون المسلمين . غير ان المسلمين دخلوا الى عكا وجعلوا ينصحون للفرنج ليخرجوا عن الدور ووعدوهم انهم لا ينزلون بهم اذى واطلقوا لهم الحرية في الذهاب اينما شاؤوا هم ونساؤهم وبنوهم وبناتهم ما عدا اموالهم . غير ان الفرنج المحاصرين لما فتحوا الابواب ودخل المسلمون ليروا ما فيها من المال والمتاع ابصروا بنين وبنات حساناً فقبضوا عليهم وتصدوا لهم فغار الفرنج واستلوا السيوف والخناجر والتحم القتال بين الفريقين وقتل من الفوجين خلق كثير . ثم اخربوا تلك المدينة العامرة ولم يذروا للفرنج على سواحل البحر من ينفخ نارا . فانقطع امر الفرنج من المشرق في نيسان ١٢٩٢

٦٧

الحروب الصليبية وملوك المغول

رحلة الربان صوما الى بلاد اوربا

وعلى رغم ما كابده الاحبار الرومانيون وملوك الفرنجة واقطابهم من خسائر الارواح الوافرة والاموال الطائلة في سبيل الاراضي المقدسة على ما قدمنا لم يكونوا يكفون عن دعوة غيرهم من ملوك الارض لينضموا اليهم ويتحدوا معهم في استئناف الزحف الى سوريا وفلسطين بغية استرجاعها من حوزة المصريين والاستيلاء عليها

واتفق في تلك الغضون ان ارغون الصالح الذكر جلس على تخت الدولة المغولية (١٢٨٤–١٢٩٠) فاخذ الحبر الروماني وملوك الفرنج يراسلونه ويبعثون اليه الوفود في هذا الصدد . فاستدعى الملك يابالاها جاثليق الاسريان النساطرة (١٢٨٢–١٣١٧) وفاوضه في الامر فاوفدا في السنة ١٢٨٧ الربان صوما في عدة من الاقليرس والوجهاء الى رومية فبلاد اوربا لابرام عهود الاتفاق بينهم على كشف المصريين عن فلسطين ودفع الاذى والضرر عن المسيحيين[1]

---

(١) تاريخ الدول السرياني ٥٧٧

وكان ارغون ملك المغول يحب النصارى[1] ويجاملهم وكان يرغب ان يزحف في عساكره الى بلاد فلسطين وسوريا ويحتلها . لكنه رأى من الفطنة ان يسبق فيراسل ملوك المغرب معتقداً انه لا يفوز بالنجاح والتوفيق في ذلك دون مساعدتهم. فاستدعى اليه يابالها الجاثليق وسأله ان ينتخب رجلاً كفوءا متضلعاً من اللغات يرسله في وفد الى اولئك الملوك لابرام عهود الاتفاق معهم فوقع الاختيار على الربان صوما السرياني النسطوري لما امتاز به من الذكاء والحنكة ومعرفة اللغات

وكان الربان صوما يحب الاسفار وأبدى فكره هذا للملك والجاثليق معاً فكتب ارغون كتب توصية الى ملك الروم والى سائر الملوك ودفعها الى الربان صوما في تحف وتقادم واجزل له الفي مثقال ذهب وثلاثين حصاناً ووشحه بوسام ملكي وعين له ميعاد السفر . فودعه الربان شاكرا وقصد الجاثليق ليسترخصه في الرحيل فحمّله كتبا وهدايا الى البابا الروماني وزوده بالادعية واذن له في السفر على رغم احتياجه اليه

فارتحل الربان صوما في رجال افاضل من الكهنة والشمامسة ووصل الى سواحل بلاد الروم وزار الكنيسة ثم ركب في

---

(١) ننقل هذه الحوادث عن خبر يابالاها الذي نشره بالسريانية في باريس الاب بولس بيجان المرسل اللعازري عام ١٨٩٥ ص ٤٧–٨٦

اصحابه سفينة تقل ثلاثمائة رجل بنيف اغلبهم من الروم وجعل يفاوضهم في مسائل دينيه ويلقنهم نصائح ابوية فاستعذبوا كلامه وبالغوا في احترامه واكرامه . ولما شارف قسطنطينية اوفد الى الملك رجلين يخبرانه بوصول وفد ارغون ملك المغول فارسل ملك الروم طائفة من رجاله استقبلوهم مرحبين بهم وادخلوهم الى العاصمة باحتفال واجلال . واعدّ الملك للربان صوما داراً خصوصية لسكناه وبعد ان اخذ نصيبا من الراحة قصد الملك باسيليوس (اندرونيقس) وحياه تحية السلام والاحترام فاستوضحه الملك عن صحته وعما لاقاه من العناء برا وبحرا في رحلته . فقال له الربان ان رؤيتك ايها الملك المسيحي قد انستني جميع ما نالني من مشقات السفر اذ كنتُ مشتاقا غاية الشوق الى مشاهدة جلالتكم ايدها الله

وبعد ان اكل الربان صوما واصحابه وشربوا واستراحوا توسل الى الملك ان يطلق له الحرية في زيارة كنائس العاصمة واضرحة الاباء القديسين فاصدر الامر الى بعض الوزراء ليرافقوه فتعهد كنيسة اجيا صوفيا الكبرى وكانت تشتمل على ثلاثمائة وستين سارية كل سارية قطعة واحدة من الرخام الاخضر . اما قبة المذبح فان اللسان يقصر عن وصف علوها وعظمتها . وزار في تلك الكنيسة صورة العذراء مريم التي نقشها لوقا الانجيلي

ويد مار يوحنا المعمدان وذخائر لعازر ومريم المجدلية والحجر الذي وضع على ضريح الفادي عندما انزله يوسف الرامي من الصليب وعليه بكت مريم العذراء وما زالت رطوبة دموعها ظاهرة الى هذا اليوم وكلما مُسح الحجر او نشف عادت اليه الرطوبة . ثم تفقد الاجانة التي حوّل ربنا يسوع ماءها خمرا في قانا الجليل . وتعهد تابوت احدى القديسات الشهيرات وهم يخرجونه للتبرك مرة في السنة والمريض الذي يتبرك منه يفوز بالعافية والشفاء . وزار كذلك ضريح يوحنا فم الذهب . والحجر الذي كان جالساً عليه شمعون الصفا وقتما صاح الديك . وشاهد ضريح قسطنطين الملك الظافر وهو من الحجر الاحمر وضريح الملك يوسطنيان وهو من الحجر الاخضر . وزار كنيسة آباء المجمع النيقاوي الثلاثمائة والثمانية عشر الذين ايدوا الايمان واجسامهم لم تبلَ . وتفقد اضرحة شتى وطلسمات كثيرة وتماثيل عديدة منقورة على نحاس او على حجر

وبعد هذا عاد الربان صوما الى البلاط وشكر للملك وقال له عشت ايها الملك الى الابد . اني احمد اليك الله تعالى لانك سوّغت لي زيارة الاضرحة المقدسة . اما الآن فاني استأذنك في استئناف الرحيل الى بلاد فروجيا طبقاً لاوامر ارغون . فامر الملك ان تهيأ له لوازم السفر واسنى اليه التقادم والهدايا الذهبية

والفضية وشيعه بسلام

فظعن الربان صوما الى ايطاليا فرومية وتفقد ديراً للروم على سواحل البحر وشاهد في موقه الكنيسة تابوتين فضيين يشتمل احدهما على هامة مار ايونيس فم الذهب والثاني على جثمان البابا الروماني الذي عمد قسطنطين الملك . ثم عاد فركب البحر ومرّ بجبل شاهق (جبل أثنا) ينبعث منه الدخان طول النهار ويتحول طول الليل الى نار ولا يتيسر لكائن من كان ان يدنو اليه لسبب رائحة الكبريت المنبعثة منه . ويزعم البعض ان فيه تنيناً عظيما . وهذا البحر يقال له بحر ايطاليا بادت فيه سفن عديدة لتواتر الهيجان والزوابع فيه

وبعد مرور شهرين كاملين نالته في اثنائهما مشقات وافرة واخطار جسيمة وصل الى الساحل ونزل الى مدينة نابولي وزار ملكها شرل الثاني[1] فرحب به واكرم مثواه . وكانت يومئذ الحرب بينه وبين يعقوب ملك اراغون باسبانيا قائمة على قدم وساق . وكان يعقوب قد ارسل جنوداً كثيفة في سفن كثيرة الى ايطاليا وتناوش الفريقان القتال فتغلّب يعقوب وفتك باثني عشر الفاً من عساكر شرل الثاني واغرق سفنهم . وكان الربان صوما واصحابه وقتئذ واقفين على سطح الدار

(١) كان الملك يومئذ مسجوناً

يشاهدون القتال متعجبين من عادة الفرنج فانهم لم يكونوا يتعرضون الا لمن كان في ساحة الوغى

ثم ركب الربان صوما وركب اصحابه الى رومية ومروا بمدن جميلة وقرى كثيرة حافلة بالسكان والخصب والعمران . وبلغهم اذ ذاك ان السيد البابا هنوريوس الرابع قد توفي (في ٣ نيسان ١٢٨٧)

ولما بلغوا الى رومية العظمى تعهدوا كنيسة مار بطرس وبولس حيثما كانت قلاية العرش الروماني . وكان يدبره على اثر وفاة البابا اثنا عشر كردينالا اجتمعوا لانتخاب بابا جديد

فاوفد الربان صوما يفيدهم ان الملك ارغون وجاثليق الشرق ارسلاه مع اصحابه الى رومية لزيارة البابا فاستدعوهم واذنوا لهم في الدخول . وكان يرافق الوفد رجل فرنجي لقن الزوار ان يسجدوا اولا امام المذبح الراكز في قلاية البابا ثم يتقدمون فيحيون الكرادلة تحية السلام . فاجرى الزوار ما اشار عليهم القائد وابتهج الكرادلة بذلك . على ان الربان صوما لما دخل لم يقفوا لاستقباله طبقاً للعادة المألوفة يومئذ عند اولئك الاثني عشر اجلالا لمقام الكرسي الرسولي

وبعد هذا امروا له بالجلوس فجلس واستخبروه عن صحته فقال اني بدعائكم متمتع بالعافية والراحة . فقال له الكردينال

ما سبب جيئتك. قال الربان انما اوفدني ملك المغول وجاثليق المشرق في رسائل الى السيد البابا منوطة بمسائل اورشليم. قال الكردينال خذ راحتك الان ثم نتفاوض في الامر. وعينوا له داراً يثوي بها

وبعد ايام ثلاثة ارسلوا في طلبه واستفسروه عن وطنه وعن سبب رحلته فقال لهم قوله الاول. قالوا اين يسكن الجاثليق. واي رسول نصّر اهل بلادكم. قال نصّرها مار توما ومار ادّي ومار ماري وما برحنا الى هذا اليوم متمسكين بتقاليدهم. قالوا اين هو كرسي الجاثليق. قال في بغداد. قالوا وما هي وظيفتك. قال انا شماس القلاية وكبير التلامذة والزائر العام. قالوا عجباً انت مسيحي وخادم كرسي المشرق البطريركي وقد اوفدك الينا ملك المغول. قال لا يخفى عليكم ايها الاباء ان جملة من آبائنا قصدوا بلاد المغول والترك والصين ونصروا سكانها وقد ازداد اليوم عدد النصارى هناك. فابناء الملوك والملكات قد اصطبغوا بماء العماد وهم يؤمنون بالسيد المسيح وعندهم كنائس نقالة تتبع جنودهم وعساكرهم. وهم يحترمون المسيحيين احتراماً فائقاً اما ملكهم فيعز الجاثليق ويحبه. ومن نيته ان يستولي على بلاد فلسطين وسوريا فيرغب ان تنجدوه في فتح اورشليم. وهذا ما اضطره ان يختارني انا

المسيحي ويرسلني اليكم لتشقوا بقوله . قالوا له ما هي عقيدتك وطريقتك هل تعتقد عقيدة البابا ام غيرها . قال لم يوافِ بلادنا احد من قبل البابا . غير ان الرسل الذين ذكرت لكم اسماءهم هم الذين نصرونا وما زلنا متمسكين بتعاليمهم . قالوا قرر صورة ايمانك . قال : اني اؤمن بالاه واحد محتجب ازلي سرمدي لا بداءة له ولا نهاية . الاب والابن والروح القدس ثلاثة اقانيم متساوية غير منقسمة . . .

وطال الحديث في مسائل الدين وبالغ الكرادلة في الاحتفاء بالربان صوما الى ان قال لهم : ما قدمت من بلاد بعيدة لاجادل بل لاتبرك من السيد البابا واتيمن باضرحة القديسين واعرض عليكم ان شئتم سبب شخوصي اليكم . وبودي الان لو كلفتم احداً يجول معي لاتعهد كنائس رومية ومدافن القديسين فاغدو انا تلميذكم غريق فضلكم

فاستدعى الكرادلة امير المدينة وطائفة من الرهبان واوصوهم ان يطوفوا مع الوفود في كنائس رومية ومعاهدها المقدسة . فزاروا اولا كنيسة بطرس وبولس وشاهدوا تحت المذبح مغارة تحتوي على جثمان مار بطرس ويعلو المذبح اربعة ابواب فوقها عواميد من الرصاص اللامع المطعم بعدة صور وعليه يقيم البابا الذبيحة الالهية . ولا يتاح لاحد غيره ان يقف

على منصته . ثم شاهدوا كرسي مار بطرس حيثما يجلس البابا عند رسامته . ورأوا قطعة كتان خالص مدبج بصورة السيد المسيح التي اوفدها الى ابجر ملك الرها . ويقصر اللسان عن وصف عظمة تلك الكنيسة وزينتها الفاخرة فهي مرتكزة على مائة وثمانية عواميد[1] . وفي هذه الكنيسة مذبح ثان حيثما يتوّج البابا ملك ملوكهم المدعو امبراطوراً . قيل ان البابا بعد تلاوة الصلوات يلمس ذلك التاج برجليه ثم يضعه على هامة الملك ملمعاً بذلك الى ان الكهنوت يفوق السلطان ويسوده

ثم خرجوا الى كنيسة مار بولس وزاروا ضريحه تحت المذبح وشاهدوا السلسلة التي اوثق بها عندما ذهبوا به الى منقع العذاب . ورأوا في المذبح صندوقاً ذهبياً يشتمل على هامة مار اسطفانس الشهيد وعلى يد مار حنانيا الذي عمد بولس وعلى عصا بولس الرسول . ثم زاروا مكان استشهاد مار بولس . قيل انه لما حزّت هامته قفزت ثلاثاً وفي كل قفزة كانت تنادي ايها المسيح ايها المسيح وتدفق من تلك الاماكن الثلاثة ماء يشفي المرضى ويبرىء السقام . وتعهدوا الديامس وزاروا رفات بعض الشهداء والآباء القديسين . ثم زاروا كنيسة القديسة

(١) جددت تلك الكنيسة بكنيسة اكبر وافخم واجمل من جميع كنائس الدنيا يبلغ ارتفاعها ١٥٩ ذراعاً وطولها ١٨٧ متراً

مريم و كنيسة مار يوحنا المعمدان وتبركوا بقميص ربنا يسوع المنسوج قطعة واحدة . وزاروا اللوح الذي قدس عليه يسوع القداس وناول تلاميذه وعليه يقدس سيدنا البابا قداس عيد الفصح كل سنة . وشاهدوا في تلك الكنيسة اربعة عواميد نحاسية سمك الواحد ست اذرع نقلها الملوك فيما قيل من اورشليم الى رومية . ثم زاروا الجرن الذي فيه اعتمد قسطنطين الملك المنصور وهو من حجر اسود صقيل . اما عواميد تلك الكنيسة الواسعة الفخمة فتبلغ مائة واربعين عموداً كلها من الرخام الابيض

وتفقدوا مكان جرت فيه مجادلة بطرس الرسول وسيمون الساحر حيثما سقط سيمون وتحطمت اعضاؤه . ثم قصدوا كنيسة العذراء وشاهدوا صندوقاً من البلور الثمين يحتوي على ثوب سيدتنا مريم العذراء وعلى قطعة من الخشب رقد عليها الرب يوم كان طفلاً . ورأوا هامة ماتيا الرسول ضمن صندوق فضي . وزاروا في كنيسة الرسل قدم فيلبس الرسول و كتف يعقوب بن زبدى . ثم تفقدوا ابنية فخمة يقصر اللسان عن وصفها

ثم عاد الربان صوما ورفاقه قاصدين الكرادلة وشكروا لهم فضلهم لانهم سوغوا لهم مشاهدة تلك الآثار والتيمن بها . ثم استأذنهم في استئناف الذهاب الى زيارة الملوك فاذنوا له

واستعذروه قائلين ليس في امكاننا ان نجيب الى طلبك قبل رسامة البابا الجديد

فارتحل الوفد من رومية الى توسكانا حيث لاقوا اكراماً جزيلاً ووصلوا الى جنوا . والاهالي في هذه المدينة لا ملك لهم لكنهم ينتخبون من يحبون من مشاهيرهم ويولونه سياستهم . ولما بلغهم وصول وفد الملك ارغون خرج كبيرهم في شعب كثيف وادخلوهم الى المدينة بحفاوة جزيلة . وزاروا ثم كنيسة مار لورنسيوس حيثما يصان رفات مار يوحنا المعمدان في صندوق من الفضة الخالصة . وشاهدوا طبقاً من الزمرد مسدس الزوايا هو فيما قيل الطبق الذي فيه تناول الرب العشاء السري مع تلاميذه وقد نقل الى جنوا وقت دمار اورشليم

ثم ارتحلوا الى لومبار وعرفوا ان اهلها لا يصومون اول اسبوع من الصوم الكبير فاستفسروهم عن السبب فقالوا انما اعتدنا ذلك لان اجدادنا كانوا ضعيفي الايمان في عنفوان تنصرهم فاطاق لهم متلمذوهم ان يقتصروا على الصيام اربعين يوماً فقط

ثم سار الوفود الى فرنسا لزيارة الملك فيلبس الرابع في باريس فخرج جمهور المسيحيين لاستقبالهم ورحّب بهم الملك وبالغ في الاحتفاء بهم . وعين محلاً لمثواهم . ومساحة مملكة

فرنسا مسير شهر بنيف . وبعد ثلاثة ايام اوفد الملك اميراً من امرائه فاستدعى اليه الربان صوما واستقبله باكرام وقال له لماذا اتيت الينا ومن الذي ارسلك . قال الربان ارسلني الملك ارغون وجاثليق المشرق في مسئلة اورشليم وشرح له كل شيء بالتفصيل ودفع اليه الرسائل وقدم له ما استحضر من الهدايا والتقادم . فقال له الملك ان كان المغول وهم ليسوا بنصارى يرومون ان يحتلوا اورشليم من يد المسلمين فنحن بالاولى يلزمنا ان نجاهد في هذا السبيل ونقصدها في عساكرنا ان يسر الله . قال الربان لقد شاهدنا بام عيننا مملكتكم المجيدة وعزكم وسطوتكم فنرغب ان تأمروا بعض رجالكم ليجولوا معنا كي نتعهد الكنائس ومدافن القديسين ونتيمن بذخائرهم ونتفقد ما في عاصمتكم من الآثار النادرة والنفائس الثمينة فأمر الملك وزراءه في ذلك ثم قال للوفود عودوا الي فاطلعكم على ما عندي ايضاً

ولبث الوفود في باريس شهراً تعهدوا مدارسها التي تضم ثلاثين الف طالب يتلقنون على نفقة الملك جميع العلوم الكنسية والاداب والفنون وشروح الكتاب المقدس والفلسفة والفصاحة والطب والهندسة والحساب وعلم الفلك والنجوم . وشاهدوا في احدى الكنائس اضرحة الملوك المتوفين تعلوها تماثيلهم الذهبية

والفضية يتولى حراستها وخدمتها خمسمائة راهب ياكلون ويشربون على حساب الملك ويواصلون فيها الاصوام والصلوات. وفوق تلك الاضرحة تيجان الملوك واسلحتهم وحللهم . فزاروا كل ما كان مجيداً وجميلاً . وقصدوا كنيسة الملك فألفوه منتصباً يصلي الى جانب مذبحها فسلموا عليه وشكروا له جميله فمضى بهم الى غرفة ذهبية فتحها واخرج صندوقاً من البلور الفاخر النقي فيه اكليل الشوك الذي كلّل به اليهود هامة ربنا وجزء من خشب الصليب . وافادهم الملك ان آباءه لما استولوا على قسطنطينية وغزوا اورشليم نقلوا تلك الذخائر المباركة الى باريس . فبارك الربان الملك واستأذنه في الرجوع فقال له اني مرسل معكم وزيراً من وزرائي في جواب مني الى ارغون الملك ثم اتحفه بهدايا واقمشة فاخرة

وانطلق الربان صوما في اصحابه الى انكلترا لزيارة ادورد ملكها . فقضوا في الطريق عشرين يوماً . ولما شارفوا المدينة خرج الاهلون لاستقبالهم واستوضحوهم امر قدومهم فقالوا قد اوفدنا اليكم ملك المغول والبطريرك من بلادنا الشرقية . فسارعوا وافادوا الملك فرحب بهم وادخلهم الى بلاطه فدفعوا اليه كتاب الملك ارغون وهداياه وكتاب الجاثليق ايضاً فابتهج ابتهاجاً عظيماً ولا سيما لما عرف ان المسئلة منوطة باورشليم وقال

نحن ملوك هذه البلاد نحمل راية الصليب مفتخرين ولا نفتكر الا في هذه القضية . وقد طاب لي ان الملك ارغون ايضاً يفتكر في ما افتكر انا . ثم امر الربان ان يحتفل بقداس كبير حضره هو وجميع حشمه وتناول الاسرار . وأولم في ذلك اليوم للوفود وليمة فاخرة . ثم استأذنه الربان صوما في زيارة الكنائس والاضرحة ليخبر اهل وطنه عند عودته بما يشاهده . ثم قال لهم الملك بلّغوا ارغون ولفيف ابناء المشرق انكم رأيتم في بلادنا امراً عجيباً غريباً لا مثيل له وهو انه ليس في بلاد الفرنج الا ديانة واحدة فقط وهي الديانة المسيحية[1] يؤمن اهلها جميعاً بيسوع المسيح : ثم اتحفهم ببعض الهدايا والنفقات وسرحهم

وبعد هذا قصدنا جنوا لنشتي فيها فشاهدنا فيها حدائق ظريفة كأنها الفردوس . شتاؤها وصيفها معتدل تكثر فيها الاشجار واوراقها لا تنتثر وتكاد لا تخلو من الثمار . وفيها شكل عنب يحمل في السنة سبع مرات ولا تعصر منه خمر

وفي سلخ الشتاء اقبل قاصد مفضال من قبل البابا الروماني يريد السفر الى رومية فبلغه امر الربان صوما فسار الى زيارته

---

(١) لم تكن بلاد اوربا في تلك الاثناء متمسكة الا بايمان واحد هو ايمان الكنيسة الرومانية فكانوا يخضعون كلهم للحبر الروماني خليفة بطرس زعيم الرسل . فتباً لمن بذر فيهم فيما بعدُ زوان الشقاق والاختلاف

وحياه وعانقه بحب مسيحي وقال له قد وافيت لزيارتك لعلمي انك رجل صالح حكيم وانك تروم الذهاب الى رومية . فقال له الربان صوما اعلم ايها الحبيب المحترم ان الملك ارغون وجاثليق المشرق قد اوفداني الى هـذه البلاد لافاوض مولاي البابا في مسئلة اورشليم وقد مرت السنة والى الان لم ينتخب بعـد بابا فلست ادري بماذا اجاوب المغول القساة القلوب متى وصلت الى وطني . فهم يريدون ان يحتلوا مدينة القدس فالذين يهمهم الامر لا يكترثون للمسئلة على ما ارى ولا يفتكرون فيها . قـال له القاصد البابوي انك لمصيب في قولك وهنذا ذاهب الى رومية لابلّغ الكرادلة كلامك واحثهم على الاسراع في تسمية البابا

ثم ارتحل القاصد البابوي الى رومية وعرض المسئلة على الملك البابا فاوفد رسولا الى الربان واصحابه يستدعيهم اليـه . وما كاد يصل الرسول حتى تأهبوا للرحيل وقضوا خمسة عشر يوماً في الطريق حتى وصلوا الى رومية واستفسروا عن البابا الجديد فقيل لهم انه هو الاسقف الذي حادثكم اول مرة لما جئتم الى رومية واسمه نقولاوس (الرابـع الذي انتخب حبراً اعظم في شباط ١٢٨٨) . فابتهج الوفود بذلك . ثم ان البابا الجديد اوفد بعض الاساقفـة فاستقبلوهم ومضوا بهم الى القصر البابوي وكان البابا مستوياً على عرشه فسجد له الربان صومـا وقبّل

قدميه ويديه وعاد ادراجه مكتفا يديه وقال له : أيد الله عرشك يا ابانا الى الابد و كن مبارك لدى الملوك والامم قاطبة. وليسد السلام في عهدك في الكنيسة من اقصائها الى اقصائها .فقد تيمنت برؤيتك و استنارت عيناي بمشاهدتك وسأعود الى وطني مجبور الخاطر . فاشكر لله نعمه لانه وفقني ان اشاهدك . قال هذا وقدّم له هديتي الملك ارغون والجاثليق ورسائلهما . فسرّ البابا بذلك وبالغ في اكرامه وقال له اودُّ لو تبقى عندنا وتعيد معنا وتشاهد عوائدنا و كان ذلك اليوم نصف الصوم الكبير . فقال له الربان سمعاً وطاعة . فخصص له البابا داراً لسكناه وعين له خدمة يقومون بجميع لوازمه وحاجاته

وبعد ايام سأل الربان صوما السيد البابا ان يسمح له باقامة القداس لديه . فاجاب البابا الى طلبه وأمره ان يقدس قداساً سريانياً حضره جمهور غفير بسرور جزيل وقالوا له ان اللغة مختلفة ولكن الطقس واحد . وكان ذلك يوم الاحد السادس من الصوم ولما انهى القداس زار البابا وحياه بالسلام فقال له : قبل الله قربانك وبارك وغفر لك ذنوبك وآثامك . قال له الربان اني مع قبولي منك يا ابانا مغفرة الزلات والخطايا التمس من ابوتك ايها الاب الاقدس ان اتناول القربان من يدك لافوز بالغفران الكامل فقال البابا فليكن كما طلبت

وصباح الاحد التالي وهو احد الشعانين تقاطر المؤمنون الوفاً وربوات واحتفوا بالكرسي البابوي حاملين اغصان الزيتون فبارکها البابا ووزعها على الكرادلة والمطارنة والاساقفة والامراء والاعيان وتفيف الشعب ثم سار في تطواف عظيم الى الكنيسة ودخل الموفه وبدل ثيابه وتوشح بحلة حمراء منسوجة بالذهب ومطرزة بالجواهر والياقوت واللآلىء وتحذى حذاء جميلاً وولج المذبح وارتقى المنبر والقى عظة على الشعب وقدس الاسرار وناول القربان اولا الربان صوما بعدما اعترف بخطاياه[1] وفاز بمغفرة ذنوبه وذنوب آبائه . وكان وقت تناوله الاسرار يذرف الدموع نادماً معتقداً انه يتقبل نعمة الله ومراحمه السابغة

وصباح خميس الفصح سار البابا الى كنيسة مار يوحنا المعمدان في جماهير غفيرة وقصد غرفة كبيرة مفروشة بافخر الرياش يمتد امامها سهل فسيح فدخل اليها ودخل معه الكرادلة والمطارنة والاساقفة وبدأ الصلاة ووعظ كالعادة . ولكثرة الازدحام لم يكن يُسمع الا دوي لفظة آمين وكانت الارض اذ ذاك ترتج ارتجاجا . ثم انحدر البابا من المنبر وقصد المذبح وقدس الميرون واحتفل بالقداس وناول الشعب . ثم خرج الى الكنيسة الكبرى ووزع على كل من الاباء والاساقفة قطعتين

(١) هذا برهان على استعمال سر التوبة في الكنيسة منذ اوائلها

ذهبيتين وثلاثين قطعة فضية وانصرف . ثم اجتمع بابناء قلايته وغسل اقدامهم جميعا ومسحها بمنديل كان متأزراً به . وعند الظهيرة أُعدت مائدة فخمة جلس اليها زهاء الفي شخص و كان الخدام يضعون امام كل منهم حصته من الطعام . وانتهوا من الاكل قبل الغروب بثلاث ساعات

ويوم جمعة الالام توشح السيد البابا وجميع الاساقفة ببرانس سود وساروا حفاة الى كنيسة الصليب المقدس فسجد البابا امامه وقبله وعرضه على كل من الاساقفة فقبلوه ايضاً . اما المؤمنون فكشفوا رؤوسهم وخروا امامه ساجدين ثم خطب البابا وبارك بالصليب الجهات الاربع ثم استحضر قربانة قداس الفصح ومزج خمراً وتناول وحده من ذلك القربان اذ لا يجوز في ذلك اليوم ان يقدس القداس . ثم عاد البابا الى قلايته

ويوم السبت اجتمع البابا في الكنيسة بالكرادلة وتلوا فصولا من النبوآت . ثم قصدوا جرن العماد وكان محفوفاً باغصان الغار فكرّسه البابا وعمد ثلاثة فتيان ووسمهم ومضى الى الموفه وبدّل حلّته السوداء بحلة فاخرة ثمينة جداً واحتفل بالقداس

وصباح احد القيامة قصد البابا كنيسة مريم العذراء الكبرى وحيا الكرادلة والمطارنة والاساقفة والجماعة وقبل

بعضهم افواه بعض . وقدس وناول الاسرار وذهب الى غرفته وتغدى . وصباح الاحد الجديد رسم ثلاثة اساقفة . وحضر الربان صوما واصحابه جميع تلك الحفلات والمواسم . ثم استأذن البابا في الرجوع الى وطنه فقال له البابا اننا نرغب ان تبقى عندنا وما بيننا ونحن نعتني بامرك اعتناءنا بحدقة عيننا . فقال له الربان انما اقبلت اليكم في امر ذي شأن وقد كان بودي لو قضيت عمري كله خادما على باب قلايتكم . ومن المقرر عندي اني متى وصلت الى بلادي واخبرت الملوك بما اوليتم حقارتي من الفضل فان النصارى سيبتهجون بذلك جداً . بيد اني التمس من قداستكم ان تجودوا علي بذخائر بعض القديسين . قال له البابا لو تعوّدنا ان نوزع ما عندنا من الذخائر لانتهت مهما كانت كثيرة ومع هذا فبما انك قد اقبلت الينا من بلاد بعيدة فاننا نتحفك بشيء منها فاسنى اليه قطعة صغيرة من ثوب ربنا يسوع ومن وشاح مريم العذراء وبعض ذخائر القديسين وارسل معه الى مار يابالاها الجاثليق تاجاً ذهبياً مرصعاً بحجارة كريمة وحلّة حمراء منسوجة بالذهب وحذاء مزداناً بلآلىء دقيقة وخاتما كان في اصبعه . وحمّله منشوراً يخول الجاثليق سلطانا على جميع ابناء المشرق[1] . ودفع الى الربان صوما صكاً به يوليه ان

(١) هذا برهان صريح على سلطة البابا الروحية على جميع المسيحيين شرقاً وغرباً

يتعهد جميع المسيحيين ثم زوده بالبركة وجاد عليه بالف وخمسمائة مثقال من الذهب لنفقات الطريق واوفد الى الملك ارغون كتابا وهدية ثمينة . وعانق الربان صوما وقبله فشكر له الربان فضله وجميله وودعه وانصرف

ثم غادر الربان صوما رومية وركب البحر عائداً الى وطنه ووصل غانما سالما وقصد الملك ارغون تواً ودفع اليه كتاب بركة البابا وهديته وهدايا سائر ملوك الفرنج وافاده عما لاقاه منهم من الحب والاجلال وعن استعدادهم الى اجابة طلبه وحدثه بجميع ما شاهده من العجائب والغرائب ووصف له عظمة اولئك الملوك وعزة سلطانهم . فابتهج الملك ارغون وشكر للربان وقال له قد كلفناك مشقة السفر على رغم شيخوختك ومن ثم فلن نتخلى عنك بل نبني لك كنيسة في عاصمتنا تكمل فيها فروضك الدينية . قال له الربان ان شئت يا مولاي فمر سيدي الجاثليق ان يحضر ويستلم الهدايا والاواني البيعية التي ارسلها اليه البابا ويتولى بناء الكنيسة التي ازمعت ان تؤسسها ويدشنها هو . فاجاب الملك الى طلبته

انتهى

فهرس

فصل		صفحة
	توطئة الكتاب	٣
١	بلاد المشرق قبل الحروب الصليبية	٦
٢	زحفة الفرنج الى بلاد المشرق	١٢
٣	ذهاب الفرنج الى الرها وفتحها	١٦
٤	فتح انطاكية	١٩
٥	تتبع زحفات الفرنج	٢٣
٦	فتح اورشليم وتتويج غودفروا ملكاً	٢٦
٧	مواقع سنجيل وفتحه طرابلس	٣٠
٨	استئسار بيموند ملك انطاكية واحتلال الترك ملطية	٣١
٩	وفاة غودفروا وخلافة بغدوين	٣٥
١٠	حصار سروج وفتحها	٣٦
١١	زحفة جكرميش الى الرها وفتح سميساط وجرجر	٣٩
١٢	التئام ملوك الفرنج في الرها وانتقاضهم وانكسارهم	٤٠
١٣	نجاة بغدوين وجوسلين	٤٣
١٤	زحفة ممدود الى الرها وبسالة جوسلين	٣٥
١٥	زحفة ممدود الى سوريا وقتله	٥٠
١٦	امراء الارمن	٥١
١٧	خراب مرعش واختلاف بغدوين وجوسلين وانكسار برساقي	٥٣

فصل		صفحة
١٨	حصار الفرنج عزاز	٥٤
١٩	فتح البيرة ووفاة بغدوين الاول وخلافة بغدوين الثاني	٥٦
٢٠	خبر الرهبان الفرير	٥٧
٢١	زحفة غالران وانكسار رجير وتغلب بغدوين على الترك	٦٤
٢٢	ولاية جوسلين الرها واستئساره مع غالران فبغدوين ونجاتهم	٦٥
٢٣	حصار جوسلين حلب ومسئلة كنائسها المغتصبة	٧١
٢٤	ملوك الفرنج وبطاركة السريان	٧٢
٢٥	زحفة الفرنج من البندقية وحصار صور وحلب وعزاز وكفرطاب وجبلة الخ	٧٧
٢٦	ولاية بيموند على انطاكية وقتله ووفاة جوسلين	٨٣
٢٧	خلافة فلك في اورشليم وحروب جوسلين	٨٦
٢٨	ظهور زنكي التركي	٨٧
٢٩	زحفة ايوني ملك الروم الى سوريا	٨٩
٣٠	فتح الترك آدنة	٩١
٣١	الترك والرهاويون وبوزاش وزنكي	٩٣
٣٢	زحفات ملك الروم	٩٤
٣٣	حصار الرها واحتلالها المشئوم	٩٧
٣٤	حصار سروج والبيرة	١٠٧
٣٥	عودة زنكي الى الرها ووصف كنائسها وارتحال زنكي الى قلعة جعبر وقتله	١١٠
٣٦	خراب الرها ودمارها	١١٥
٣٧	سياسة الفرنج الخرقاء وهلاك الرهاويين المنهزمين كافة	١٢١
٣٨	زحفة ملك الروم وملوك الفرنج	١٢٤

فصل		صفحة
٣٩	الترك في ضواحي ملطية وقتل فرينس	١٢٩
٤٠	جوسلين في دير برصوما بملطية	١٣١
٤١	انكسار نور الدين . القبض على جوسلين وسجنه وموته	١٣٤
٤٢	زحفات الفرنج واحتلال عسقلان	١٣٨
٤٣	طورس الارمني وفرينس . الزلازل . غزو شيزر وفتح قلعة حارم ومنوئيل ملك الروم	١٤٠
٤٤	زحفة ريمند وجوسلين الى حلب وأسرهما وزحفة اموري الى مصر . حروب طوروس ونور الدين	١٤٤
٤٥	حصار قلعة حارم وانكسار الفرنج	١٤٦
٤٦	الفرنج ومصر وطورس الارمني	١٤٨
٤٧	اموري وملبح الارمني . تقويض كنائس الرها . حوادث العالم	١٥١
٤٨	الاحبار الرومانيون وميخائيل الكبير	١٥٥
٤٩	الفرنج وصلاح الدين . وفرينس صاحب انطاكية وشاهنشاه	١٥٨
٥٠	انتصار الفرنج على صلاح الدين في عسقلان	١٦٠
٥١	انكسار الفرير وقتال الفرنج في حارم ودمياط وقسطنطينية والكرك الخ	١٦٢
٥٢	فرينس وروبين الارمني وخلافة غي في اورشليم	١٦٦
٥٣	حروب الفرنج وصلاح الدين في فلسطين والسواحل	١٦٧
٥٤	فتح القدس	١٧٣
٥٥	انكسار صلاح الدين في صور	١٧٩
٥٦	حصار عكا وفتحها وانتصار الفرنج	١٨٢
٥٧	رشرد ملك انكلترا وصلاح الدين	١٩٦
٥٨	تتبع زحفات الفرنج واحتلالهم قسطنطينية	٢٠٢

فصل		صفحة
٥٩	انوكنتيوس الثالث والحرب الصليبية . مصادمة الفرنج والعادل . خلافة روبين في انطاكية	٢٠٧
٦٠	زحفة الفرنج الى دمياط	٢٠٩
٦١	الارمن والفرنج	٢١٣
٦٢	استرجاع الفرنج بيت المقدس	٢١٦
٦٣	بطريرك السريان في اورشليم وكثلكته	٢١٩
٦٤	الرهبان الفرير وصاحب حماة وغياث الدين والفرنج	٢٢١
٦٥	زحفة مار لويس التاسع ملك فرنسا	٢٢٢
٦٦	خروج الفرنج من قسطنطينية وحروب المصريين والفرنج	٢٢٨
٦٧	الحروب الصليبية وملوك المغول . رحلة الربان صوما الى بلاد اوربا	٢٣٣

تنبيه : وقع اغلاط طفيفة لا تعسر على القارىء العزيز معرفتها اضربنا عن تصحيحها

جدول صور الكتاب

		صفحة
١	الصليبيون تجاه انطاكية	١٥
٢	وصول بغدوين الى الرها	١٧
٣	تتويج غودفروا ملكاً على اورشليم	٢٥
٤	غودفروا يعلق في كنيسة القيامة رايات الترك	٢٩
٥	وفاة غودفروا ونقل جثمانه الى كنيسة القبر	٣٤
٦	زي الرهبان الفرير	٥٩
٧	هيكل اورشليم في عهد الصليبيين	٥٩
٨	منظر الرها الحالية	٩٩
٩	لويس السابع وكونراد وبغدوين والبطريرك والرهبان والامراء في مؤتمر عكا	١٢٧
١٠	طورس الارمني ملك قليقيا	١٤١
١١	فيليب اوغست ملك فرنسا	١٨٣
١٢	رشرد قلب الاسد	١٨٩
١٣	صلاح الدين الايوبي	١٩٥
١٤	انوكنتيوس الثالث الحبر الروماني	٢٠٧
١٥	لاون ملك الارمن	٢١٧
١٦	لويس التاسع يودع الاسقف قبل رحيله الى الحرب الصليبية	٢٢٣
١٧	الملكة مرغريت تتوسل الى حارسها ان يقتلها قبل وقوعها بيد العدو	٢٢٧

009390